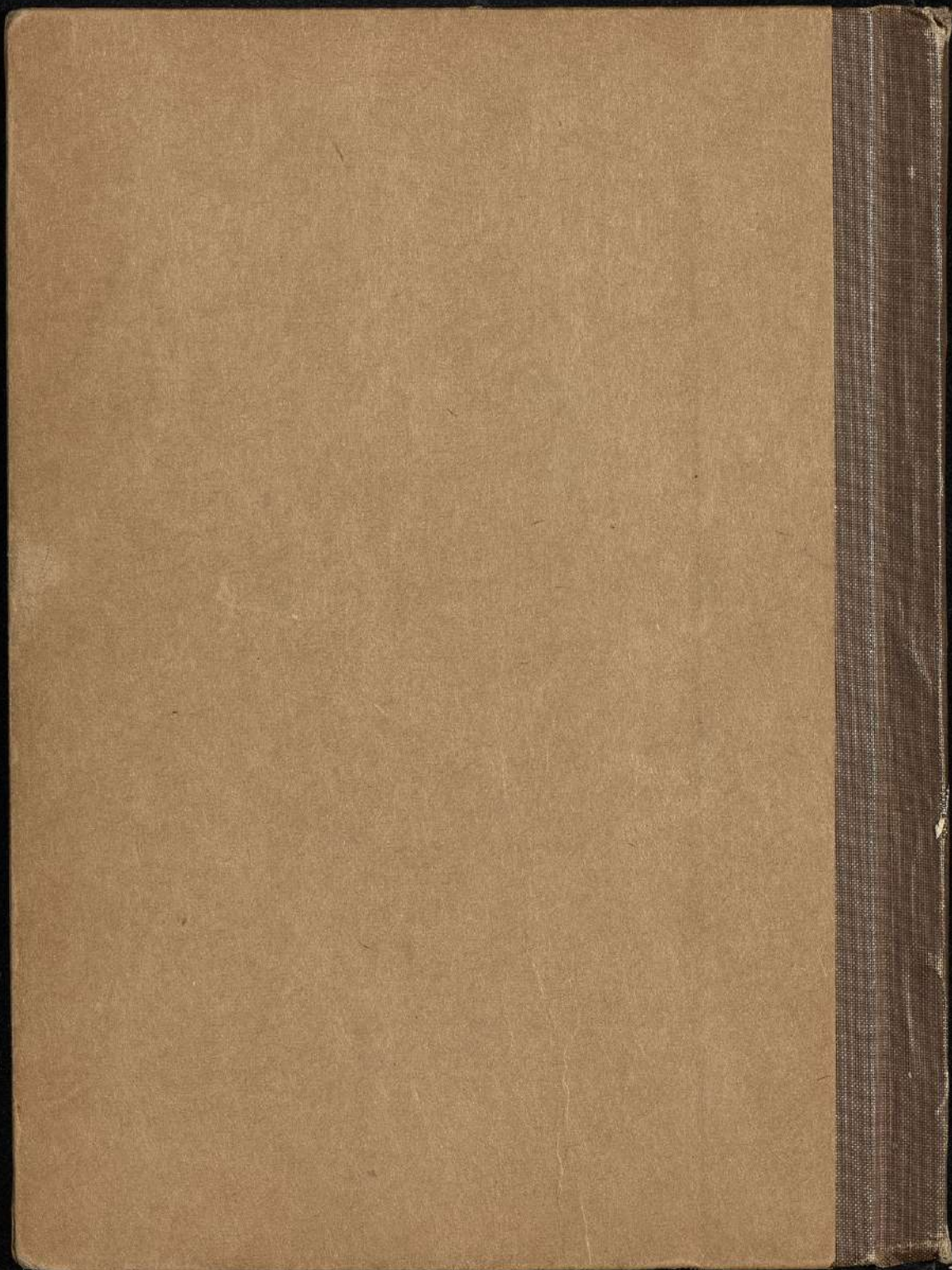


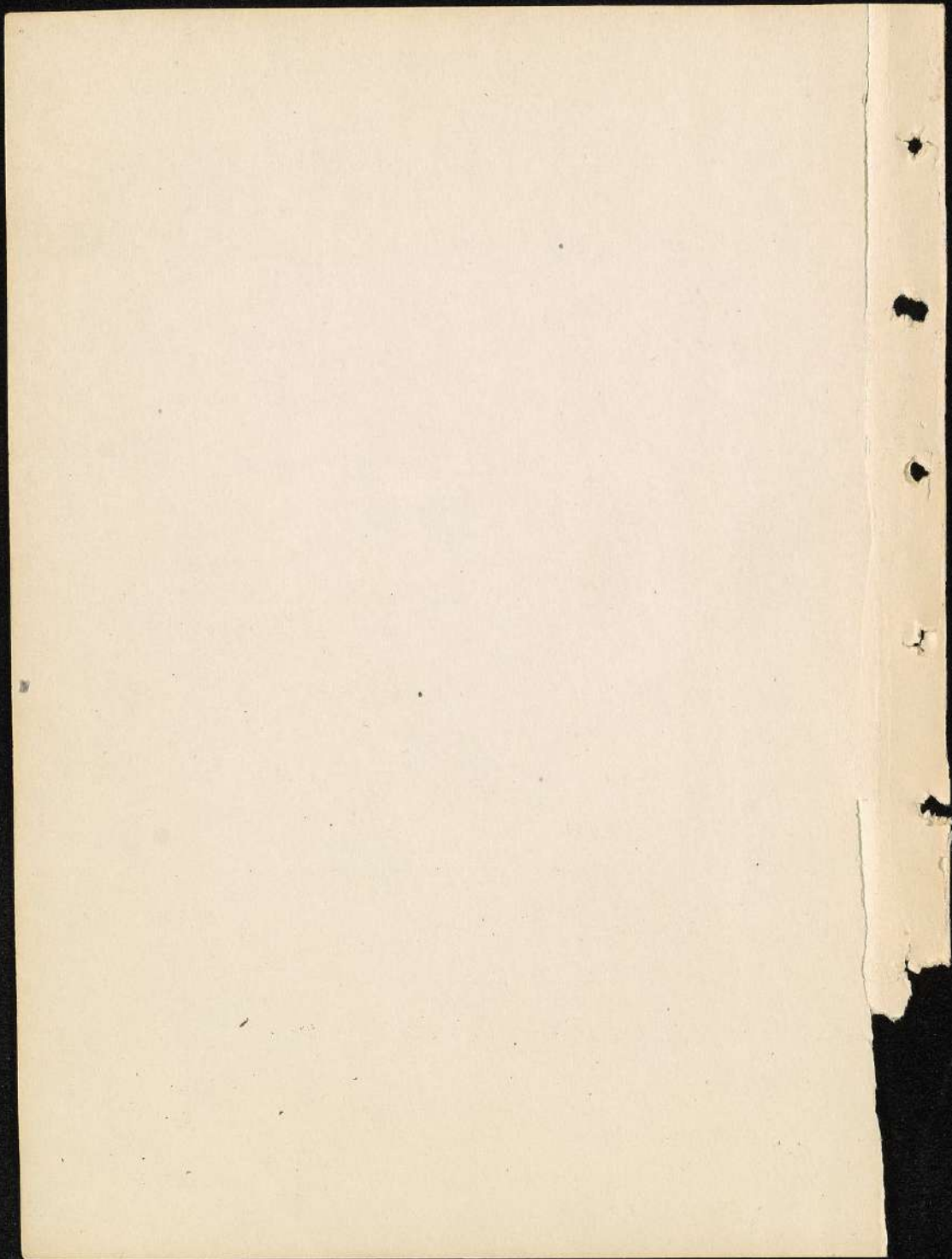


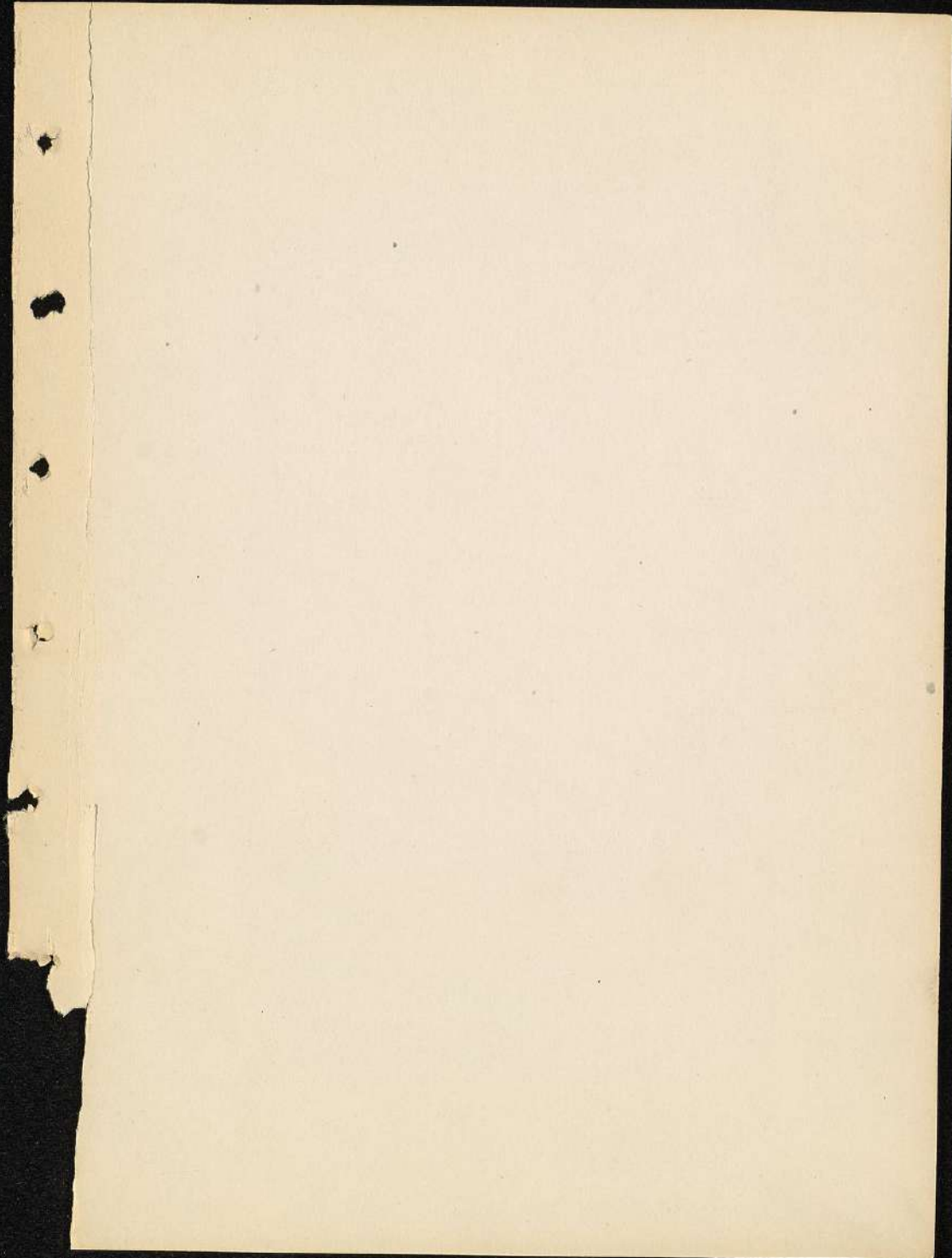
Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES



GIVEN BY
THE AUTHOR





كل عام وانتم بخير



محمود تيمور

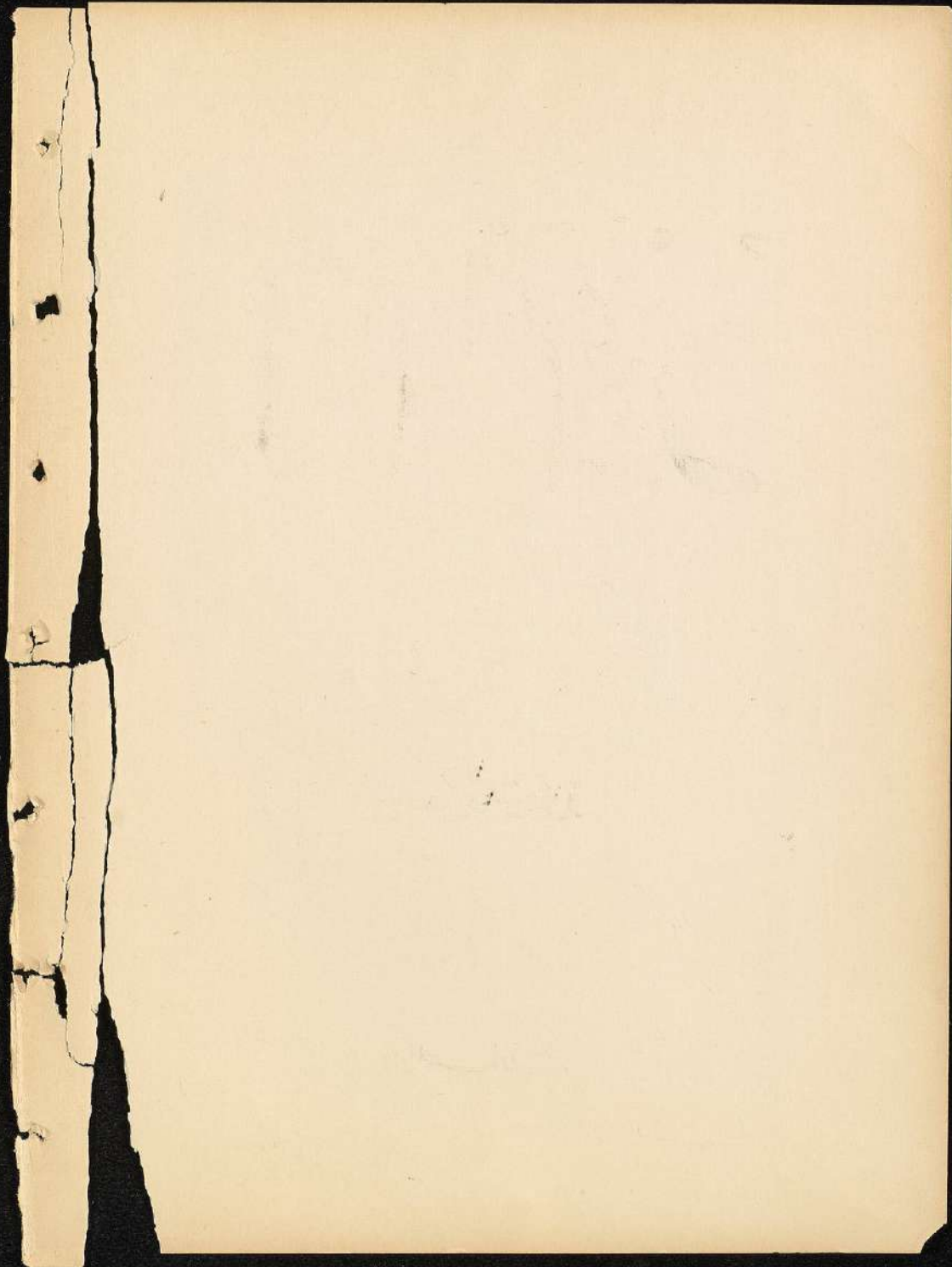
MAHMOUD TEYMOUR

6, Rue Emir Hussein

ZAMALEK

CAIRE, EGYPT

دار المعارف بمصر



لجنة
Columbia University
New York
مفتى

كُلَّ عامٍ وَأَنْتُمْ بِخَيْرٍ
وَقَصَّصُ أَخِيرَى

محمود
Mahmoud Teymour
1951

MAHMOUD TEYMOUR
8, Rue Emir Hussein
ZAMALEK
CAIRE . EGYPT .

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى — سنة ١٩٥٠

محمّد بن عمر

كُلَّ عَامٍ وَأَنْتُمْ بِخَيْرٍ
وَقَصَصُ أَخْرَى



مكتبة الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

893.79
T1363

Author's Gift

كُلَّ عامٍ وَأَنْتُمْ بَخِير

بَرَحْتُ مَشْرَب « نيوبار » بميدان « الأوبرا » ، مَشْرَبِي المفضل
الذي أُرْجِي فيه أكبر وقى في الضحوات والأماسي .

برحته في مَدْخَل الليل إلى داري ، أتأهب للجلوس إلى المذياع ، كما
أستمع إلى الحفلة الساهرة الكبرى التي تقام في مسرح حديقة « الأزبكية » ،
مُشْتَرِكَةً في إحيائها كواكب « مصر » في الغناء .

ما بُكُورِي في العود إلى منزلي ، والحفلة لا تبدأ إلا في منتصف
العاشر ؟ وهل تتطلب الأبهة للسماع هذا الوقت المديد ؟ إنها بضع لحظات
أدير فيها مفاتيح المذياع ، فتنسب الأنغام في انسجام !

لم أجد في نفسي من جواب عن سؤالي ، فقد ألفتني أتخلى عن اللعب
بالترد في حَلَقَةِ الصحاب ، تاركاً ورأى سواطع الأضواء ، زاهداً فيمن
كنت آتس إليهم من الباعة الجَوَّالين في المشرب ، أساوهم وأماكسهم
وأخرج ظافراً ببعض السلع ، لقاء ثمن بخس .

نفضتُ يدي من هذا كله ، وعَجَلْتُ بالانصراف ، آخِذُ الطريق
إلى الدار ، على حين أن الليلة ليلة العيد ، ومن شأنها أن تثير البهجة وتبعث
على الإنسراح ، ولكنني لا أشعر بابتهاج ، بل أشعر بتذمر وتضجر .
« كل عام وأتم بخير » !

شَدَّ ما كَلَّ لساني اليومَ من ترداد تلك العبارة الشائعة المبتذلة ، بل
شَدَّ ما سَمِعَ سَمِعِي وَقَعَهَا .

لماذا أَسْتَشعرُ أني مستغرق في الشواغل ، وأن على كتفي أعباء من
جِسامِ المهام ، فإذا رجعتُ إلى نفسي ، أتبين ما يشغلني ويثقلني ، لم أَلِمْ
شيئاً يقوم به عذري ، وتهض حجتي ؟ !

تعلقتُ بترام « شبرا » واتخذتُ لي موقفاً في الدرجة الثانية ، ولبثتُ
أعاني ضغط الزحام من حولي ، ولكنني لم أُلْقِ لذلك بالاً ، فقد أَلِفْتُ هذا
الوقوف ، واحتمال مكارهه ، طوعاً لسياسة الاقتصاد التي أخذتُ بها نفسي
في المعاش .

لماذا أنا ضائق ؟

لقد أُنْجِزْتُ كل مطالب العيد ...

أعددتُ البطاقات والرسائل التي أُحِيّ بها الأهل وأُخلِّلان .

أوصيتُ بصنع الفطائر وشراء الفاكهة والورود ، للذهاب بها إلى
القراة في الصباح .

century

كُتِبَتْ قَائِمَةٌ بِالْعِيدِيَّاتِ الَّتِي عَلَى أَنْ أُمْنَحَهَا لِلْمُحْتَاجِينَ وَغَيْرِ الْمُحْتَاجِينَ
مَنْ أَقْبُوا مِنْحَتِي فِي هَذَا الْيَوْمِ السَّعِيدِ .

وَوَجَدْتُ يَدِي تَقَرَّعَ إِلَى جِيبِي تَنْزِعَ مِنْهُ دَفْتَرَ الْحِسَابِ ، وَاسْتَفْرَقْتُ
فِي مَرَاجِعَةِ مِيزَانِيَةِ الْعِيدِ ، مُجْتَهِدًا فِي اخْتِصَارِ مَا يُمْكِنُ اخْتِصَارُهُ ، سِيرًا عَلَى
سَنَنِ الْاِقْتِصَادِ الْحَمِيدِ .

وَمَا زِلْتُ مُصْرُوفًا إِلَى دَفْتَرِي وَحِسَابِي ، حَتَّى كَادَ التَّرَامُ يَجُوزُ الْمَوْقِفَ
الَّذِي يَجِبُ أَنْ أُنْزَلَ فِيهِ ، فَفَقَزْتُ مِنَ الْمَرْكَبَةِ قَفْزَةً زَلَّتْ بِهَا قَدَمِي ،
فَتَمَاسَكْتُ وَتَمَالَكْتُ ، وَاتَّخَذْتُ الطَّرِيقَ إِلَى مَنْزِلِي ، وَأَنَا أُنْغَمُ سَاخِطًا
ثَائِرَ النَّفْسِ .

وَمَا خُطُوتُ بِضَعِ خُطُوتٍ ، حَتَّى بَرَزَ لِي رَجُلٌ أَشْعَثُ أَغْبَرُ يَتَوَكَّأُ عَلَى
عَصَاهُ ، وَعَلَى فَمِهِ ابْتِسَامَةٌ مَلَقَ بَارِدَةً ، فَمَدَّ يَدَهُ الْقَدْرَةَ قَائِلًا :
كُلْ عَامٌ وَأَتَمَّ بِخَيْرٍ ...

فَصَحَّتْ بِهِ :

وَأَنْتَ فِي شَرٍّ يَا سِيدِي . . . لَيْسَ لَدَيَّ مَا أُعْطِيهِ !

دَخَلْتُ الْحَارَةَ الضَّيْقَةَ ، لِأَبْلُغَ مَنْزِلِي الصَّغِيرَ .

إِنَّهُ الْمَنْزِلُ الْحَبِيبُ إِلَيَّ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ قِدَمِهِ وَضَالَّتِهِ .

لَقَدْ أَوْرَثَنِي إِيَّاهُ أَبِي ، وَإِنِّي لَشَفِيقٌ عَلَيْهِ مِمَّا أَصَابَهُ مِنْ تَصَدُّعٍ ، فَمَا أَشْبَهَهُ

بِعَلِيلٍ أَرْمَنَ دَاوَاهُ ، حَتَّى أَوْشَكَ أَنْ يَصْرَعَهُ .

How could I do
that with all the
sorrowing?

والحق أن من الرحمة القضاء على مثل ذلك العليل ، تخفيفاً عنه ، وإراحة له مما يلاقيه ، وذلك ما اعتزمتُ في شأن منزلي العزيز . . لأهدمته ، ولأقيمَنَّ مكانه داراً جديدة على طراز هندسي حديث .

إني لفاعل ذلك حتماً ... ولكن متى ؟.. لست أدري ... فقد اتويتُ ذلك ، وبنيت العزمُ عليه ، منذ قضي والدي . وهما هي ذى خمسة عشر عاماً تمرّ ، وأنا أرسمُ على الورق خِطَط الدار الجديدة ، وأُعمل فيها يد الإصلاح والتعديل ، وفقاً لما يحدّد في هندسة البناء ومرافق الحياة من مخترعات وكشوف ، وما برح المنزل القديم ماثلاً يصارع الزمن في تجدد واحتمال . دخلتُ الدار ، وألقيتُ بالطربوش جانباً ، ورحتُ أمسح عرقى . ولم يكد يستقرّ بى المقام حتى صافح سمعى صوت صبيّ يتباكى وينتحب انتحابه المملول .

إنه ابن الطباخ ، ذلك الذى يكمن في ركن المطبخ لا يبرّحه في ليل ولا نهار ، كما تكمن القطعة مترصدة لكل ساقطة !

يعلم الله أىّ خسارة يجشّنى إياها ذلك الصبيّ الشرّ الشَّعُوب . إنه ساعد أبيه الأيمن في التصيّد والاعتنام !

فيم نَحِيْبُهُ وتباكيه ؟

ألا يتقلب في أعطاف خيرى ، وينمى عظمه ولحمه من حرّ

مالى ؟

هذه الديدان الصغيرة هي التي تعمل في خراب البيوت ما يعمل السوس
في الخشب الغليظ !

ضِقتُ ذرعاً بما تواصل على سمعى من ذلك الطنين السقيم الذى استرسل
فيه ابن الطاهى ، فصحت :

إن لم تسكت لكم ضوضاء فلقت أدمعتكم !
وانقطع الصوت ، وشاع الصمت ، وانكفأت على المنضدة أتصفح
دفترى ، وأراجع حسابى .

ما زال دخلى وافراً بحمد الله ، وما زالت ثروتى تتكاثر ...
ما أئمن تلك السياسة الاقتصادية التى التزمته منذ خلقت أبى على
ماله ... لقد نَوَّلتنى خيراً جزيلاً ، ولكنى مع ذلك ظَلَلْتُ فى الحياة فرداً ،
لا يخدمنى إلا ذلك الطباخ وابنه المنهوم ... وهأنذا قد ذَرَفْتُ على
الأربعين ، وأنا مستكمل أسباب العافية ، فى عيشة راضية .

عجباً لأولئك الذين لا يتركون الناس يَحْيَوْنَ فى طمأنينة وأمان ...
ما شأن الخلاق بى ؟

ما بال هؤلاء المتطلعين يُخَدِّقون بى ، ويُخَدِّقون فى ، تنبعث من
أعينهم نظرات الحسد والحقد ؟

وإنى لأحس بأن أشد الناس عداوة لى ، هم أولئك الأقارب الذين
إخالمهم يُعدُّون على ما أصيب من لقيَمات .

هذا عمى « لطيف بك » ما أسمعَه وأثقلَه ! ... قائمة كالسارية مجفأة ،
وعنقُ تمتد كأنها أفعى ، وشفتان تبدوان في ابتسامة كابية حين يتحدث
إلى ... وإن ريقه ليتحلب طمعاً في ثروتي التي تربو على ثروته ولا تفتأ
تربو ... وإنه ليتحوّل كلَّ حيلة ليُغَلِّ رقبتي بالزواج من بنته « فكرية » ،
فهو ينصب لي ذلك الفخ الأنيق ، ولكن هيهات أن أكون له صيدا !
أما ابنته فأعترف بأنها على شيء من الوسامة ، وإنى لأحس بأنها تميل
إلى كل الميل . وكيف يغيب ذلك عني ، وأنا الذي لا تبتدئ عن فطنتي
خفايا النفوس ، ولا يُعَيِّنني أن أَسْتَكْنِه ما هو مستور خلف الظواهر ؟
إلا أن عقلي ينهاني أن أَرْضَى بهذا الزواج الذي يهدد ثروتي ، ويُشْفِي
بها على الخطر ... وهل الزواج إلا نفقات إثر نفقات ، تستنزف الأموال ،
وتهدم الثروات ؟

خاب قأل عمى ، وذهب طمعه أدراج الرياح !
وألقيت يدي تعبث في درج المنضدة بأوراق ، وإذا بها تخرج رسوم
المنزل الجديد الذي أزمعتُ ابتناؤه ، فأقبلتُ أدرس الرسوم وأفاضل بين
بعضها وبعض ، متوخياً أن يكون منزلي المنشود على أحدث طراز
تتوافر به الراحة والطمأنينة .

إنى لأذكر يوماً دخل على فيه عمى ، وأنا باسط هذه الرسوم أتصفحها ،
فجعل يشاركني فيما أنا فيه ، وكانت له ملاحظات في شأن حُجَر الأطفال

وما إليها . وفيما هو يتحدث ، كان يكشف لى فى ابتسامته المدهنة عن
أسنان نخرة صفراء .

حقاً ما أسمعجه ! ... ما أسمعجه !

سألتنى عمى هذا حتماً فى القرافة صباحاً ، فهو لا يتخلف عن زيارة
القرافة فى كل مناسبة وكل موسم .

إنه يعدُّ اختلافه إلى تلك المقابر نزهة طيبة ، فأراه هناك متطلق الوجه ،
هانئ البال .

عجالة يُبدى هذا التفاؤل الموصول ، حتى فى مَثَابَةِ الموتى !
إنى مُلاقٍ عمى فى غدى ، وإنى لمحبيّه تحية العيد لا بدّ ، وسألتنى معه
شِرْذمة من ذوى القربى ، أولئك الذين لو كشفوا عن طواياهم ، وأفصحوا
عن نيّاتهم ، لصاحوا صوتاً واحداً ، وهم يحيوننى :

كل عام وأنت مع الراحلين ...

ما أشقَّ يوم القرافة علىّ ! *Why do you do it then?*
ألا ساءت تلك العادات المرذولة من توزيع الفطائر والفواكه على قوم

لا يطعمونها ، وإنما يجمعونها لبيعوها بدرهمات !
لقد أيقنتُ أن طاقات الورود التى أنتقيها ، وأبذل فيها غالى الثمن ،
تكريماً لمن يضمهم الثرى من أهلى ، لا تلبث أن تُحمَلَ بعد مغادرتى
للقرافة ، فتباع لمن يطلبها زينةً لمجلس ، أو حليّةً لعُرس !

ومن هو المستغل الأول لهذه النفقات ؟

هو « التَّربَّى » ... « التَّربَّى » ... يا الله من هذا الرجل الذى يتظاهر بالتدين والتقوى ، لا تفارق السُّبْحَةُ الطويلة السوداء أصابعه ، ولا تلقاه إلا بنم يُبَسِّمِل وَيُحَمَّدِل ، ويعلم الله ما يُكِنُّهُ فى وليجة نفسه من خبث وشر وطماعية !

هذا « التربى » ... إني ملاقيه أيضاً غداً ، فهو يقف على رأس الطريق ، يرتصد لِمَقْدَمِي ، فما إن يلحقني قادماً حتى أجده قد تحامل على ساقيه ، مترائياً بالبشر ، قائلاً لى :

كل عام وأتم بخير ...

ثم يمسك يدي يحينني تحية حفاوة وإكبار ، فأشعر ويدي فى يده بِرِعْشَةٍ تسرى فى أوصالى ... إن تلك اليد الهزيلة المعروقة التى يحينني بها هى التى ستوسدنى تراب القبر ، وتسوى عليه جناذله الضم ... لَأَكَاد أراه جاثماً على فم القبر ، حارساً له ، كأنما يصدنى أن أخلص من سجن التراب إلى دنيا الطلاقة والنور !

وإني لأتمثل فى مُخَيَّلَتِي هذا « التربى » وقد جمع حوله تلك الشرذمة من أقربائى ، على رأسهم عمى ، وهم يتقاسمون فى اجتماعهم مالى ، ويتوزعون ثروتى ... تلك الثروة التى ضُنِيتُ فى جمعها وادخارها ، وهم فى خولهم يتشاءون .

هي ثروة أسهرتُ فيها جفني، وأسقيتُها جهدي، وتعهّدتُها بحيلتي وفطنتي .
 كم من صفقاتٍ مُربحة لبيوع جَبْرِيَّة ، ما زلتُ بها حتى اغتنمتها !
 كم من مآزق وضوائق ، في أسواق البيع والشراء ، انتهزتُ فرصتها ،
 فكانت كسباً عظيماً !

أترك هذه الثروة نُهْبَةً لأولئك الحَقْدَة والحَسَاد من أقارب الطامعين ؟
 ما اضطراري إلى زيارة هذه القرافة ؟

أما أن لنا أن نشور على هذه التقاليد البالية التي لا خير منها ولا نفع ؟
 وما لي أجشّم نفسي ما لا ترتاح إليه نفسي ؟

بئسَ يومُ العيد من يوم عبُوس ، أقضيه في هذه القرافة البغيضة ،
 فتتجمع فيه على كاهلي آلام العمر ، وهموم السنين !

وفزّعتُ إلى دفتر الحساب ، وأنا أَرْفِر .

وشغلتُ نفسي بالأرقام وقتاً أجمع وأطرح .

ما ألّوتُ جهداً في القيام بما يجب علىّ لذكري والديّ كليهما في هذا
 الموسم الكريم .

هأنذا أوصي القراء بتلاوة القرآن ، في المواعيد المقررة ، وأجرى عليهم
 ما جرت به العادة من أرزاق .

أين الشُّحُّ الذي يعزوه إليّ هؤلاء الأَفَّاكون ؟

أنا أنفق المال في وجوهه ، قياماً بالمفروض .

حسبي أنى عن نفسى راض ، ولن يكون للحقّدة والحساد من نصيب
إلا الخزى والخسار .

سيمدُّ الله فى عمرى ، وستظل فى يدى ثروتى التى تتحلّب لها شفاه
أولئك الأقارب المتكالبين !

ووقع بصرى على المذيع ، فنظرت فى ساعى .

فى الوقت فُسحة ، حتى يحين موعد الحفلة .

الحمد لله على ما وهبنى من عقل أضبط به أمرى ، وحزم أخكم
به تصرفى .

لقد آثرتُ القُفُول إلى دارى ، أنعم بجلسة رخيّة ، فأستمع إلى غناء
الحفلة فى هدوء واطمئنان .

ورحت أخلع سُترتى ، وأستبدل بحذائى خُفَّ المنزل .

أكنتُ مستطيعاً أن أكون على هذه الحال المريحة لو ذهبتُ إلى
المسرح للسمع ؟ المسرح المكظوظ بالروّاد ، المخنوق بالأنفاس وضباب
الدخان !

أين يقع ذلك المسرح من جلستى الطيبة فى منزلى الآمن ، حيث أملك
التصرف فى أمرى كله على الوضع الذى أهوى ؟

وفتحتُ النافذة استجلاباً للنسيمات الرقاق ، فطالعتنى تلك الأبنية
الشوامخ ، كأنما هى مرّدة عماليق تأخذ الطريق على منزلى الوداع .

وجعلتُ أمسح جيني المتفصّد عرقاً ، وأنا أحاول استنشاق الهواء ،
ثم انطلقت أَرْجِع البصرَ حولي .

يا له من عُشٍّ جميل أسعد بسكناه !

ولكن سرعان ما تبدّت لي على ضوء المصباح الكليل تلك الحوائط
المستهدمة ، وذلك الأثاث الرثّ .

عبي الذي أعترف به أني وفّ أُلوف ، لا أحب التغير والتبديل ...
بيد أن سنّة الكون غالبية ، وسيحين وقت يضطرنني إلى التفريط في ذلك
العُشّ القديم ، فأقيم مكانه مَعْنَى عصرياً جديداً .

وخطوتُ الهويّني ، وأنا أروّح وجهي بتدلي مهمما :
يا لَهَذَا الهدوء الجميل !

ما أروع أن ينفرد المرء بنفسه !

تَعَمَّتِ الوَحْدَة ، ونعم الصمت !

وفي تلك اللحظة علا صوت ابن الطباخ يُعَوِّل ، يطلب المعونة
والغوث ، فصحت :

كررت عليكم أني لا أريد الضوضاء ... سكوتاً !

وأفئيتُ الصبي يهرع إلى بابي العين ، وخلفه أبوه ... وما هي إلا أن
أمسك به ، وأنحى عليه يعنّفه ، فقلت للطاهي نأثر الصوت :

ألا تسكن لكم ضوضاء ؟ أليس عندكم حياء ؟

فانبرى الطاهى يعتذر ، وهو يقول :
الولد يرغب فى حُلَّةٍ جديدة للعيد ، وهو مصرّ على ألا يلبس من قديم
ثيابه شيئاً .

فقطبتُ ما بين عينيّ ، وأنا أحييه :
وما شأنى ؟ لقد أخذتَ مِنحة العيد منى ، فدبر أمرك .
وما لبثتُ أن أشرتُ إليه أن ينصرف ، فضى يجر ابنه المتباكى .
لا مِرَّةٍ عندى فى أن المنحة التى خصصتُ بها ذلك الطاهى لا تقوم ثمناً
لثوب جديد ، ولكنى لست المسئول عن تدبير تلك الشئون ، فما أنا لذلك
الطفل بوالد .

وانسرحتُ أفكر ، وأنا ألمح شبح الغلام متباكياً يطويه الباب فى
ذلة وانكسار .

لو كان قدّر لى أن أتزوج لأعقتُ مثلَ هذا الغلام ...
عجيب أن يدور هذا الخاطر برأسى !
أى زواج ؟ وأى غلام ؟ !
أ كنتُ أَرْضَى أن يكون لى ولد مثله ، يزعمنى بيكائه ، ويقلقنى بمطالبه ؟
وحانت منى نظرة إلى المذيع ، أنعم النظر فيه .
جليلُ الفائدةِ هذا المذيع !
لقد أربحنى جنبها كاملاً كنتُ أبذله الليلة ثمناً لَتَذْكِرةِ الدخول

في المسرح ، غير ما قد يَجِدُ من نفقات يحميني البقاء في المنزل أن أبدلها .

المسرح ... المسرح !

وظَلَلْتُ أنخيل ما فيه : أنوار سواطع ، مشاهد بهيجة ، جمهور يعاوقسانته
البشر والائناس ، وتنقل بين طوائفه النكات والمداعبات .

وكيف لا يكون الأمر كذلك ، والجمهور مقبل على الاستمتاع بحفلة من
أروع حفلات السنة في ليلة العيد ؟

لماذا أحس الساعة انقباضاً وكآبة ، على حين أن الجو كله مدعاة إلى
فرح وابتهاج ؟

لماذا أستشعر الآن وحشة وقلقاً ، على حين أني في منزلي الأمين ،
لا يشغلني شاغل ؟

وظَفِقْتُ أذرع الحجرة في حيئة وذُهوَب ، وأخيلة المسرح تتراقص أمام
عيني مختلفة الألوان .

وألفيتني أُنَجِّهِ إلى « التلفون » فأطلب بائع الدخان القائم حانوته على
رأس الشارع ، ذلك الذي أعرفه يُعَنِّي بالحصول على تذاكر الحفلات
الكبرى ، ويتجربها بين المختلفين إلى حانوته .

ولما أجباني قلت له :

لَمْ أَطْلُبْكَ إِلَّا لأحييك تحية العيد ، جرياً على سنتي مع المعارف والأصدقاء .
فردَّ الرجل تحيتي في أدب ورقة ، فتابعتُ قولي :

كيف حال التجارة ؟ وماذا كان من شأن التذاكر الخاصة بحفلة الليلة ؟

فسرعان ما قال لى ، والسرور يتجلى فى صوته :

لقد بعث التذكرة بضعة ثمنها ، وقد نفذت التذاكر جميعاً . . .
أما شباك التذاكر فى المسرح ، فقد أغلق منذ الضحوة . . . لا تحسبن
يا سيدى أن فى استطاعتك الحصول على تذكرة الآن .

فعاجلته بقولى ، مكروب الصوت :

أعجبون أنا حتى أسعى إلى شراء تذكرة ؟ أتريدنى أن أهرق راحتى
وأترك منزلى ، لأزج بنفسى فى ملتطم من الجمهور الصاحب ؟

ووضعت سماعة «التلفون» وعدت أذرع الحجرة ضائق الصدر .

كيف فاتنى أن أدعو نفرأ من خلأنى يقضون هذه الأُمسية معى بجوار

الذياع ، فأجد لمشاركتهم ما ينقى الوحشة عنى ؟

ولكن هل كان يجمل بى أن أدعوهم ، دون أن أهيه لهم بعض الطعام

والشراب ، احتفاءً بمقدمهم على ؟

بيد أن هذا الطعام والشراب أكثر نفقة من ثمن التذكرة وتمضية

العشية فى المسرح ، فأى جدوى لهذا الإجراء ؟ ألا ساء هذا التفكير !

كانت الفكرة السليمة الموقفة أن أقصر على دعوة صديق الأثير ،

رفيق منذ الطفولة : « حسنى » . . . وإن ضيافة فرد واحد لا تكلفنى

إلا القليل .

إلا أنى أعلم علم اليقين أن «حسنى» يقضى ليلته فى بيته ، بجوار المذياع ،
ومن حوله زوجه وبنوه .

لقد أنشأ «حسنى» أسرة يدعى أنه ينعم معها بعيش خصيب ، فهل هو
صادق فيما يدعيه ؟

يا طالما نعيمٌ عليه أنه تزوج ، وعددت ذلك زلة فرطت منه ...

الزواج ! ما الزواج ؟

أليس هو إهداراً لحرية الزوج كل الإهدار ؟

أو ليس هو تجشُّماً لألوان من التبعات تقصم الظهور ؟

أو ليس هو سلسلة من النفقات موصولة الحلقات يوماً بعد يوم ، ولا سيما

فى مثل يوم العيد الذى يلتبونه اليوم المبارك السعيد ؟ .. وأى بركة وسعادة

لمن هو مطالبٌ بالإنفاق بعد الإنفاق ، فيما يسمونه الواجبات والأوضاع ؟

لا عقل لمن يُسلم عنقه لغير الزواج !

الحمد لله الذى كمَّننى بعقلى ، فحمانى أن أكون زوجاً !

لست أنسى قول «حسنى» إذ يمارينى فى شأن الزواج والأبوة :

يجب ألا يكون الإنسان أنانيّاً فى الحياة ، يؤثر نفسه بكل شىء ...

الزواج تألف وتعاطف ومؤازرة ، وهو سبيل الذرية الصالحة ، تلك التى هى

قوام المجتمع الركين ، هى وصل الحياة الوالدين بعد انتضاء العمر ، هى الوسيلة

الكريمة لتحقيق فكرة الخلود .

وكان «حسنى» حين يبلغ هذا المبلغ من قوله ، يأخذ بكثفى وهو
يهزئنى متحمساً ، ثم يقول :

لن تَقْنَى فى هذه الدنيا ما دام لك ولد !

وإن «حسنى» إذ يَقْرَعْنى بقوله هذا فى فلسفة الخلود ، ليد كَرْنى بموقفه
فى عهدنا الغابر أمام مدرّس اللغة العربية ، إذ كان يُلقى محفوظات من
الشعر والنثر ينال عليها النهاية العليا فى دفتر الدرجات ، فهو إذ يردّد لى اليوم
كلامه فى فلسفة الخلود لا يزيد على أن يكرر على مَسْمَعى ما يعيه من المجلات
والكتب التى يبعثر فى شرائها ماله !

لقد كان «حسنى» فى عهد المدرسة تلميذاً مثالياً يواظب على الحضور ،
ويحفظ الدروس ، ويطيع الأساتذة ... فليس بِمُسْتَنَكِرٍ عليه أن يكون
اليوم زوجاً مثالياً يحمل ما يُلقَى عليه من تَبِعَات وفروض !
وأحدثُ مرة زرتُ فيها دار «حسنى» كانت منذ أسبوعين ، إذ قصدته
مهنئاً إياه بطفله الثالث ، ولا يبرح مخيلتى مرآة وهو مقبل علىّ فى بشر
وابتهاج ، وبين يديه وليده الجديد . وما إن لحنى حتى بادرنى يقول ، وهو
يُمِيط اللثام عن وجه الطفل فى احتياج :

انظر ... انظر ... ألا ترى فيه ملامحى وَضَاحَةً متميزة ؟ انظر إلى أنفه ،
أليس هو أنفى ؟ انظر إلى عينيه ، ألسن تراهما عَيْنَيَّ ؟ ما قولك ؟ إن هذا
الطفل صورة لى ، قطعة منى .. إنى لأحس بأنى أحيا فيه حياة جديدة

أخرى... أليس هذا هو الخلود عين الخلود ؟ !
 وألفيتني أهدق في وجه الطفل ، ملاطفاً إياه وقتاً .
 ما أملح هذا الكائن الصغير الذي تتجمع فيه عناصر الإنسان كاملة !
 إنني لأعجب وأنا أنظر إلى تلك اللبنة المختلجة ، كيف تغدو بعد حين
 إنساناً متوياً له شأنه ؟

وتعالت صيحات الطفل ، فأخذ «حسنى» يجول به في الحجرة يهدده ،
 والطفل مسترسل في صياحه لا يسكن ، فلم يجد أبوه بُدّاً من أن ينطلق به
 إلى أمه .

وشيعتُ صديق في منصرفه بابتسامة إشفاق ، وأنا أردد :
 هذا هو الخلود عين الخلود ! ... أراحنا الله أيها الصديق المخدوع من
 مثل هذا الخلود !

وبينا أنا في ملتطم هذه الأخيلة والتصورات ، إذ أنبهتني دقات الساعة
 يعلتها مذياع الحيران ، فالتحسر عن رأسي وافد الذكريات المتداعية ،
 ومددتُ يدي إلى المذياع أهمُّ بأن أعرك مفاتيحه ، فما لبثتُ أن سمعتُ
 ابن الطاهي مسترسل في أبنه ، فأردت أن أصبح إسكناً له ، ولكني لم أفعل .
 ما أبينَ الحزن في بكاء هذا الطفل ، فإنه يشعر بما تمتلئ به نفسه
 من كربة وتحسّر !

هذا الكساء الجديد الذي أعده أنا شيئاً تافهاً لا بال له ، يعدّه ذلك

الصبي أمنيته القُصوى ، وكنزه الثمين ! ... فهو يطوى الأيام والليالي ارتقاباً
ليوم العيد ، ذلك اليوم الذى يُتيح له أن يخرج فى حُلته القشبية ، مزهواً
بها بين أترابه ولداته ... وها هو ذا الليلة يقتله الأسى ، إذ يجد نفسه محروماً
فى غده تلك المتعة ، فلن يخرج إلا فى ثوبه القديم ، وهو خزبانٌ يتوارى
عن عيون رفاقه المتفاخرين بالجديد من الثياب !

ولكن ماذا أنا مستطيع أن أعمل له ؟

ما أكثر أمثاله ممن لا يُنيلهم العيدُ ما يشتهون !

الدنيا تزخر بالمأسى وضروب الحرمان ، وما خلقى الله عائلاً للبشرية ،
كفيلاً بإسعاد الأشقياء !

وتواصل عويل الطفل ، حزين الرنين ، فأذكرنى ذلك وليد «حسنى»
وهو بين يدي أبيه لا يسكن له صياح ، وأبوه لا يملُ الطواف به فى الحجرة
يَهْدِده فى رفق وحنان .

وما برحت أذنى تحمل أصداء قول «حسنى» :

إن هذا الطفل صورة لى ، قطعة منى ... إني لأحس بأنى أحياء فيه
حياة جديدة أخرى !

ووجدتني أذرع الحجرة تطبق على الوحشة من كل جانب ، ثم وقفتُ
أمام الرسوم الخاصة بمنزلى المزمع بناؤه ، فألقيت عليها خواطف النظرات ،
ثم ارتسم فى خاطري أن هذا المنزل قد تم بناؤه على أحدث طراز ، وهو

عامر تتجلى فيه بهجة الحياة ، وتخيّل أنى مقبل على المنزل ، فإذا طيف
« فكرية » ابنة عمى ماثلة في النافذة ، تلوّح لى بتبديل فى يدها ، وعلى
ثغرها ابتسام !

لم تبقَ مَرِيّة فى أنى مُتَعَب منهوك ... وإلا لما دار فى رأسى هذا
التخليط ، ولا جرى فى مخيّلتي ذلك السُخْف من التصورات !
وقصدتُ إلى النافذة أستروّح ، وتطلعت أترج ...
ثمة السابلة فى غدوّ ورواح ، وهم مستبشرون طلقة وجوههم ، يتطارحون
تحايا العيد .

ما فتىء ابن الطاهى ينتحب .
ورأيتنى أذهب إلى حجرة الأُصُونَة ، حيث تستقر الملابس والتحف ،
وظفقتُ أَلْب فىها ، حتى أخرجتُ منها صُندوقاً تليداً تصان فيه بعض
الخلّى والنفائس ، فوضعتّه على المنضدة مَعْنِيّاً به ، وفتحتّه أتملّى ما يحتويه ،
فبرر لعيني خاتم لأمى ، وذكرت قولها :

هذا الخاتم تستبقيه لزوجك يا بنى ... لا تفرط فيه ، ولا تهبّه لغير من
تختارها لك زوجة !

وجعلت أتلّس الخاتم بين أناملى ... إنه خاتم طويل العمر ، تتوارثه
الأسرة خلفاً عن سلف ، كما هو شأنها فى كثير غير هذا الخاتم من نفائس
والأطاف .

تلك هي ساعة من الذهب كانت لأبي ، وقد أوصاني أن تكون مبرأثاً
لابني البكر ... فغمغمت شفتاي :

ابني ؟! ... ابني ؟!

وظل بكاء ابن الطاهي يلاحقني حيثما حللتُ .

لا مندوحة لي عن إسكاته على أية حال !

وأودعتُ الحُلِّيَّ صُنْدُوقَهَا التليد ، وحملتُ الصندوق إلى حِرْزِهِ
المكين ، واثنيتُ أَلْب في الأُصُونَة ، حتى عَلِقْتُ يَدِي بِحُلَّةٍ صَغِيرَةٍ
مزرَكْشَة كانت لي في عهد صِبَاي ، وقد صُنِعَتْ في مناسبة خاصة لي ،
فاحتفظتُ بها أُمِّي منذ ذلك العهد تَذْكاراً لتلك المناسبة

وما هي إلا أن انزعزتُ تلك الحُلَّة ، وعَجَلْتُ بها إلى المَطْهَى ...

لا شك أن مصير هذه الحلة أن تكون طُعْمَةً لِلْعُثِّ ، فلا خُسران على
في أن أُسَكْتُ بها ذلك الصبيّ الذي لا ينقطع لبكائه طَينِينَ !

وما إن رَأَى الصبيُّ حتى تَفَرَّعَ ، ولاذ بأبيه يلتمس عنده المأْمَن ،
فقلتُ له وأنا أُمَدُّ بالحلة يَدِي :

لا تخش بأساً أيها الأبله ... تلك حُلَّةُ العيد ، ما كنتَ لَتَحْمُلَ بالحصول
على مثلهما حَيِّيتَ ... فافرح بها ، وأقْصِرْ عن البكاء !

فتلقفها الصبيُّ وهو يتواثب طَرَباً ، وففر الطاهي فاه متعجباً ، ثم صاح
بطفله يقول :

ذهب قبَّل يَدَي سِيدِكَ الذی جاد لك بما لم یَجِدْ به لأحدٍ قبلك ...
ولنداع له بطول العمر ، ورغد العیش ، والذرية الصالحة بنین وبنات ،
يعیشون فی ثبات ونبات !

وجاءنی الطفل مهتاجاً یُهوِي على یدی بغمه ، فوجدتني الألف
شعره ، وأتوسم وجهه ، وقد بدأت أستشعر ارتياحاً ورضا ...
وتلفت حولى ، فخیل إلى أن ذلك المطهى العَبُوس قد اكتمى
تألقاً وبهجة !

ثم وقعت عینی على الطاهی ، فلبثت أتقرّس فی وجهه الموسوم بمختلف
التجاعید ، وهو مقوس الظهر ، كأنه شجرة عتیقة نال منها الزمن ،
وأوشکت أن تعصف بها ریح الفناء !

ثم عدلت ببصری عنه إلى الصبی ، وهو فی نضارة وجهه ، وفتوة
ملامح ، كأنه فنّ رطب ینبت من جذور تلك الشجرة الفانیة مورقاً
یتفتح للحياة !

عدداً یقتلع البستانی تلك الشجرة العتیقة ، فیخلص تبعده وتنميته لذلك
الفنّ الغضّ ، حتى یشق مكانه فی الأفق !

ولكن هل تنفی تلك الشجرة العتیقة حقاً ؟

إنها أودعت خصائصها جميعاً ذلك الغضّ النابت ، فهو یتألف
حياتها فی الكون ، ویجدد عمرها على ظهر الأرض ...

وقفلتُ إلى حجرتي ، وقد تخففتُ من وحشتي ، وجعلتُ أعزُّ
مفاتيح المذياع معاً شيئاً إياها ، ثم أخرجتُ ساعتي ، وعلمتُ أن الحفلة أدتُ
بعد قليل .

وفما أنا قبالة المذياع ، أعابته ، إذ أبدي تنسل إلى جيبى فتلامس فيه شيئاً .
ماذا ؟ يا للعجب ! . . . إنه خاتمُ أمي الذي أوصتني أن أجعله لعروسي
هدية الزواج .

كيف وضعته في جيبى ؟

كيف نسيتُهُ فيه ؟

ومكثتُ أتفحص الخاتمَ ، وقد طاف بخاطري شبح « فكرية »
ابنة عمي ، وهي تحييني تحية خفرة ، وتبتسم لي في تلطّف .

لستُ أنكر أنها فتاة أنيسة ، ولا شك أن قلبها عامر بحبي .

أما أنا فما هو شعوري لها ؟ أعترف بأني تُجاهها لغز معقد عَصِيّ .

وجعلتُ أدفع بالخاتمَ عالياً ، وأتلقّقه باسم الثَّغر .

وعدتُ أطوى الحجرة ذهاباً وجيئةً ، في خطوات محتاجة .

وبغطة ألفتني أمام « التلفون » ، وأدّرتُ القرص في غير وعي ، وإذا

أنا بعد لحظة أكلّم عمي قائلاً :

أردتُ أن أبادر إلى تحيتكم وتهنئتكُم بالعيد . . . كل عام وأنتم بخير .

— وأنت بخير يا بُنَيَّ . . . كيف حالك ؟

- الحمد لله . . . وأتم كيف حالكم ؟
- لا بأس . . . لا جديد .
- ماذا تفعلون الآن يا عمي ؟
- نحن الآن مجتمعون تأهباً لسماع الغناء في حفلة الليلة .
- اتفاق طريف . . . وهذا شأني أنا أيضاً !
- حالنا واحدا !
- ولكن كُتمة فرق بيننا ، فأتم أسرة كثيرة العدد ، وأنا واحد فرد .
- ولِمَ الوَحْدَةُ يَا بُنَيَّ ؟
- هذا ما جَرَى . . . ولا أكنم عنك أني أشعر بوحشة !
- . . . هل لي أن أقترح عليك ؟
- اقترح ما شئت .
- لم لا تكون بيننا ، فنأنس بك ، وتشرَكنا فيما نحن فيه من اجتماع السَّمَل ؟ .
- كيف ؟ أأنتقل إليكم الآن ، وقد تأخر الوقت ؟ !
- يَا بُنَيَّ ، لا كُلفَةَ بيننا . . . زيارتك في كل وقت موضعُ ارتياح !
- . . . لست أدري بماذا أُجيبك ؟
- دعني ألحَّ عليك في المسارعة إلى الحضور . . . ستزيد ليلتنا طيباً ومسرّة .

- أحمقاً ؟
 — أنت في ذلك ترتاب ؟ لا تتكاسل ، ولا تتلمس المعاذير ...
 — سأحاول يا عمي .
 — نحن في انتظارك .
 — أرجو أن أفعل ، ولكن لا تَعْتَبُوا عَلَيَّ إن منعت عائق . أشكرك
 يا عمي أجزل الشكر ... طابَ مساؤك ... تحياتي للأسرة جميعاً ...
 تحياتي « لفكرية » !

وَأَلْفَيْتُنِي أَهْرَع من فوري ، فاستخرج حُلَّتِي الجديدة ، وما هي إلا
 دقائق ، حتى كنتُ أنيق البِزَّة ، يَنْفَحُ العطر مني ، وأنا بباب الدار ،
 جَيَّاش الوجدان ، أنتظر سَيَّارة أجرة ذهب ابن الطاهي في طلبها .
 وبين الحين والحين ، كنت أضع يدي في جيبِي ، لأستوثق من وجود
 العُلبَةِ الفاخرة ، يتوسطها الخاتمُ الذي أوصتني أمي أن يكون هدية الزواج !

صراع في الظلام

غادر الشاب حدود القرية النائية التي اتخذها لنفسه مقاما جديداً منذ سنوات قلائل... غادرها قافلاً إلى قريته الأولى مَسْقُطَ رأسه ، وموطن أبويه . هذه هي المرة الثانية التي يزور فيها بلده الأصيل ، وإنه ليطرقة والليل في مُؤْتَنَفِهِ ، كما طرقة في مثل هذا الوقت منذ عامين اثنين .

قَدَمَهُ في المرة الأولى ليشهد عُرس أبيه ، مجاملة له ، ورغبة منه في أن يصفوا ما بينهما من كدَر المنازعة والخلاف . فلقد ظل الشقاق يدب بين الابن وأبيه ، حتى اضطرَّ الشاب أن يفارق موطنه ، وأن يستقل بعيشه في قرية غير قريته .

لقد كان الخصم في هذه المنازعة أباه ، وإن للأب حُرمةً عليه أن يرهاها ، مهما يَلْقَ في ظلال الأبوة من عَسْف وإعنات .

ما أوقفها فرصة يقتنمها الشاب ، ليلطف أباه ويترضاه ، وإن كانت هذه الفرصة تهتة يقدمها الابن لأبيه في زواج جديد ... !

وأى غضاضة في أن يهنيء أباه بالزواج ؟

ليست امرأة الأب بالأمر الغريب عنده ... لقد قضت أمه وهو في كنف
الطفولة ، فهو لا يذكر من عهد الأمومة إلا مخايل هزيلة لم تُروِ ظمأه من
كوثر الحنان .

ولقد نشأ يرى زوج أبيه الأولى تسومه سوء العذاب ، ولا تفتأ تُوقع
بينه وبين أبيه ، فيلقى على يديها ألوانا من المهانة والإذلال .

ولم يُنَجِّه من ذلك العيش النكد الذي صحبه حتى مطلع الشباب ،
إلا أن يترك القرية ومن فيها ، غير آسف على الفراق .

وما هي إلا أشهر تقصّت بعد رحيله ، حتى تناهى إلى سمعه أن هذه
الزوجة قد غيّبت المنون ، وأن أباه يستقبل زوجة أخرى ، زوجة جديدة لم
تقع عين ابنه عليها ، ولا يعرف من أمرها شيئا قلا أو كثيرا .

وماله يُعنى بها ، وهو اليوم يحيا حياة حرية واستقلال ، في تلك القرية
النائية ، ناجيا بنفسه من شرور زوجات الآباء ؟

ها هو ذا يأتي إلا أن يحشّم نفسه مشقة السعى إلى بلده الأول ، ليشهد
عُرس أبيه ، وكأنه يعبر بذلك عن موفور ثقته بنفسه ، واعتداده بأمره ،
وحرصه على أن يظهر أمام الأب في مظهر الندّ للندّ ، لا يجد منه تهيبا ولا
خشية ، ولا يشعر معه باستكانة ولا خضوع .

حوّمت هذه الخواطر برأسه ، وهو يتخذ سبيله إلى بلده في المرة الأولى ،

ليشهد عُرْسُ أبيه ، وإنه ليدكر كيف تمت هذه الزيارة القصيرة في ذلك الوقت ... زيارة لم تستغرق إلا يوماً وبعض يوم .

لقد دخل يومئذ قاعة الدار ليلاً ، وهي حافلة بالنساء يطلقن الأغاريد ، فتندوّن في الأرجاء ، لتنافس قرع الطبول وشدو المزامير ...

ولقد راعته العروس في صدر القاعة ، تتصوّأ بهاءً ، فتقدّم إليها يزجي تهنيئته ، وألقى نظرة على وجهها الصبيح ، فواجهته عينان دعجاوان مغرقتان في السواد ، نبجلاوان بالفتان في السعة ... فانتظمت هزة لم يملك نفسه معها ، هزة أثارَت في دخيلته غرائب الإحساس .

وانصرف عن الدار بعد قليل ، قاصداً ساحة البيدر المهجور ، في أقصى القرية ، واقتعد الحجر العريض العتيق ، حليف طفولته وأليف صباه ، ذلك الذي كان يجلس إليه الساعة تلو الساعة ، نافضاً إليه نفسه ، شاكياً إليه بئته وهمه ... !

لقد أعرضَ عن الدار في تلك الليلة ، زاهداً في مباحها وزينتها ، ولاذ بذلك الركن الخليلي ، مُشرِعاً عينه إلى السماء الداجية ، كأنما يرصد مواقع النجوم ...

ما باله يتجافى عن ذلك الجوِّ المَرِح الطُّروب ؟
وما له لا يجد أنسا بتلك القرية التي هي مدرج نشأته ، ومثابة أهله
وخلاته ؟

وَنَجَّ نَفْسَهُ ، إِذْ يَحْسُ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ وَحْشَةً كَثِيَّةً !
 إِنَّهَا وَحْشَةٌ تَحْمِلُ إِلَيْهِ فِي تَضَاعِيفِهَا سَوَافِ ذِكْرِيَّاتٍ مُمِضَّةً ...
 مَا أَقْسَى مَا يُمَثِّلُهُ الْآنَ مِنْ تِلْكَ النُّظَرَاتِ الْمَقِيَّتَةِ الَّتِي كَانَتْ تَسُدُّهَا
 إِلَيْهِ امْرَأَةٌ أُبَيِّهِ الْأُولَى ، تِلْكَ الَّتِي رَحَلَتْ إِلَى الْعَالَمِ الْآخِرِ ... نِظَرَاتٍ تَشْتَعِ
 مِنْ عَيْنَيْنِ دَعَاوَيْنِ مَغْرَقَتَيْنِ فِي السَّوَادِ ، نَجْلَاوَيْنِ بِالْغَتَيْنِ فِي السَّعَةِ !
 لَقَدْ وَاجَهَتْهُ اللَّيْلَةُ عَيْنَانِ كَهَاتَيْنِ الْعَيْنَيْنِ ، تَتَوَهَّجَانِ فِي صَدْرِ قَاعَةِ
 الدَّارِ ... فَمَا عِلَّةُ هَذِهِ الْمِشَابَهَةِ بَيْنَ زَوْجَتَيْنِ نَفَضَتْ أَوَّلَاهُمَا يَدَهَا مِنَ الدُّنْيَا ،
 وَخَلَفَتْهَا الْآخَرَى تَسْتَقْبِلُ الْحَيَاةَ فِي بَيْتِ أُبَيِّهِ ؟
 هِيَهَاتَ أَنْ يَنْسَى عَيْنَى زَوْجِ أُبَيِّهِ الرَّاحِلَةَ !
 لَكِنْ كُلُّ عَيْنٍ مِنْهُمَا مَغَارَةٌ عَمِيقَةُ الْمَهْوَى ، حَالِكَةُ الظُّلْمَةِ ، تَعَشُّشُ
 فِي جَوَانِبِهَا الْأَفَاعِي وَالْحَيَاتِ فَمَا تَكَادُ نِظَرَاتُهُ تَلْتَقِي بِنِظَرَاتِهَا حَتَّى كَانَ
 يَسْتَشْعِرُ انْتِفَاضَةَ تَمَلُّكِ عَلَيْهِ أَقْطَارَ نَفْسِهِ جَمْعَاءَ !
 وَالْيَوْمَ ، مَا كَادَتْ عَيْنُهُ تَقَعُ عَلَى عَيْنِ عُرُوسِ أُبَيِّهِ ، حَتَّى انْتَفَضَتْ
 أَوْصَالَهُ . . .

أَثَمَّةٌ فَارِقٌ بَيْنَ انْتِفَاضَةِ الْأَمْسِ ، وَمَا اسْتَشْعَرَهُ الْيَوْمَ ؟
 مَهْمَا يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ ، فَإِنَّهُ السَّاعَةُ وَقَدْ عَرَّتَهُ تِلْكَ الْانْتِفَاضَةُ ، لَا يَجِدُ إِلَى
 قَرَارِ نَفْسِهِ مِنْ سَبِيلٍ .
 لَنْ يَدَعَ قَلْبُهُ نَهْبًا لِهَذَا الْإِهْتِيَاجِ الَّذِي لَيْسَ لَهُ مَسَوِّغٌ .

لقد حضر القرية ، لينهى أباه بزواجه ، ثم لا يُعْتَمَّ أن يترك القرية
ليهاود عيشه الآمن الساكن في موطنه الجديد .
وكان يسيراً عليه أن يبلغ من ذلك ما يروم ، فأدّى واجب التهئة ،
وأذبر عن القرية راجعاً .

وانصرم بعد ذلك عامان ، وها هو ذا يخطو إلى بلده الأصيل مرة ثانية .
ولكنه في هذه المرة لم يكن قدومه لغُرس بهيج ، بل كان لما تمَّ
مَهْيَب . . . ما جاء لينهى أباه ، بل ليتلقى العزاء فيه !
دخل الشابّ قاعة الدار ، وهي تعجّ بالنساء معولات يندُبْنَ . . .
دخلها فارغ القامة ، عريض المنكبين ، يخبُّ في جلبابه الرينى من
الصفوف الأسود .

وما إن ألقى الشابُّ نظرةً حوله ، حتى أخذت عينه في صدر القاعة زوج
أبيه في جسمها الخصبِ الرَيَّان ، يكسوه رداؤها الأسود السابغ ، وقد
توضح وجهها الأبيض الناصع يشوبه شحوب . . . فخطا إليها يدانها ، فما
إن استبان لها شبحه حتى اختلج مُحَيَّاهَا اختلاجة إجهاش ، فأسرع مقبلاً
عليها يواسيها بمألوف الكلام في مثل هذا المقام .

ولما همَّ بأن ينصرف من القاعة ، رفعت إليه مُحَيَّاهَا ، فواجهته بهاتين
العينين الدمجاوين النجلاوين ، فأحسَّ من فوره ما أحسَّه من قبل في
زورته الأولى للقرية ليلة عُرس أبيه .

لقد سَرَتْ في أوصاله تلك الانتفاضة التي تهزّ نفسه هزّاً ، فبارح
القاعة قاصداً ذلك البَيْدَر المهجور في أقصى القرية ، واقتعد الحجر العريض
العتيق ، وصوّب نظراته إلى الأفق ، يرصدُ مواقع النجوم !

ما أشبه الليلة بالبارحة ، وإن تباينت المظاهر ، وتناقضت الأوضاع ...
عُرسٌ يُستبدل به مأتمٌ ، وأغاريدٌ يحلُّ محلّها نذبٌ ونواحٌ . ولكن أليس
الأمر في جوهره على ما هو عليه ، بمنزلةٍ سواء ؟ !

هذه القرية هي هي ، وتلك الدار كما كانت ، وزوجُ أبيه كما رآها في
المرّة السالفة بقوامها الخِصْب الرّيان ، وعينيها النجلاوين الدعجاوين ...
إنه ليحسّ بأن كل شيء قد يدركه التغير ، ويلحقه الفناء ، إلا هاتين
العينين !

ما زالت الانتفاضةُ تنتظم جُسمانه ، منذ نظرتُ إليه زوجُ أبيه ...
شعورٌ كمينٌ يبعثُ على أن يفرَّ من وجه هذه المرأة !
أهو يكرهها ، لأنها كانت لأبيه زوجاً ؟
أيةُ إساءة أسلفتها إليه ؟

فيم هذه التّفرة التي يصطنعها لها ؟
أليكون مردُّ ذلك إلى أنها امرأة تنطوى على أَلغاز وأسرار ، يتعذر عليه
أن يكتنه دقاتها ؟

لقد ترامى إليه من أخبارها نتف ... وإنها لَعجائبُ أخبار !

قبل أن يتزوجها أبوه كانت زوجاً لشيخ البلد ، وكان بحبها متدلّها ،
يُغلق عليها عطاياه ، حتى أتلّف بين يديها ماله ، وامتدّ زواجهما
عامين ، لم يُرزقاً فيهما بمولود . . . وما إن مات الشيخ عنها حتى شغقتُ
أباه حبّاً ، فتزوجها وظل يُسرف في تنعيمها وتكريمها حتى ركبته الديون ،
وأمضى في صحبتها عامين ، لم يرزق فيهما بمولود ، ثم قضى نحبه بمرأى
منها ومسمع !

ما سرّ هذا التوافق بين الحالتين ؟

أمحضُ مصادفةٍ هو ؟

أطوى هذه المرأة أحناءها على طلّهم فيه الفناء والدمار ؟
تلك هي تجتذب بظاهر فتنها قلباً بعد قلب ، وإذا هي تُورِدُ القلوب
موارد التمنّون !

ولكن فيم تفكيره في هذا كله ؟

وهل له من شأن مع تلك المرأة إلا أنها اليوم أرملة أبيه ؟
إن هي إلا أيام معدودات تنتهي فيها مراسيم التعزية ، ثم يفارق البلد
في غير إبطاء .

ماذا في القرية يستهويه ؟

ماذا في القرية يستبقيه ؟

لو كان لأبيه تركة عامرة ، لتقاضته أن يمكث من أجلها ، حتى يستوفى

تديرها . ولكن ميراث أبيه تنتهيه الديون ، وحسبه هو أن يأمل
الإفلات من مغارم الدائنين !

إن موطنه الآخر يناديه ، وإن مستقبله فيه . . . هنالك يواصل عمله ،
ويتخذ له ربة بيت ، وينتظر أن يُرزق بالذرية الطيبة ، فيرغد عيشه ،
ويرحى باله ، ويحيا حياة الدعة والنعيم .

ونهب الشاب إلى دار لبعض أقربائه ، مؤثراً أن يأوي إليها خلال
إقامته في القرية ، كما فعل في زيارته الأولى حين قدم ليشهد عرس أبيه .
وتقضت أيام التعزية ، وتدانت ساعة الرحيل .
إنه لتارك القرية غداة غده .

ولكنه ما ينبغي له أن يرحل قبل أن يؤدّع أرملة أبيه وداعه الأخير . . .
هبط القاعة ، وكانت الدار خلواً من الناس ، وقد هدأت نوبات
النحيب ، إلا بعض أصدقاء أحس بها الشاب تتردد في ترائيل وخفوت .
كانت الدار يغشاها ليل بهيم ، لا يقاوم خلكتة إلا مصباح هزيل
ترجّج دُبالته ، فتتخايل الظلال على الحوائط والأركان ، كأنها أشباح
تنبعث من عالم مجهول .

لكأن هذا المصباح بما يبسط من اللهب ، وبما يثير من الظلال ، لم
يوقد إلا ليعث الخفاة والرهب ، فهو يُكسب الدار من الوحشة والكآبة
أضعاف ما يهبها من النور . . . وإنه ليؤلف مع تلك الأصدقاء المتزايلة ،

أصداء العويل والانتحاب ، جَوًّا فاقما عابساً يُحيل هذه الدار كهفًا مُوحِشًا
في مجاهل الأرض ...

ولما دخل الشاب قاعة الدار ، ألقيَ امرأةً أيه خاليةً بنفسها ، تجلس
على حصير ، وقد أخذتها غفوة التفكير .

و إذ شعرتُ بمقدمه ، انتهت تحييه ، وما هي إلا أن فرشتُ على
الصفقة سجادة عتيقة ، وأشارتُ إلى الضيف تقول :

تعال اجلس هنا ... في مكان أيبك ... هذه صفته ، وتلك سجّادته !
فأحجم الشاب لحظة ، فعاجلته قائلة :

ومن أحقّ منك بأن يحلّ مكانه ؟ كان هذا مجلسه الأثير عنده ،
يقضى فيه الأماسى ، يرتشف القهوة ، ويطارحنى الحديث ...
ومسحت عينيها المُخضلتين .

ووجد الشاب نفسه جالسا على السجّادة ، يتحسس خملها ، وهو ساهم
شارد النظر ...

وتوارت المرأة فترة ، ثم رجعت تحمل صينية القهوة ، وقرّبت إلى الشاب
قدحه ، وهى تقول :

إنه قدح أيبك الذى لم يكن يطيب له سواء ... شدّ ما كان يحلّوله أن
يشرب القهوة فيه !

وتناول الشاب القدح ، وطَفِقَ يتأمله ، وأحس بالمرأة تقتعد الحصير عن

كُتِبَ مِنْهُ ، فَهَمَّ أَنْ يَدْعَوْهَا أَنْ تَجْلِسَ عَلَى الصُّفَّةِ ، فَإِذَا هِيَ تَقُولُ ،
مَشِيرَةً يَبْدُو إِلَيْهَا الْحَصِيرُ :

ذَلِكَ هُوَ مَكَانِي ... وَهَكَذَا كُنْتُ أَجْلِسُ مِنْ أَيْكَ !
وَحَنَّتْ رَأْسَهَا تَخْتَلِجُ فِي صَدْرِهَا تَنْهَدَاتٌ ، وَجَعَلَ هُوَ يَتَرَشَّفُ التَّهْوَةَ
فِي مَطَاوِلَةٍ وَأَنَانَةٍ .

وَأَرَادَ أَنْ يُفَضِّلَ إِلَيْهَا بِإِزْمَاعِهِ السَّفَرَ مِنْ غَدِهِ ، وَلَكِنَّمَا سَبَقَتْ بِقَوْلِهَا :
كَانَ أَبُوكَ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ كَرِيمًا وَاسِعَ الْكَرَمِ ، فَأَسْرَفَ فِي الْإِنْفَاقِ ،
وَحَلَفْنَا بَعْدَهُ لَا نَدْرِي مَاذَا نَصْنَعُ ؟ لَا بَدْءَ مِنْ يَدٍ مَدْبُورَةٍ حَازِمَةٍ تَنْقُذُ الدَّارَ
مِمَّا يَوْشِكُ أَنْ يَسْتَقْبِلَهَا مِنْ خَرَابٍ !
وَسَمَتْ بِعَيْنَيْهَا إِلَيْهِ ، فَمَا أَسْرَعَ أَنْ اشْتَبَكَتِ النَّظَرَاتُ ... وَإِذَا الشَّابُّ
يَهْمُهُمْ :

سَتُنْدَبَرُ الْأَمْرَ . . . كُلُّ شَيْءٍ يَنْتَهِي إِلَى خَيْرٍ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .
وَاسْتَرْسَلَتِ الْمَرْأَةُ تَصِفُ مِنْ خَاصَّةِ شَأْنِهَا لِجَلِيسِهَا الشَّابُّ . . . كَيْفَ
كَانَتْ تَنْعَمُ بِالْحَيَاةِ فِي ظِلِّ أَيْهِ ؟ مَا مَبْلَغُ خَوْفِهَا مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ ؟ إِلَى أَىِّ
مَصِيرٍ يَسُوقُهَا الْقَدَرُ الْمُسْتَوْر ؟ ... وَكَانَ بَدِيهَا أَنْ يَطِيبَ الشَّابُّ خَاطِرَهَا ،
وَأَنْ يُؤَمِّنَهَا مِنَ الْخَوْفِ الْقَرِيبِ أَوْ الْبَعِيدِ ! .

وَانْتَهَتْ الزِّيَارَةُ ، فَخَرَجَ الشَّابُّ تَقْوَدُهُ قَدَمَاهُ إِلَى الْبَيْدَرِ الْمَهْجُورِ ، وَاعْتَلَى ذَلِكَ
الْحَجَرِ الْعَرِيضِ ، مُصْعِدًا بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ الْحَالِكَةِ ، بِتَبَيُّنِ مَسَالِكِ النُّجُومِ ،

فكانت تتراءى له فى كل نجم عين نجلاء دعباء تتحير فيها الدموع !
 لماذا أجلسته المرأة على الضفة التى كان يؤثرها أبوه ؟
 لماذا بسطت له سجادة أبيه الخاصة به ؟
 لماذا قدّمت له القهوة فى قدح أبيه المختار ؟
 إن الشابّ ليعترف فى إخلاص بأن المرأة كانت حفيّةً به ، وأن قلبها
 كان يحقق بالمودة والصفاء !

هذا الحديث الذى ناجته به ، تصف ما هى فيه من حزن وضيق ،
 أليس دليلاً على أنها اتخذت منه موضعاً لنجواها ، ومقرّعا لشكواها ؟
 هذه النظرات التى كانت تُراسله بها بين الفينة والفينة ، تتجلى فيها
 الدماعة والرفق ، أليست آيةً تُبين عما تنطوى عليه ضلوعها من حدب
 وإشفاق ؟

وَأَعَجَبَاهُ مما يشعر به الساعة !
 إنه ليحسّ الظمأ أبلغ الظمأ إلى عاطفةٍ ترامى به عهداً ، فهو يبحث
 عنها جاهداً فى ألقاف الماضى السحيق ، ذلك الماضى الذى طوته الأيام ،
 ونسجت عليه العناكبُ خيوطَ النسيان !
 إنه ليطوّح بذكريته فى أعماق عهده الغابر ، ذلك العهد الذى كان ينعم
 فيه برعاية أمه ، قبل أن تودّع الحياة الدنيا ، راحلةً إلى العالم الآخر . . .
 أمستطيعُ هو أن يتمثل ذلك الحنان الذى تذوّقه فى كنف أمه ؟

إنه ليخترق الآن ما تكاثف من حُجُب الماضي ، فتلوح له أشباح أحلام
غامضة تائهة ، فيذكر كيف كانت عيناه الدقيقتان ترنّونان إلى وجهه طَلَقَ
بَسَام ، وكيف كان يحسّ ذراعين مبسوطتين تلتفان حوله ، فتضانه في
ترفق ولطف .

ولبت الفتى حيناً تشرّد به الذكريات إلى ذلك العهد القصي ، وكأنه
في زورق ينساب على صفحة الماء ، والهواء رخاء ...
وبغثةً شعر بالجو يكفهر ، وبالإعصار يهبّ جارفاً يثير الموج ، فإذا
بالزورق ينقلب به ، وإذا هو يتخبّط في ملتطم العُباب .

وبينا هو يتقاذفه التيار ، طالعه وجه ذو عينين سوداوين مغرقين في
السواد ، واسعتين بالغتين في السعة ، تشعّ نظراتهما فتبعث الواحشة
والفرع ... وما أسرع أن استبانته له فيهما عينا زوج أبيه الأولى ، فنَدَّتْ
منه صيحةً مخنقة ، وألقى نفسه يغطّي وجهه بكفيه ، يحاول أن يحجب
عن عينيه تلك النظرات ...

ما بال هذه الذكريات الشاردة تساوره الليلة ؟

وما بال هذه الإحساسات الغريبة ترأوده في غير هوادة ؟

ويَحْه من تلك الذكريات المتناقضة ، يختلط فيها الصفاء بالكدر ،
وتشتبك فيها الرهبة بالإيناس ، ويتلاقى فيها حنان الأمومة ورهبة
زوجة الأب ؟ !

أقد كان منذ قليل في حجة زوج أبيه الأخرى ، تلك التي لم يَلْقَ على
يدها شراً قط ، بل تلك التي أنسَ معها بجلسة هدوء وصفاء . ولكنه
يحسّر في وليجة نفسه بأن هذه المرأة على الرغم من ذلك كله أشبه ما تكون
بطلّسّم مستغلق ، تتنازع فيه الطمأنينة والقلق ، ويتقاتل فيه الموت والحياة !
أنّراهُ يعجز عن مجابهة ذلك الطلّسّم ، والوقوف منه موقف الصامد
الجسور؟ أنراهُ يظل أبداً ، كما كان في عهده الأول ، ذلك الطفل المضطهد ،
ذلك الصبي المذبذب ، حين كان يستنيم للضميم ، ويصبر على الأذى ، لا يدّ له
بمكالمة ودفاع ؟

لا فِرَارَ اليوم من وجه المغامرات ، ولا خوف من مجالدة الصعاب ،
فإنه اليوم غيره بالأمس ، ملء إهابه الفتوة وصدق العزم ، وملء نفسه
الثقة بالنفس .

ونهض الفتى على الهامة ، بارزَ الصدر ، يستنشى نَفحات النسيم ،
وهو يضرب بقدمه أديم الأرض ، ويشقّ طريقه في غَمَرات الظلام ...
وجرت الأيام في عَنَانِها ، وألنى الفتى نفسه يتشمّر مهتماً بشئون زوج
أبيه ، حتى استطاع أن يؤمّن حياتها فيما يستقبلها من أحداث الزمان .
وطمأنّت نفسه بأنه قد أدّى الواجب على خير ما يرام ... وماله
لا يرى ذلك واجباً عليه ؟ وهل هذه المرأة إلا أرملة مَهِيضة الجناح ،
ضعيفة الجانب ، رمت بها الأقدار هذا المَرَمَى ؟

أليس لزاماً عليه أن يأخذ بيدها ، رفقا بها ، ورعاية لحمة أبيه ؟
 أمّا الآن وقد أنجز مهمته ، فما عليه إلا أن يبيت على رحيل ... وإن
 مواعده الصبح ، أليس الصبح بقريب ؟
 ولكن عليه ألا يُغفل زيارة المرأة ساعة أو بعض ساعة ، قبل أن يفارق
 القرية ، فليمض إليها من فوره يلقي عليها تحية التوديع .
 وكان الوقت عشاء حين أقبل على القاعة ، وهى فى سكونة وهدوء ،
 لا يحسّ فيها ما كان يحسّ قبلا من أصداء الندب والعويل ، تتردد فى
 تزايل وخفوت .

واسترعى نظره مصباح جديد صافى اللَّهبّ ، رأى فى ضوءه أثاث القاعة
 على شىء من التنسيق .
 وبدت له زوجُ أبيه ، طلبة المحيّا ، وادعة الأسارى ، يستبين وجهها
 فى إطار من خمار أسود قشيب . وكانت على الرغم من رداء الحداد مهتدّمة
 الزّى . فلما تبادلّا مألوف التحية ، ألقت الفتى قدميه تسوقانه إلى الصّفّة
 ذات السجّادة ، فأخذ فيها مجلسه ، وبعد قليل قدّمت المرأة له القهوة فى
 قدح أبيه المختار ، فتناوله فى زهو واعتزاز ، وكان وهو يتشرّف ما فى القدح
 يجد له أطيب المذاق .

وقعدت المرأة على الحصير ، قريبةً من الفتى ، وشرعت تطارّحه
 أطراف الأحاديث ، فانطلق الفتى يصف لها ما صنع من أجلها ، وما دبر

لستقبلها ، وراح يؤكد لها أنها لن تصادف في حياتها ما تخشاه ، فعقبت المرأة تقول :

إني مطمئنة إليك ، وما دمت أنا في رعايتك فلا يصيبني مكروه ...
كان أبوك بي شفيقاً ، وأنت سرّ أهلك !
ثم حدّقت فيه قائلة :

عجيبٌ هذا التشابهُ بينك وبينه : هامتُك ، قامتُك ، عمامتُك ...
سأصارحك بما يدهشك . إنك إذ قدّمتَ ليلةَ المائتم على ، ووقع بصري عليك ، راعني أمرُك ، فقد خُيلَ إليّ أن أباك قد بُعثَ من مرّقدِه حيّاً ، وأنه قد نفّض عنه أكفانه ، وحضرَ يشهد مأتمه .

فبههم الفتى يقول :

أَكذلكِ ترينِني مُشبهاً أبي ؟
فأجابته :

كل الشبه ... لكأنه أنت ... حتى في مشيتك ، حتى في شارتك ،
حتى في إشارتك !

ثم نهضت وهي تقول :

انتظرني لحظات ...

وما هي إلا أن رجعت إليه تحمل مُطَرَفاً مُوشَّيً بين يديها ،
وقبل أن يدرك مرادها ، ألقت بالمُطَرَفِ على كتفه ، وهي تسوِّي

حواشيه على صدره ، وتقول :

هكذا كان أبوك يتلفّع بِمُطَرَفِه هذا .

ثم جعلت ترنو إليه ، وهى تردد :

يا لله ! ... كأن أباك الشيخ أُمَامَى الآن ... ولكن شيئاً واحداً يُغَوِّزُكَ !

— أىّ شيء هو ؟

— لحيته ... فلقد كان ذا لِحْيَةٍ مُشَدَّبَةٍ يُعْنَى بها أَشَدُّ عناية .

فابتسم الشاب يقول :

اللحى جميلة لمن يرغب فيها .

— إنها زينة الرجال ، تُسَبِّغُ عليهم البهاء والرَّوَاء ، وتكسوهم

المهابة والجلال .

وأحسنّ الشاب بيده تعالى إلى ذقنه يتحسّسه ، مهمهما :

مهما يكن من أمر ، فينبى وبين أبى فرق !

— أىّ فرق تقصد ؟

— السنّ ... لقد كان أبى شيخاً !

— أما أنت فشابّ ... لقد جمعت بين فتوة الشباب وخُنْكَة

الشيوخ ... إن الناس جميعاً يتحدثون بما لك من عقل وحكمة ، ويتناقلون

عناك أطيب الأخبار !

— ماذا يتناقلون عني ؟

— لقد بنيتَ لنفسك في قريتك التي رحلتَ إليها مكانةً جعلت اسمك
يدور في المجالس .

— ما كان ذلك ليتاح لي ، لولا عونُ الله !
— طالما ذكرتُ أبوك ، وشد ما أسفّه رحيلك ، وكانت أمنيته أن
تعود إليه لتعينه على أمره في شيخوخته .

فأطرق الشاب هنيئة ، ثم قال :
لم يكن يسيراً علىّ أن أعود إليه ... لقد كان بيته جحماً تتلظى !
فلما سمعت المرأة هذه الجملة ، أخذت أناملها تعبت بأطراف رداؤها ،
وهي تقول :

أما زلتَ ترى البيت كما كان جحماً ؟
وهنا وجد الفتى نفسه ينهض ، وقد أنهى إلى أرملة أبيه إزماعه الرحيل ،
وأعرب لها عن أطيّب تمنياته .

وتوافقاً لحظة صامتين ، وأعينهما مشتبهات ...
وألقي عليها الفتى تحية الوداع ، وانطلق يطلب الطريق .
وما أسرع أن اتخذ سبيله إلى البيدر المهجور ، تؤنسه سماء صاحية ،
ويرفرف من حوله نسيم دافئ مُشبع بأريج الزروع ، وبين يديه فيض من
نور القمر القتيّ .

وجاز الفتى في طريقه بغدير رقراق ، فمكث أمامه غير قليل ، ثم مال

عليه يتوسّم وجهه في مرآة الماء ، ووجد يده تمرّ على ذقنه ... وما عَمَّ أن
 نَدَّت منه ضحكة خفيفة أشرق لها سياه ... لقد تراءى له وجهه ، وقد اكتسى
 لحية مهيبة مهندمة كالحية أبيه الراحل ، وما كادت تلوح له صورة أبيه حتى
 تداعت المعاني في خاطره ، فسرعان ما تزايلت تلك الضحكة ، لتفسح
 مكانها لمسحة من الجهامة والاكتئاب يبعثها تفكير عميق .

وفصل عن الغدير، ماضياً إلى البيدر المبحور ، يقتعد الحجر العريض ،
 ويراجع ما دار في ليلته من حديث أرملة أبيه .

وأنبّهته من تفكيره هبة من النسيم الدافئ داعبت كتفه ، وإذا هو
 يتبين مطرف أبيه الذي منحته المرأة إياه !

ودارت مواكب الذكريات أمام عينيه ، فألقى نفسه يرجع القهقري
 إلى عهود الصبا ، وبدا له طيف أبيه وهو على الصفة ذات السجادة جالس
 يرتشف القهوة من ذلك القدح الأثير ، وقد تهدّل على كتفيه هذا المطرف
 الموشى . فأما هو فكان في ذلك الحين يقف بمنأى من أبيه وقفة المذلة
 والصغار ، وعلى الحصر بجانب الصفة تجلس امرأة أبيه الأولى ، كأنها
 أفعى تنفث من نظراتها إليه سماً زُعافاً ، ولا تدع فرصة إلا تجنّت عليه ،
 وكادت له ، فأثارت عليه أباه ، وأوغرت صدره ، ونصبت هداً لأنوان
 من الإيذاء !

ما أعجب هذه المقادير !

أكان يخطر بباله أن يوماً يُمسي به ، وهو مقتعدٌ مجلساً أبيه ، يشرب
القهوة في قدحه ، ويتلذذ بمطرّفه ، وعن كُتبٍ منه ذلك الحصر تجلس
عليه زوج أبيه في تطف وملاينة واستسلام ؟

حقاً ليست هذه زوج أبيه الأولى ، تلك التي أذاقته مرارة المهانة والإزراء ،
ولكنها على أية حال زوج لأبيه ، مكانها منه مكانٌ تلك الزوجة الراحلة !
على رغمٍ منه يجد في طوايا صدره ثورة جامحة تبتغي التّشفي والانتقام ...
ولكن ممن ينتقم ويتشفي ؟

إن أرملة أبيه هذه تتألقه ، وتتودّدُ إليه ، وتحوّلُه بأقصى ما تملك من
أسباب التّكريم والإعزاز ...

بيد أنه لا يدرى : أ يكون ذلك منها رياءً ومخادعة ؟

أ يكون وراء هذا البريق الخلاب تبيت لمكيدة وعُدوان ؟

أ ينسى أنها مهما يكن من أمر ، فهي « زوجة أب » ؟

أو ينسى أنها عنوان سُوءٍ ، ونذير شرٍّ وأذى ؟

ألم تقض على رجلين اثنين ، سلبتهما المال والروح ؟

حيرة بالغة تكتنفه !

كيف تسوّل له نفسه أن يظن الظنون بهذه المرأة التي تبسط له رحابها

أنسا ومصافاة ، ويجد في مجلسها من المتعة والنعيم ما لا عهد له به من قبل ؟

ونهب ضائعاً بنفسه ، تصطرع بين جوانحه شتى النزعات .

ودفع بخطاه إلى الغدير ، يَنْصَحُ وجهه بالماء .
 ... وكان أن رحل الفتى إلى القرية البعيدة التي اتخذها له وطناً آخر ،
 إلا أنه لم يمض عليه فيها شهران ، حتى استقبلته قرية أبيه عائداً .
 وسرعان ما طرق الدار ، متجهاً إلى القاعة ، ويُد الخطو ، يطلق سَعْلَةً
 يحاكى بها سَعْلَةُ أبيه المألوفة .

وما هي إلا لحظات ، حتى هُرِعَتْ إلى القاعة أرملة أبيه ، فما إن واجهته
 حتى انبعثت صارخة ، وهَمَّتْ أن تتراجع ، فأوشكت أن تنهوى ، فعَجَلَ
 إليها يأخذها بين يديه ، واتجه بها إلى الصُّفَّة يَذْهَبُ عنها الرُّوعُ ،
 وهو يقول :

ماذا بكِ ؟

ورفعت المرأة عينها إليه ، وقد عاودها بعض الطمأنينة ، فهمت تقول :
 حَسِبْتُكَ الشيخَ نفسه ... أنت الآن هولاء ريب . . هذه اللحية التي
 كست عارضيك لم تدعُ بينك وبين أهلك من فارق .
 وأقبلت عليه تتوسَّمه ، كأنها تستوثق وتتثبت ، خشية أن يكون ما عايناه
 حياها طيفاً من عالم الرؤى والأحلام !
 وواصلت قولها في احتياج :

إني لأشتم منك رائحته ... رائحته عينيها ... رائحة السَّعوط الذي كان
 ينتشقه .

— لقد هفت إلى هذا السَّعُوطِ نفسى ، إذ وجدتُ فيه وقايةً من البرد ،
وعصمةً من المرض .

— كذلك كان يقول أبوك .

وما أسرع أن أُعِدَّتِ القهوةُ ، وما أسرع أن وجد الفتى نفسه يحتسيها
في قدح أبيه الأثير .

وتربعت المرأة على الحصير ، قريبةً من الفتى ، ترقب حركاته في
تطلع ملحوظ .

وشرع الفتى يجلو للمرأة سرَّ عودته ، إذ علم بنزاع قام بين إحدى
قريباته وزوجها ، فجاء يحسم هذا النزاع ، ويعالج إصلاح ذات البين .
فقالت المرأة رنانة الصوت :

أنت رجل لا تقصّر في واجبك . ولقد صرت للأسرة عميداً ... أبقاك
الله وحماك !

فغصَّ على قولها ، عطوفَ اللهجة :

وكيف حالك أنتِ ؟

فأمسكت المرأة عن الجواب ، بضع لحظات ، وهى ناكسة الرأس ، ثم
قالت فى نبرات حزينة :

الحمد لله على كل حال .

— أئمةٌ جديد ؟

فهدج صوتها قائلة :

لا جديد .

— كأني بك تخفين عني أمرك .

— ليس من شيء أخفيه .

وتخاذلت لهجتها ، وإذا هي تنفض نفسها في نسيج محتدم ، ووجهها
بين يديها تحجب به .

فانحدر الفتى إليها ، يأخذ بجوارها مكانه ، وهو يربّت كنفها ويقول :

صارحيني ... ماذا جرى ؟

فاندفعت في نسيجها تقول :

لا شيء ... لا شيء !

فصاح بها قائلاً :

قسماً لأعلمن الخبر !

وبعد لأي قالت المرأة ، وهي تغض من بصرها :

سيليكون الدار بعد أيام ... دارنا هذه ... دار أليك ... تلك التي

كانت أعز شيء عليه في الوجود !

— كيف ؟

— لقد وقع عليها الحجز ، وفاء لدين قديم .

— لماذا لم تخبريني ؟

كيف أبيعُ نفسي أن أزعجك بشأني ، وقد تركتني عائداً إلى
 قريتك الجديدة ؟

— لم يكن بُدٌّ من عودتي إليها ... ولكني لا أهمل أمرك أبداً ...
 لن نُفَلِّتَ من أيدينا دارُ أبي !

فرَّنتُ إليه ، ورنا إليها ، ووصلت بينهما تلك النظرة العميقة الجيَّاشة ،
 وإذا المرأة تُهَوِّي عليه ، فتُسَبِّعُ يده تقييلاً ، وهي تقول :

ما دام لي قلبك الكبير ، فلن يمسنى سوء .

وتلاقتْ نظراتهما ثانية .

وما هي إلا أن أحسَّ الفتى بأن المرأة تقبَّلُ جبينه قلة تتقد من عطف
 وحنان . وإذا هو يطوقها بذراعيه ، فتنقاد له ، مخفيةً وجهها في صدره ،
 وهي تتشبَّث به !

ومنذ هذه الليلة استقرَّ الفتى في دار أبيه ، مع تلك المرأة ، يقاسمها
 العيش .

وكان لا يبرح الدار في يومه إلا لِمَأمًا ، حين تلجئه مطالب الحياة .
 على أنه كان في بعض الأماسي يرتقب ساعة من هزيع الليل ، فيخرج
 وقد أوى الناس إلى مساكنهم ، متسللاً إلى ذلك البئدر المهجور ، يقضي
 فيه طويلاً من الوقت ، وهو جالس على الحجر العريض ، يرقب السماء ،
 شاردةً اللب ، موزَّعَ الخاطر . . .

وكثيراً ما أخذته انتفاضة زلزلت كيانه في مجلسه ، فجعل يدق صدره بيده ، يغالب ما احتبس فيه من نزعات ومشاعر .

إنه ليحس بأن في طوايا نفسه بُرْكاناً يتضرم ، ويوشك أن يقذف بالحُجْم ، وعبثاً يحاول أن يسد فوهته ، أو يخمد جذوته !

وإنه ليفزع إلى الغدير ، ناظراً في صفحته تحت ضوء الكواكب ، فيتجلى له وجهه أمامه ، تكسوه تلك اللحية المهندمة ، فيلمس أطرافها بأمله ، ثم لا يلبث أن تعاجله ثورة عارمة ، فكأنه يريد أن يقتلع تلك اللحية من جذورها ، لا يبقى منها ولا يذر .

لقد اتخذ اليوم لنفسه حياةً طابعها عزلة الناس ، فهو يتجنب مرآهم ما وسعه أن يتجنب ، حتى ليحاول وهو يسلك طريقه أن يتنكب عن مواجهة أقرب ذويه ، وقد علت سحنته صلاية وجهامة ، حلت محل ما كان قبلاً من وداعة وتطلق . فأما عيناه فكأنتا ترميان بنظرات تتلظى فيهما الشهوة والشر ، بعد أن كانت هاتان العينان تترسل منهما نظرات الطهر والصفاء !

إلى أي طريق في حياته هو مسوق ؟

تُرى أية نهاية ترتقبه لتختم حياته تلك ؟

أصائرٌ هو في صحبة هذه المرأة حيث صار زوجها الراحلان ؟

أستطيعه أن تقضى عليه قضاءها عليهما من قبل ؟

من تكون هذه المرأة ؟

إنها زوج أبيه ، في مقام أمه !

يا سوء هذه العلاقة التي تربط بينه وبينها اليوم !

حتى متى تبقى هذه العلاقة الشنعاء ؟

أولئك هم الناس يتهايمسون به ، ويجري ذكره في حديثهم مشوباً

بالأقويل !

ألا يملك إخماد هذه العاطفة الهوجاء التي شبت بين جوانحه لتلك

المرأة ؟

تجلباً لهذه العاطفة التي تلتقي فيها المتناقضات !

لا سبيل إلى إنكار أنه يهواها ، بل إنه لا يطيق عنها بعداً ... فما باله

على الرغم من ذلك كله ، تشور به الرغبة في أن يعصف بها ويقضى عليها ؟

وانتهى الأمر بالشاب إلى أن يلزم الدار ، حيساً لا يفارقها في ليل

أو نهار ..

وانتخذت هذه الدار صبغة مرهوبة في القرية ، فرانت عليها كآبة ووحشة

كأنها قبر أخطأ مكانه ، فاستقرّ بين دُور الأحياء !

وكان الناس يجوزون بتلك الدار ، فينظرون إليها على أنها خربة من

الخربات ، تعمُرُها أرواح الشياطين !

وفي أمسية من الأماسي الساجية ، تفزع أهل القرية ، فتدققوا من

أعماق الدُّور ، إذ رأوا ألسنة النار تتعالى من تلك الدار المشؤومة ، فتحيط
بها من كل جانب .

وأقبل جمع من رجال القرية ، يحاولون اقتحام الدار ، وتخليص من فيها
من السكان ، فهاهم أنهم لم يسمعوا نامة استغاثة ، ولا حركة فرار . وألقوا
الباب محكم الرِّتاج ، فانطلقوا يقرعون ، فانبعث من جوف الدار صوت
ثائر ، كأنه هذيان محوم ، وهو يردد :

لا تقربوا الباب ... دعوا الدار تأكلها النار ! ...

وجعلت جحافل اللهب تزفر وتجيش ، والناس يتراجعون من خشية
ورهب ، كأنهم يهربون من نار الجحيم !

مجننون

أجننون أنا لا عقل لي ولا اتزان ؟
أم أن عقلي موفور لم أفقده ، وأن ما أعانيه ليس إلا أثراً لتهافتِ
الأعصاب من فرط الكدّ والجهد ؟
فبقى مستطاعى أن أبلغ فى هذا التساؤل فصل الخطاب ، وما يسوغ لى
وأنا طبيب مكين ، سبّرتُ أغوار العلل ، واكتنّيت أسرار الأدوية ، أن
أقف حيال نفسى قلقاً حيران ، لا أقطع برأى ، ولا أستنيم لحكم ...
ولكن فيم جزعى ، وليست حالى إلا صورةً من طابع الحياة التى
نحياها ؟

إنها حياة تضطرب فيها الخواطر ، وتصطرع الآراء ، فلا ترى الأحكام
إلا أطيافاً وأخيلة ، ولا تكاد تظمنّ فيها إلى حقيقة واحدة .
على أن اضطراب الحياة واضطراعا أمر لا غرابة فيه ولا شذوذ .
من أين للمجتمع أن يقرر تلك « الحقيقة الواحدة » المزعومة الموهومة ؟

ما كانت الحقيقة شيئاً مجرداً قائماً بذاته يهبط علينا مهبط الغيث .
 هي من صوغ أيدينا ، وصنع أنفسنا .
 كلُّ منا يصوغ حقيقته ، تهديه عوامل شتى من بيئة وتجربة واستعداد
 جسماني وعقلي ، موهوب أو مكسوب .
 كلُّ منا يصنع مبدأه وفق ما تاح له من حظوظ وملابسات ، وما رُكِّب
 فيه من مزاج .

حتى هذه الحقيقة الخاصة بكل فرد ، ليست هي « الحقيقة الواحدة » له
 على اختلاف عهوده وأحواله .

شأن أمسٍ غيرُ شأنِ اليوم ، وإنْ لُغِدْ شأنًا غيرَ ما كان وما هو كائن !
 بل إن اللحظة تِلَوُّ اللحظة لقمينة أن تستقبل طارئاً من الأمر تتغير
 به الحقيقة من وجه إلى وجه ، فإذا الذي أصبح صدقاً أمسٍ من الكذب
 الصُّراح ، وإذا الذي كان مطويّاً في جُنْح الليل صار واضحاً كضوء الصبح
 المُسْفِر .

مهما يكن من أمر ، فقصارى ما أستطيع الحكم فيه — حين أُجِبُّ هذه
 الأسطر — أني رجل مريض . . .

منذ أشهر ، وأنا أسيرُ العقاقير .

ألستُ بلاريبٍ في عِدَادِ المرضى ؟

الواقع أن هذه العقاقير لا تزيد على أن تكون سُكُولا من المنوكات

والمخدرات ، أحاول بها أن أهرب من ألم الشعور بالأوجاع والآلام .
هذه الأوقات التي يسيطر فيها المخدر على أعصابي هي وحدها فترات
راحتي وسكينتي . وطالما فرغتُ إليه حين يشتدُّ كربى ، وأعيأ بأمرى ،
ولكننى أشعر على الرغم من كل شيء بمقت وزرابة لذلك المخدر الذى يخذعنى
عن نفسى ، وييسرلى الفرار إلى طمأنينة مكذوبة ، وراحة زائفة ...
إنى لأؤثر العذاب فى يقظتى ووعى ، على أن أكون ألوبة تعبثُ بها
الأوهام والأخاديع .

عذاب اليقظة والوعى أستطيع أن أدرك شأنى ، فأفكر وأقدر ، وأفحص
وأحس ، لا يفوتني مما أنا فيه قليل ولا كثير ، ومن ثم أتمس السبيل إلى
مخاض أطمئن به ، وقرار أسكن إليه .

عذاب اليقظة والوعى أشعر بأنى كائن حى ، توافرت له عناصر
الحيوية من شعور وإحساس ، فأما تحت سلطان هذا المخدر فأنا جثة
هامدة ، لا يعوزها إلا الكفن ، لتكون كفنًا لغيبابة الرمس !
إن طلبت السبب ، فيما أعانيه ، عرفت أنه امرأة . . .

أفى ذلك تتريب ؟ أم منه تتعجب ؟

امرأة هى السبب كل السبب !

شخص آدمى تافه كهذه الألوف المؤلفة من الخلائق التى تزدهم بها
الأرض ازدحام الشقوق بمجافل النمل .

ولكن أتافهتُ هذه المرأة حقاً ، وقد صيرتني إلى هذه الحال التي
أكابدها بين مَضِّ الآلام ووطأة القيود ؟
قد تكون امرأة غامضة معقّدة ، تزخر بقوى عارمة .
وقد تكون ضحلة لا استعصاء فيها ولا عمق ، ولكنها تصوّر رأتى
وأخيلتى هي التي حاكّت حولها تلك الأنفاس من ذلك التعقد
والغموض .

أأكون قاسياً عليها ، عنيفاً بها ، مسرفاً في الظلم والتجني ؟
يا طالما رثيتُ لها ، يا طالما أنحيتُ باللائمة على نفسى من أجلها
أما اليوم ، فما أشوقنى إلى أن أعتقد بأنى كنت لها ظالماً ظلماً بيننا
لا ريب فيه .

ما أحبّ إلى أن يكون ذلك !
إذن لتخلتْ عنى آلامى ، ولأتراحتْ عن نفسى عُقَّتى .
حقاً هي التي أسلمتني إلى ذلك السجن الخانق الذي أفتى فيه .
ولكن أليس لها أن تقول إنى أنا الذي حرمتها متعتها في الحياة ؟
كلانا علةُ عذاب الآخر ، ومصدر بلائه !
وكل ذلك من جرّاء ما يسمونه « الحب » ... ذلك الطائش الأخرق
الذي يخيّط خيوط العشواء ، ويصبُّ الغارة الشعواء !
كلانا يفنى وجداً بصاحبه ، وكلانا يذوب جهداً في التكيل به .

أما حبي إياها فحق لا يشوبه خلاف .
 وأما حبها إياي فإنه على مثل ذلك يقيناً وقوة .
 أشهى ما تشبیه نفسي أن تلنحم شفاهنا في قبلة متضرمة ، تحتنق بها
 أنفاسنا معاً . . . قبلة نشف بها زبدة النعيم ، فتسلمنا إلى راحة الأبد .
 أجل ، قبلة الموت ... هي غاية ما أصبو إليه . . . وأكبر اعتقادي أن
 صاحبتي تشركني في هذه الأمنية الغالية !
 قبلة الموت ...

أمنطق عاقل هذا ؟ أم هذيان مأفون ؟
 إليك قصتي ... ولك مقطع الرأي ، وفصل الخطاب .
 كنت طبيباً نابهاً في مهنتي ، تفد على أفواج المرضى ، مختلفة الطبقات
 والأنواع ، من رجال ونساء .

وكانت النساء ضروباً وأفانين ، بينهن الملاح اللواتي يتصوّأن وسامة
 ويتصوّغن فتنة ، ولكن عيني لم تعلق بإحداهن يوماً ، وقلبي لم يخفق
 لواحدة منهن لحظة .

ومن بين هؤلاء من بثّني لى شبائك الحب ، بيد أني رددت هذه
 الشباك في غير عناء ، ولم تطفر مني إلا بنظرة إشفاق .
 وليلة دُعيت إلى عيادة مريض ذرف على الستين ، قيّد الشلل أوصاله .
 في تلك الليلة ولدت المأساة !

لهذا المريض زوج ما إن رأيته حتى بدت لي كأنها الصورة الجامعة
لغتان الجمال ، الصورة التي كنت أنشدُها دون وعي وقصد في مخيلاتي وفي
وليجة نفسي ، الصورة التي تؤلف عندي المثل الكامل لجاذبية الأشياء .

أستطيع أن أوكد — دون تهيُّب — أن هذه الإنسانية وحدها الخليقة
بالحب دون سائر النساء ، بل إن الحب نفسه ما كان إلا لها ، وبها خلق
إلا من أجلها .

لا تنتظر مني أن أوأتيك من وصفها بما يصور لك فتنها ، وما يقوم
برهانها على صدق تقديرى لها .

فإن ألححت في أن أصفها لك ، فلست بقادر على أن أنيلك
بُغيتك إلا بشيء واحد ، هو أن تشقَّ صدرى ، وتفرق بين ضلوعي ،
فتنتزع من مكانه قلبي ، لتبين فيه من فورك صورة من أحببت
مائلةً كاملة .

آنست من صاحبتى رُوحَ استجابة لعاطفتي . . . فكثيراً ما أخذتُ
بيدى ، بعد عيادة زوجها المريض ، إلى حجرة مجاورة ، تطارحنى الحديث
في تلطف ، وتناقلى النظرات في عذوبة وصفاء .

لا أدري على وجه الدقة : كيف توضَّح بيننا هذا الحب ، واستبان
لكل منا لواعجه ؟

ثمّة مقدمات . . . ليس من ذلك بد !

وثمة تطورات . . . ليس في ذلك ريب !
 هنالك نقطة بدء ، وهناك سلسلة مشاهد . . . هذا كله لا مَعْدَى
 عنه ، ولا نزاع فيه !
 إن أحداث الحب بين العشاق في ترتيب فصولها ، وتساوق مشاهدتها ،
 والخلوص إلى النتائج من المقدمات ، شأنها شأن الروايات والمسرحيات
 سواء بسواء .

هذا قول منطقي أصيل ، وهذا ما كان في مأساتي . . .
 ولكنني أقف عاجزاً عن أن أكون راوية لقصة حي .
 الروائي الفطن هو الذي في مقدوره أن يصوغ هذه القصة في أسلوبها
 الطبيعي وجبكتها الفنية ، مسبوكة الأطراف ، مُسَلِّمة الأوصال .
 ذلك شأن الروائي الناجح ، فأما أنا فَمِنْ أين لي أن أكونه ؟
 أحبُّ ناجح أنا حتى أتطاول إلى هذا المقام ؟
 أبقيتُ لي بقية من فطنة وتدبر ، حتى أصوغ قصتي موفورة الخط من
 التساوق والتناسق ؟

ألم أقل إني مجنون ؟ أو على الأقل مغلوب على أعصابه ؟
 أينما كان أسبق بالحب لصاحبه ؟
 أحببتها أنا بادئاً ، فشعرت هي ، فاستجابت ؟
 أم أحببتني ، كحبي لها ، فتلاقينا على هوى ؟

وأى شأن لهذا البحث والتمييز؟

الجدير بالذكر في هذا الصدد أني لم تكذب زوراً في ذلك البيت تتعاقب ،
حتى كنت أنا وصاحبتي في حبائل غرام عنيف . . .

أيسوغ لي أن أعترف بأن هذا الحب كان وصمةً آثمةً في جبين المهنة
التي شرفتنني بالانتساب إليها ؟
ليكن الأمر كما يكون .

فهما يختلف الرأي والتقدير ، فإن هذا لا يغير شيئاً من « الحقيقة
الواقعة » .

تَشيعُ في المجتمع ألفاظ يتشدد بها الناس ، ويحطون بها باللات من
الإكبار والتقديس .

وإن المجتمع ليتخذ في هذا الصدد لبؤس طاغية حاكم بأمره ، يشرع
الحلال والحرام وفق هواه .

فليفعل المجتمع ما يشاء ، وليقرر ما يريد ، وليكن مثله كمثل الأقطاب
الدينيين في العصور الوسطى ، هؤلاء الذين ادَّعَوْا لأنفسهم القدرة على
الإباحة والحظر ، والمنح والحرمان . هؤلاء الذين حَسَبُوا أنفسهم قُوَّاماً على
أبواب الجنة ، يبيعونها لمن يهْوُون بالشَّبَر والذَّرَاع !

هل أفلح أولئك الحاكمون المسيطرون في أن يغيروا مَجْرَى الحياة ،
ويُحيلوا طبائع الناس ؟

إن الدنيا لتسير وتَمْضِي في سيرها ، لا تعباً بشيء ، ولا يتعاصى
عليها شيء !

إن كان ثَمَّة من حاكم يأمر فيطاع ، وينهى فيردع ، فما ذلك
إلا القدر... ذلك هو المسيطر الغلاب ، تعنو له الجباه ، وتخضع له الجبابر !

لماذا أُنسبُ جانياً فيما كان مني ؟

ألسنُ مسيراً مُجبراً ، تزجني يدُ القدر ؟

ومن ذا الذي يردُّ القدر المُتاح ؟

ربما كنتُ في أعين الناس موصوفاً بالندالة والخسَّة ، على حين أني
أراني لم أتعُدَّ حدّاً ، ولم أستجبْ إلا لنوازعٍ طبيعيةٍ لا طغيانَ فيها
ولاشذوذ ، نوازع الاستمتاع بما وهبني إياه الحياة من قُوَى وحرِّيات .

يخيّلُ إليّ أني أسمع همسات سخرية وازدراء ، وهمهمات تعجبٍ
وإشفاق ، وكأنني أتبين فيما أسمع قول قائل :

وَيْحَهُ من مخبول !

إن المخبول ليتابع حديثه غير لاولٍ على لَوَم ، فيفيضُ في هذيانه
ما وسعه أن يفيض . . .

كانت ساعاتُ الصفاء التي أختلسمها مع صاحبتى ، نقضها دائماً في
الحجرة المجاورة لحجرة الزوج العليل .

كنا نجلس تغشانا رُوحٌ غريبة من الحذر : قلب واجف ، نظرة قلقة ،

سمع مرهف لأقل نبأ ؛ على حين تشابك أيدينا ، وتواصل أعيننا ،
وتتراسل شفاهنا حيناً بالحديث همساً ، وحيناً باللثم حطفاً .

وكانت صاحبتى هى التى توحى بأن تكون اللقمة على هذه الحال ، بل
إنها لتُصرُّ على أن تكون عن كَثَب من زوجها ، لا تفصلهما إلا خطوات ،
مع أن الدار كثيرة الحجرات ، تتوافر فيها الخلوات التى لا تبعث قلقاً
ولا تثير ريبته .

ولشدَّما ضِقتُ ذرعاً باللقاء على هذا النحو . . .

فيم هذا الحَجَر على العاطفة ، والإجراج للنفس ؟
لِمَ تتلاقى ، على رأسينا سيفٌ مُصلَّت ، ينهانا أن نتحرك إلا بمقدار ،
وأن ننسِ إلا بحساب ؟

أرأيتَ إلى أناس تُظِلُّهم حربُ شِعاء ، ولا يطيبُ لهم أن يقيموا
ولائمهم إلا فى العراء ، والطائراتُ من فوق رءوسهم محلقةٌ منذرةٌ بالشر ،
فهم يتناولون طعامهم على ترقبٍ وتخوفٍ ، وكان فى مكنتهم أن يفرَّعوا إلى
المخابئ الكَمِينَةِ ، والمعازل الحصينة ، يستمرئون فيها طعامهم آمنين ؟

ذلك مَثَلُنَا نحن فى ولائنا الغرامية التى تحلُّق فى سماها الخفيفةُ
والتوجُّس ، لغير ضرورة قاضية !

حَسْبُ الزوج أن يسْئَلَ سَعْلَةً ، أو يبعث من فراشه نائمة ، لكى
تحتبسَ منا الأنفاس ، ويشملنا انتفاض .

ولقد كنتُ في هذه الساعات المشوبة أنظر إلى صاحبتى ، فأتبين في
مُحياها إشراقاً وهاجاً يشِف عما تحيش به نفسها من نشوة ليس
وراءها نشوة .

أما أنا فقد كنتُ في بعض الأوقات يشتدُّ بى الضيق ، فأتبها للنهوض ،
هامساً في أذن صاحبتى :

فَلَا رَحْل . . . فَلَا رَحْل . . .

فتحدِجنى ببصرها وهى تتغيَّظ ، كأنما تقول :

لقد عكرت على صفو نشوتى !

فلا أرى مناصاً من الإذعان لرغبتها في إطالة الجلسة معها ، على ذلك
النحو المقيت .

ومن عجيب أمر هذه الإنسانية المعقَّدة ، أنها على الرغم من هيامها بى ،
وإعزازها لى ، كانت بادية العطف على زوجها العليل ، وكان عطفها محضاً
لأرياء فيه ولا تصنع ، تسهر على راحته ، وتوافيه بأسباب العناية والتعهد ،
وتبدل في ذلك منتهى الوُسع ، لا تألو جهداً في تمرير وعلاج ، وإعداد
للطعام والشراب ، حتى إنها لم تكن تبارح الدار إلا قليلاً . . . كل ههما
مصروف إلى تدبير شئونها المنزلية على خير وجه وأهدى طريق .

وكثيراً ما رأيتهما وهى بجانب زوجها ، على حافة السرير ، توسده
صدرها ، وتلاطفه في حنوٍ وولاء ، وتدله كأنه طفلها الأعز . فأراني قد

نارت بنفسى غضبة وحنق ، فتلحظ ذلك فى نظرات عيني ، فما إن تختلى
بى فى الحجرة المجاورة ، حتى تبادر إلى سمعى ، تُسرُّ إلى قولها :
أراهنُ على أنك غيور !

— أبعَدَ ما رأيتهُ تطليين منى ألاَّ أغار ؟

— أتخشى على مكانك من قلبى ؟

— إن القلب لا يتسع إلا للحبيب واحد .

— كنت أحسب أنك أحكم وأحزم من التأثير بهذه الأمثال الشائعة !

— تريدن أن تسفهى قولى ، وتزيفى رأيى ؟

— وأنتَ ؟ ... إنك دائماً تريد بتلك المقاييس التافهة أن تُسَفِّهَ

حبنى ، وتزيفى عاطفتى ! ... لقد صدقَ حدسى فى مبلغ حبِّك إياى !

— أتجرئين على التهوين من شأن حبنى ؟

— إنك تحبُّ كما يحب سائر الناس .

— وكيف تريدننى أن أحب ؟

— كما أحبك أنا !

— ناشدتكِ الله أن تخبرينى : كيف تحميننى ؟

— تسألنى كيف أحبك ؟ تسألنى كيف ؟ أليس لك طاقةٌ بالمشفاف

حبنى على أى نحو يكون ؟ إنك لا تفهمينى ، ولن تفهمى ما حَيِّت !

وأقفُ قبالتها ، وهى تلفظ هذه الجملة ، ووجهها الفاتن تنطقُ قِسماته

بالإخلاص في القول ، والجِدِّ فيه . . .
 وإني لَأَقْرُبُ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِي بَأْنِي لَمْ أَوْتَ قُدْرَةَ عَلَى تَقَهُمِ كُنْهٍ هَذِهِ
 الْمَرْأَةِ ، وَاسْتَبْطَانِ مَا فِي نَفْسِهَا مِنْ تَعَقُّدٍ وَاسْتَعْصَاءٍ !
 وَأَسْمَعُهَا تَقُولُ :

حَسْبُكَ فَاتْرَكْنِي . . .

فَأَشْعُرُ كَأَنَّ نِيَاطَ قَلْبِي تَتَمَرَّقُ ، وَأَهْوَى عَلَى يَدَيْهَا أَسْتَغْفِرُ .
 وَعَلِمْتُ يَوْمًا أَنَّهَا سَافَرَتْ إِلَى « الْإِسْكَندَرِيَّةِ » فِي مَهْمَةٍ مِنْ خَاصَّةِ
 شَأْنِهَا ، عَجِبْتُ لَهَا :

لِمَا لَمْ تَنْشَأْ بِأَمْرِ هَذِهِ السَّفَرَةِ ؟

وَلَكِنِّي قَدَّرْتُ أَنَّهَا فُوجِئَتْ بِبَاعِثِ السَّفَرِ ، فَلَمْ تَمْلِكْ إِبْلَاغِي .
 وَقَفَّوْتُ أَثَرَهَا إِلَى « الْإِسْكَندَرِيَّةِ » وَأَنَا أُمْنِيَّ النَّفْسِ بِخَلْوَةِ صَافِيَةِ
 هَانِثَةٍ ، فِي نَجْوَةٍ مِنْ بَيْتِ زَوْجِهَا الْمَرِيضِ .
 إِنَّهَا الْمَرَّةُ الْأُولَى الَّتِي أَنْعَمَ فِيهَا بِجَوْ هَادِيٍّ ، لَا تَغِيْمُ سَمَاوَهُ بِرَعْبٍ
 وَلَا حَذَرٍ .

وَقَصِدْتُ مِنْ فَوْرِي فَنَدَقَ « وَنْدَسُور » إِذْ كَانَ فِيمَا عَلِمْتُ مَثْوَاهَا
 الْمَفْضَلَّ ، كَلِمًا سَافَرْتُ إِلَى الثَّغْرِ .

وَلَمْ أَكْذِبْ بَيْنِي ظَنِّي . . . فَقَدْ كَانَتْ هُنَاكَ .

وَطَرَفْتُ بَابَ حَجَرَتِهَا ، ثُمَّ دَخَلْتُ فَأَلْفَيْتُهَا عَلَى وَشِكِ الْخُرُوجِ ، فَلَمَّا

وقع بصرها علىّ ، بدا على مُحيّاها دهش وتجهّم ، وقالت :
أنتَ ؟

— أساءكِ قدومي ؟

— ماذا جاء بك ؟

— عجيب أن تسأليني ...

— لم أطلب منك أن تتقدّم ، فلمَ فعلت ؟

— وهل تحسّدينني أنقل خطاي وفقّ أمرك ونهيك ؟

— كان عليك أن تحترم رغبتى !

— ورغبتى ... ألا احترام لها ؟

— لو تبصرت فى الأمر ، لعلمت أن رغبتى ورغبتك تلتقيان !

— بل إنك لتفرقين بينهما جهد مستطاعك ...

— ما أشدّ مضايقتك لى بهذا الجدل !

— لقد باغتتني منك هذا الاستنكارُ لقدومي ... أى جريرة فيما

صنعتُ ؟ إنها لفرصة فريدة طيبة أتيتحت لنا ، فما بالك تائبينها ؟

— ما زلتَ تلوّكُ منطق عامة الناس !

فتأر غيظى ، وقلت :

لم يهينى الله إلا ما وهب الناس من منطق ، فإذا تطليبن أنت ؟

— إني ليؤسفنى أن أسمع منك ما سمعت !

— وإني ليؤسفني أن أقرك بعجزى عن الرقى إلى أبراج أفقك
الرفيع !

— إنك تتوخى طريق المشكلات بسوء تصرفك ... تقوضُ صرحَ
الحلم الجميل الذى نعيش فيه !

فصمتُ برهةً أهدق فيها ، تتنازعنى مشاعر حنق وألم وتحيير .
ثم صحتُ :

أتأبى أن أقضاء وقتى معى فى هذا البلد ؟ أو جِزى الجواب !
فرفعتُ رأسها فى عزة ، وقالت :

أرفض ذلك !

— ألى أن أسأل لماذا ؟

— وتسانلى لماذا ؟

— ألا يحقُّ لهذا الغبى المتشرف بالثول أمامك أن يستوضحكِ أمراً
عزبَ عن فهمه البكيل ؟

— لستُ ممن يُعَنِّينَ بتفطين الأغبياء !

فصرختُ ، وقد جاوزى الغضب حدَّ التماكُّ :

كفى منك هذا الغرور ... اسمعى ! ... هذه آخرُ مرة ألتاك فيها ... إنها
فراق بينى وبينك !

ورأيتها صامتةً كالتمثال ، ويداها معقودتان على صدرها .

فأستأنفتُ أقول ، وأنا أضرب المنضدة بِجُمُعِ يدي :

هل عندك من جواب ؟

فندتُ عن التمثال حركة واحدة : اليدُ مشيرةً إلى الباب !

ووجدتني أُمِرُقُ مروق السهم ، وأنا أتنفض انتفاضةً محموم ، وأقسمتُ
أن أفصِّمَ العلاقة بيني وبين هذه الإنسانية التي لم أجن من ورائها إلا فنون
العذاب ...

واستبان لي في هذا الوقت عَظُمُ الوِزْرِ الذي اقترفته في حق مريضى
الشيخ الذي أعوده .. كيف طوَّعت لي نفسى أن أستنيم لهذه الدَّائِيَّة ؟
وما وصلتُ إلى « القاهرة » حتى كلفتُ المَرَضَ أن يتصل بمنزل
الزوج المريض ، ويُنهيَ إليه أنى موعوك ، وأنى أنبتُ أحدَ زملائى
الأطباء في مواصلة العلاج والإشراف .

وكنت أقطع وقتى في استقبال زُوَّارى من المرضى ، وأنا أستسلم للعملِ
محاوِلاً أن أستغرق فيه ، متناسياً جهدى ذلك الحبَّ الأثيم ، ولكن كلما
صلصل « التلفون » هُرِغْتُ إلى المِسْمَعَةِ بنفسى ، لا أدع المَرَضَ يسبقُننى ،
وفي نفسى تعتلج هِزَّةُ الارتقاب لصوت معين ... بيد أن هذا الصوت
نَبَأَ عَنى ، وعَزَّ على !

وتوالت الأيام ، وأنا على تلك الحال ، أشعر وُثْداً بأنى قد هدأتُ شيئاً ،
وأنى فى الطريق إلى الخلاص من أعقاب تلك العاطفة الجُمُوح

ولقيتُ يوماً في طريق الطيب الذي أنبته عني في علاج الزوج الأشلّ ،
فأخبرني بسير العلاج ، وحالة المريض ، ثم ما لبث أن أشاد بتلك الزوجة
السّمحة العطوف ، وبما وهبت من فتنه ووسامة .

واقترقنا وأنا أحسُّ ضيقةً يتنزّى بها صدرى ، وقضيتُ يومى مهتما
مكتئباً ، لا تجدى الوسائل في الترفيه عن نفسى .

وَبُكْرَةً طلبتُ صديق الطيب فى « التلفون » فشكرتُ له عنايته
بالمريض ، وأخبرته بأنى قد تخلصتُ من شواغلى ، وأنى مستأنفٌ إشرافى
على مريضى ، وما أسرع أن جذبتُ حقيقتى ، وقصدتُ تلك الدار المنشودة !
لماذا أقدمتُ على ذلك ؟ .. لستُ أدرى !

وما إن بلغتُ الدار ، حتى شعرتُ بأن أوصالى يعرفونها انتفاض ،
لا أعرفُ أمِنَ ألمٍ هو أم من ابتهاج ؟

وَيَمَّمْتُ حجرة المريض ، فألقيتُ الزوجة فى مكانها المختار من السرير تدلّل
زوجها ، وتحوطه بعطف وإيناس . وما إن رآنى المريض حتى تهلل وجهه ،
ترحيباً بى . وأما الزوجة فقد حيّتنى تحية مألوفة فى أدب . وسرعان ما أتممتُ
الفحص ، وأوصيتُ بالعلاج ، وخرجتُ أنا والزوجة إلى الحجرة المجاورة .
يا لله من هذه الحجرة البغيضة الحبيبة !

يُخَيِّلُ إِلَى أنى أقرأ على حوائطها تاريخَ ذلك الغرام العجيب ،
مسطراً بأحرف بارزة !

كأثما لهذه الأحرف أبواق تنطق ، فتُسْمَعُ ذلك التاريخ ، مجلجلة
الصوت ، قوية الرنين !

ووجدتني أَسْتَأْنِي في سيري ، وسمعتها تقول :
أهنتك على سلامتك من وعكتك .

فقلت لها ونظراتي تنحرف عنها :
أتهزئين بي ؟

— وفيم الهزؤ ؟

— تعلمين أني لم أكن بموعوك ...

فربت كتفي ، وقالت مبتسمة :

بل كنت موعوكا .. هذا ما تتفق عليه . وإنما الخلاف بيننا على وصف

الوعكة ، وتسمية المرض !

— أ كنت تحسبن أن وعكتي تُزْمِن ، أم كنت تقدرين لها قريب زوال ؟

— الذي أَسْتَيْقِنُهُ أنك لا بد عائد !

— أما كان في حسابك أن تنتهي بي الوَعْكَةُ إلى انقطاع ؟

— ما كنت لتتقطع ، ولك نائبٌ عنك يطرق الدار ..

— أي أثر لذلك ؟

— ثمة شيء يسمونه الغيرة يا صاحبي ... الغيرة الكاوية .. وقانا

الله لَفَحَهَا !

وأخذتُ بيدي تلافيفي ، فقلت :
 تخطئين الحُدُسَ والتقدير... لقد أصبحتُ اليومَ سيدَ قلبي ، وما جئتُ
 إلا لأثبتَ لك هذه الحقيقة ... لن يعنُو قلبي لذل الهوى !
 وخطتُ بي إلى ركننا المعهود ، وهي تقول :
 أنتَ على حق !

— وسأضع لهذه العلاقة حَدًّا .
 — لا تعجلْ ، فالأيام رَهْنُ مشيئتك ، أما الآن ...
 — الآن ؟

— سأحتفل بِمَقْدَمِكَ !
 — ماذا تقصدين ؟
 — أتأبى أن أحتفى بحضورك بعد غيبة ؟ إن هذا لا تأثير له فيما تعترزم من أمر .
 ورأيها تُخرج من صِوَانٍ في الحجرة صينيةً عليها قارورة أنيقة
 وكأسان ...

فقلت متعجباً :
 شهبان يا ؟
 — شراب لذيد ، فيه خفة وصفاء !
 وطرقتُ سمعى سَعلة الزوج ، فأمسكتُ بيدها أرذها عن صَبِّ الشراب ،
 وأنا أقول :

لا ... لا ... لن يكون ذلك !

فَنَحَّتْ يَدِي فِي لُطْفٍ ، وَأَتَرَعَتِ الْكَأْسِينَ ، وَقَدِمْتُ لِي كَأْسِي ،
فَكَدْتُ أَقْدِفُ بِهَا ، وَلَكِنِّي وَجَدْتُ صَاحِبَتِي تَشْتَفُ كَأْسَهَا دَفْعَةً
وَاحِدَةً ، وَقَدْ التَمَعْتَ عَيْنَاهَا ، وَتَوَرَدَتْ وَجَنَتَاهَا ، فَإِذَا أَنَا أُتَوَسَّمُهَا مُتَمَلِّيًا
مِفَاتِنَهَا الْحِسَانَ .

وَأَحْسَسْتُ كَأَنِّي أَنَهَلُ بِعَيْنِي كَأْسًا أُخْرَى أَغْلَى وَأَمْتَعَ مِنْ تِلْكَ
الْكَأْسِ الْمَتَرَعَةِ فِي يَدِي ... ثُمَّ هَمَمْتُ :
أَيَّةُ إِنْسَانَةٍ أَنْتَ ؟

وَكُنْتُ عَيْنَاهَا مَعْقُودَتَيْنِ بِعَيْنِي ، فَأُجَابَتْ فِي صَوْتِ الْحَالِمِ :
حَقًّا لَا عِلْمَ لِي ... لَكَ أَنْ تَقُولَ مَا فِي نَفْسِكَ ، وَإِنِّي لَشَيْقَةٍ إِلَى
أَنْ أَسْمَعَ !

وَتَدَانَتْ مِنِّي ، حَتَّى أَحْسَسْتُ بِأَنْفَاسِهَا تَتَلَاقَى بِأَنْفَاسِي ، وَقَلْتُ
فِي هَمْسٍ :

أَشْعُرُ فِي بَعْضِ الْأَوْقَاتِ أَنَّكَ لَسْتَ آدَمِيَّةً مِنْ طِينَةِ الْبَشَرِ ... لَكَ أَنْكَ
حِينَ قَبَسَتْ مِنْ نَارِ الْجَنِّ ، وَتَارَةً نَهَلَتْ مِنْ طُورِ الْمَلَانِكِ !
وَرَأَيْتُنِي أُعَبُّ الْكَأْسَ عَبًّا بِلَا وَغَى ، وَسَمِعْتُهَا تَهْنِئُ :
هَبْنِي مَلَكًا أَوْ هَبْنِي شَيْطَانًا ، أَلَا تُقَبِّلُنِي ؟
وَمَا هِيَ إِلَّا أَنْ اسْتَوْعَبْتُهَا بَيْنَ ذِرَاعِي ، وَغَيَّبْتُهَا قَبْلَةَ عَارِمَةٍ .

وَنَدَّتْ مِنْ حَرَكَةِ أَطَاحَتْ بِالْمَنْضِدَةِ وَمَا عَلَيْهَا ، فَانْصَدَعَ السُّكُونُ الشَّامِلُ
بِصَوْتِ مَفْزَعٍ ، وَانْتَهَى إِلَى أَسْمَاعِنَا قَوْلُ الزَّوْجِ الْمَرِيضِ :

مَنْ ؟ مَنْ ؟

فَأَنْصَتْنَا وَقَدْ بَلَغَ مِنْ الرَّوْعِ غَايَتَهُ ، وَاسْتَأْنَفَ الْمَرِيضُ يَقُولُ مُتَمَلِّمٌ
الزَّهْرَاتِ ، مُتَلَحِّقَ الْأَنْفَاسِ :

مَنْ ؟ مَنْ فِي الْحَجَرَةِ ؟

وَحَرَسَتْ الْحَجَرَةُ لَا تُجِيبُ !

كُنَّا لَا نُذِينَ بِصَمْتٍ لَا ذِعَ جَيَّاشٌ .

وَتَابَعَ الْمَرِيضُ صِيحَاتِهِ الْعِجَافَ ، وَأَحْسَسْنَا بِهِ يَتَحَرَّكُ ، كَأَنَّمَا يُحَاوِلُ
أَنْ يَنْهَضَ ، وَإِذَا بِالزَّوْجَةِ تَنَفَّلَتْ مِنْ بَيْنِ ذِرَاعَيْ ، وَتَدْفَعُ بِصَيِّنَةٍ
الشَّرَابِ ، بَعِيداً عَنْ مَوَاقِعِ النَّظَرِ ...

وَاسْتَبَانَ سَمْعِي حَرَكَةَ جِسْمٍ فِي الْحَجَرَةِ الْأُخْرَى يَتَقَلَّقُ ، وَقَدَّمَ
تَدَبُّرَ مُتَخَاذِلَةٍ ، وَعَصَا تَدَقُّ الْأَرْضَ وَاهِيَةً ، وَأَنْفَاسٍ مَكْرُوبَةٍ
تَغَالِبُ الْإِجْهَادَ .

وَوَجَدْتُ الزَّوْجَةَ تُمْسِكُ بِيَدِي ، وَتَدْفَعُ بِي تَحْتَ الْمُتَسَكِّ ، قَائِلَةً :

هنا ... هنا ...

فَانْتَابَتْنِي أَخْلَاطُ مِنَ الْخَزْيِ وَالرَّعْبِ وَالْارْتِبَاكِ ، تَنْتَهَبُ نَفْسِي ،
وَتَتَقَسَّمُ تَفَكِيرِي .

وازداد خَفَقَ القدم ، ودَقَّ العصا ، مِنْ وضوح ... ووجدتني تحت
 المتكأ أتكش وأتجمّع ، لا أملك من إحساسى إلا أذناً تصغى .
 فأما الزوجة ، فما أسرع أن تمددت على المتكأ في سكون .
 ودَلَفَ الزوج إلى الحجرة ، وهو يقول :

ماذا ؟ أنتِ هنا ؟ لقد ناديتُ فلم يلبَّ ندائى أحد .
 — معذرة ، مَلَكْتَنِي إغفَاءة .

ونَهَضَتْ إليه ، تُعِينُهُ في خطوه ، واستأنف الزوج يقول :
 لقد فَرَّغَني صوت انبعث من الحجرة .

— ربما كانت قدمي دفعتُ بالمنضدة ، وأنا في سِنْدَقِ نومي .
 وسكنت لحظة ، ثم وأصلت قولها حانيةً عليه ، تقول :

لماذا حملتَ على نفسك وتركت الفراش ؟ شَدَّ مَا تشغل بالك بأتفه
 الشؤون ! ...

وما زالت به حتى أدنَّته من المتكأ ، حيث كنتُ أجلس ، فأحسستُ
 المريض يتداعى بجسمه الأثقل ، وأقبلتُ عليه زوجه تلاطفه وتضاحكه ...
 وسمعتُهُ يقول :

أخزى الله الشيطان الوسواس الخناس !
 — ماذا ؟

— لا شيء ... لا شيء .

— صرّح لي بما في نفسك .

— إن أعصابي متهافنة ، فلا عليك .

وتناول يدها ، يقبلها وهو يردد :

لولا وجودك معي لما حلا لي طعم الحياة ... ولولا أنت لما صبرتُ
على ما أنا فيه ... ولكن أكبر ما يؤلّني ما تقاسينه من عناء معي ! ...
ما ذنبك في هذا كله ؟

— أى عناء ؟ ألم أحرّم عليك أن تُخَطِرَ ببالك شيئاً من هذه

المواجس ؟

— كلما وقع بصرى عليك ، وتجلت لي وسامتك وشبابك ، أراى
مهموماً من أجلك ... إنك لتبذلين في سبيلي أعزّ ما يبذله إنسان !

— أقسم لك إني راضيةٌ بعيشي معك ... لا ضيق ولا ضجر ...
وإني لا أمنيّة لي إلا أن أراك مطمئن النفس ، خالي البال .

وأطبق الصمت على الحجرة ، ثقيل الوطأة ، فأحسستُ في محبّسى
أن شيئاً يجثم على صدرى ، فيُخمد أنفاسى .

وسمعتُ المريض يقول ، مهزول الصوت ، راعش النبرات :

والطبيب ؟

فأجابته الزوجة ، فى لهجة تذوب رقة :

الطبيب ؟ ألك به حاجة الآن ؟

— أقصد ... أقصد ... لا شيء ! لست بحاجة إليه .
 وشعرتُ بأن المريض يَلُمُّ شَعْنَهُ ، ويتأهب للنهوض ، فقالت الزوجة :
 ألا تستوفى قِسْطَكَ من الراحة ؟ .. ابقَ جالساً ... لن أدعَكَ
 تمضى الآن .

— لماذا ؟

— أنت الساعةَ ضيفي ، وقد سَعِدَتْ بِمُقَدِّمِكَ حجرتي ... فقد
 امتدت عنها غيبتُكَ ، وطال شوقُها إلى زورتِكَ .
 فتهد قائلاً :

حقاً ، غبتُ عنها طويلاً ... منذ أمد بعيد لم أجتلِ هذه المناظر ...
 إنها لتبعث في نفسي ذِكرياتٍ أُوَيِّقات هائلة ، قضيناها معاً في هذا الركن
 الأنيس ، ركننا المختار .

— من أجل هذا رغبتُ إليك في أن تطيل جلستك .

ثم نهضتْ ، وهي تقول :

لك عندي مفاجأة .

— أية مفاجأة ؟

ولمحتُ قدميها الدقيقتين تتحركان نحو الصَّوَّان ، وماهى إلا أن أخرجتْ
 أشياء ، قصدتُ بها إلى المنضدة ، فرتبتها عليها . . . وصاح الزوج :
 ماذا ؟ شبنانيا ؟

— احتفالا بزورتك نحس كآسين .

— وهل كنت تتوقعين قدومي ؟

— إني أنتظر هذه الزورة وأعدُّ لها العدة منذ وقت مديد ، فلنشرب
على صحتك ... ولكن لن أصبَّ لك إلّا ملء ربع الكأس ... لا يُجيز لك
الطبيب إلا هذا القدر .

وسمعه يههم :

الطبيب ؟ ... متى ترك الدار ؟

— بعد أن ذهب إلى المطهى كعادته ، وتقَدَّ طعامك . إنه دقيق في
إشرافه وتعهُده .

— إني أتبع نصائحه ، لا أُحيد عنها .

وجعلتُ تصبُّ الشراب في الكآسين ، ثم ما لبث الزوجان أن أخذَا
يتشرّفان ، وهما في مصافاة ومؤانسة ، على حين أني كنتُ في محبسى أكاد
لا أستطيع إمساك الرّمق ...

أعفني من أن أصور لك : على أيّ نحو انتهى بي هذا المشهد .

كيف عاد المريض إلى مرّقه ؟

كيف انطلقتُ من محبسى أواجه الزوجة ؟

كيف زائلتُ الدار ؟

ذلك حلم مُهوّش أليم ، تشابكت أحداثه ، ومشى بعضها في بعض ،

فلم أملك لها تفصيلاً .

مُجَمَّلُ أُمْرِي أَنِّي تَرَكْتُ الدَّارَ مَحْمُومًا ، أَحْسُ كَأَن شَرِيَانًا فِي رَأْسِي
عَلَى وَشْكِ الْانْفِجَارِ .

وَمَا بَلَغْتُ بَيْتِي ، حَتَّى اسْتَعْنْتُ بِمَخْذَرٍ قَوِيٍّ يُسَلِّمُنِي إِلَى تَبَلَدِ وَسْبَاتِ .
وَفِي صَبِيحَةِ غَدَى ، عَقَدْتُ نَيْتِي عَلَى أَلَا أَعُودُ إِلَى هَذِهِ الْإِنْسَانَةِ
الْعَنِيفَةِ ، مَهْمَا تَكُنِ الْبَوَاعِثُ .

اتَّهَى كُلُّ شَيْءٍ ... اتَّهَى كُلُّ شَيْءٍ !

كَنتُ أَرَدُّ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ فِي عَزَمٍ وَحَزَمٍ ، وَصَلُّصٍ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ
جَرَسِ « التِّلْفُونِ » ، وَإِذَا صَوْتُهَا ، صَوْتُ هَذِهِ الْإِنْسَانَةِ يَقُولُ فِي لَهْجَةٍ
فَرِيعَةٍ يَقْطَعُهَا النَّشِيجُ :

اتَّهَى كُلُّ شَيْءٍ ... مَاتَ زَوْجِي !

مَاتَ زَوْجِيهَا ... كَانَ لِهَذَا النَّبَأِ وَقَعٌ فِي نَفْسِي شَدِيدٌ ... حَتَّى إِنِّي لَمْ
أَسْتَطِعْ مُوَاصَلَةَ الْحَدِيثِ ، وَهَرِغْتُ مِنْ فُورِي إِلَى دَارِهَا .

بِهَذَا يَبْدَأُ فُضْلٌ جَدِيدٌ فِي قِصَّتِي الْعَجِيبَةِ ...

دَارَتْ بِي الْأَفْكَارُ كُلُّ مَدَارٍ ، وَرَحْتُ أَسْأَلُ نَفْسِي طَوِيلًا : كَيْفَ
تَكُونُ صِلَاتِي الْيَوْمَ بِهَذِهِ الْإِنْسَانَةِ ؟ أَقْطِيعُهَا وَنَسِيَانٍ ؟ أَمْ مُوَاصَلَةً وَتَلَاقٍ !
كَيْفَ يَكُونُ شَعُورِي نَحْوَهَا ؟ أَشَوْقٌ وَشَغَفٌ ؟ أَمْ فِتْرَةٌ وَسُكُونٌ ؟

بَدَأْتُ لِقَائِي إِيَّاهَا ، غِيبٌ وَفَاةُ الزَّوْجِ ، لِقَاءٌ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا مَأْلُوفُ الْمَجَالِسِ

والأحاديث ، ولشدَّ ما راعى أنها على زوجها والهة جدُّ محزونة ، حتى لقد أثار ذلك بين جوانحي إحساس ضيقٍ بذكرى ذلك الزوج ... ولكن أضيّق بشخص لم يصبح له وجود ؟ بل لقد أخلى لي السبيل ، لكي أنفذ من أمرى ما أريد ... أليس هو اليوم جديراً بالرَّثاء والإشفاق ؟ حقاً إنه كذلك ، ولكن الزوجة بحزنها من أجله ، وحِدادها عليه ، تجعلني حائراً بين النقائض من المشاعر والأحاسيس !

على أنى لم أكن أدري أية عاطفة تلك التي توحى إلى الزوجة أن تحزن على زوجها الراحل ؟ أهى عاطفة ندم وبقطة ضمير ؟ أم هو الوفاء لمن كان رجلها وشريكها فى الحياة ؟

لم تطل بى الأيام ، حتى انتهت بى الحيرة إلى طمأنينة ورضا بما صنعت الأقدار .

وانصرفْتُ أنجَبُ إلى تلك الإنسانية ، أحاول أن أخترقَ حجاب التحفظ الذى فرضته ملابسات الأحران ، وأعالج أن أثير كوامن حبّها إياى ، فلم أجد منها أى استجابة .

كانتْ فى لبؤسها الأسود ، لا زينة ولا زُخرف ، غارقة فى سهوم ، ضنينة بالحديث ، لا تقابل محاولتى إلا بملاطفة عابرة .

وتواردت الأيام ، تخفف من وطأة الحزن ، وشعرتُ بتلك الإنسانية تُراجع ما انقطع من شئون حياتها المألوفة .

وشرعتُ تستجيب شيئاً لعاطفتي ، فتطارحنى الملاحظات في ابتسام
ساحر خلاب .

وكانت تقضى معى بعض الوقت فى مُستَشْرِفِ الدار ، نحتسى الشاى ،
أو نترشف القهوة ، فى رقة وإيناس . وقد اختارت هذا المستشرف مكاناً
للقاء ، وهجرت ذلك الركن المعهود فى الحجرة المجاورة لحجرة الزوج الراحل
إِبَّانَ مرضه الأخير .

ليس من شك فى أن حبي إياها كان حينئذ يتضاعف ويتضاعف ، وقد
انسدل الستار على كل ما كنتُ آخُذُهُ عليها ، وأنكره منها .
لم أعد أفكر فى شيء من أحداث الغابر .

كانت نفسى مفعمة بأمال وورغاب عذاب ، لا تدعُ لغيرها أن تجد مَفِيضاً
أما هى فكانت فى ظَرْفِها وموانستها آيةً بَيِّنَةً ، وكنتُ أحسُّ أنها
تكنّ لى أعحق الحب وأصدقهِ ، ومن ثم تتضوُّ آمالى ، وتطمئن إلى مستقبلها
المنشود !

يَبْدُ أن هذا الاطمئنان والصفاء كان يعكّره تحفظ بالغ ، تحفُّظُ عذراء
ليس لها بخاطبها عهد .

على أنى لم أملك إلا أن أحترم إرادتها ، ملتمساً لها ألوان التعلّلات
والمعاذير . . .

وكنا أصيلاً فى مُستَشْرِفِ الدار ، تهادى إلينا نفحات من نسيم

الغروب ، وكانت صاحبتى تتخذ مجلسها قبالتى ، وقد أذكى فنتها ما أحاط
 بنا من صفاء وسكون . . . وفى الفينة بعد الفينة يحوم حولها النسيم عابثاً
 بشعرها الموّاج ، فتترسل منه غلالةً تنبسط على جانب مُحَيَّاهَا ، فتبدو كأنها
 لثام هفهاف يتراءى خلف ظلمته الشفافة حُلْمٌ رائع كَمَّاح !
 وتدانيتُ من مقعدها ، ولاطفتُ راحتها ، وأنا أقول :
 ألا تَرَيْنَ الوقت قد حان لأن تؤلف بين قلوبنا برباط أوثق وأبقى
 على الأيام ؟

فنظرتُ إلىّ فى دهشة ، تقول :

أتحسّ أننا فى حاجة إلى مثل هذا الرباط ، لتقوى به ما بيننا من عاطفة ؟
 — أحسّ أن حياتنا تقتقر إلى ذلك النهج المألوف من أوضاع المجتمع
 ونظام الحياة . . . كنا فى عهدنا الأول لا حيلة لنا إلا فى أن نحيا على ذلك
 النحو ، فأما اليوم فقيم هذا التباعد والانفصال ؟
 — ثقب أننى لم أشعر ساعةً ، منذ تعارفنا وربط الحب بين قلوبنا ،
 أننا منفصلان . . .

فجعلتُ أتوسّم يدها رَحْصَةً بَضَّةً ، وأصابعها قانية الأطراف كأنها
 حَبَّاتُ « الكرز » ... وقلت :

الحقُّ ما تقولين ، ولكنك تعينين جانبَ الخيال والعاطفة والروح ،
 فأما الحقيقة الواقعة . . .

فقاطعتني تقول :

أنت تفرق بين ما تسميه عاطفة وخيالا وروحا ، وما تسميه حقيقة واقعة .
ولكن ألا تؤمن معي بأن العاطفة والخيال والروح جوهر الحقيقة ولُبَّاب
الواقع ؟ ... أنت تتحدث في شأن الحب ، أشك في أن حبنا حقيقة من
أعظم حقائق الحياة ؟

وكانت ترسل قولها ، وهي تبعث في الأفق نظرات حاملة ، فَرَبَّتْ يدها
في رفق ، وأنا أقول :

انظري إليّ ، حَدِّثِي في وجهي ... استيقظي يا صديقتي ... تحدّثي إليّ
حديث اثنين لهما في الوجود كيان .

فالتفتت إليّ باسمّة في إشفاق ، وتلاقت نظرانا برهة في نشوة ،
وأحسستُ أني سابح في فيض من نور مُحَيِّاها الأَلَّاق ... ثم أُلْفِيْتُني أدنى
وجهي من وجهها ، وكادت شفاها تنلامس ، ولكنني وجدتها بفتةً
تراجع قائلة :

لا ... لا ...

فنهضتُ على الأثر ، وقد أَصْمَتْنِي كلمتها ... وقلتُ غاضبُ اللهجة :

لم يَبْقَ لي في قلبك حَبٌّ !

فردت هادئة الصوت :

أهذا قولك ؟

— منذ تُؤَوِّفِي زوجك ، وأنا أشعر بأن عاطفتك نحوى لا تعدو جانب المجاملة .

— إنك لتثير بقولك عجبى .

— بل إن موقفك منى لَهُوَ العَجَبُ العُجَاب !

— ماذا تنكر منى ؟

— إنك لَتَأْبِينِ عَلَى كل شيء ، حتى القبله !

— القبله يا صديقى أئمن وأعلى من أن نبتدِلَهَا ... إنها كالزهرة

الناضرة على فَنَنِها الرطيب ، تَبُثُّ الأريج ، فتَفْتِنُ النظر ، وتُنْعَشِ الروح ... أفلا ندْعُها على فَنَنِها تتأَلَّقُ وتتَنَضَّرُ ، فتَلْهَبُ فى نفوسنا الشوق والشغف ؟ أفلا ترى أننا بذلك نستمتع بنشوة جِيَّاشَة ؟

فابتسمتُ ابتسامة استخفاف ، وقلت :

على رِسْلِكَ .. أفندَعُ الزهرة على غصنها دانيةً دون مَسَّاس ؟ أفتظَل

كذلك إلى الأبد ؟

— بل إن لكل شيء إِبَّانَه الموعود !

— ومتى يَحِينُ فى زعمك قطف هذه الزهرة العَصِيَّةِ المنال ؟

— إن الحب الأصيل يجب أن يعرف متى يَحِينُ القِطَاف ... أمَّا أن

تَعَبَثُ الأيدى بالزهر فى كل نَزْوَة ، فذلك امتهان لمتعة الإِقتطاف أى امتهان !

— إني أعرف شيئاً واحداً .. ما دام الحبُّ يتلهبُ وَجْداً إلى القبله

فقد وجب اقتطافها على أية حال .. إن الظمان لا تدبير له إلا أن يرتوى
بالتَهْلَات العذاب !

— أفى حسبانك أن الظمان ينفع غُلته على الوجه الأمثل إذا تيسر له
الماء دون عناء ؟

— هذا هو الوضع الطبيعي للظما والرى !

— ماذا ترى في عطشان بلغ منه العطش كل مبلغ ، ووجد الماء حياله
صعب المنال ، فما زال يجاهد ويكابد ، حتى أصاب منه ما استطاع ، بعد
لأى وإعياء ؟

— لا ريب أنه يشرب ماءه مشوباً بالضيق والعنت .

فقامت إلى حاجز المُستَشرف تهيم بأنظارها في الفضاء ، وهي تهتمهم :

بل إن ذلك هو الذى يُفِيضُ على الرى كل متعة وانتشاء !

فتركت مقعدى ، وخطوتُ إليها أدانيها ، وأنا أقول :

دعينا بربك من هذه الفلسفة الشعرية الشرود ... لومضينا تتطارح

مثل هذه الخواطر لما اتبهينا إلى قصد ... أشفقى على نفسك وعلى ...

لنختصر الطريق ... كلمة أريد أن أقولها قبل أن أنصرف ، ولا أطلب

منك إلا رداً موجزاً صريحاً .

فالتفتت إلى فى ابتسامة سائحة ، وهممت :

قل ما بدا لك .

— إني أَعْرِضُ عَلَيْكَ نَفْسِي زَوْجًا ... فهل تَقْبَلِينَ ؟
 فظلت صامتة تَحْدَقُ في وَجْهِ ، كأنما تريد أن تستجلي ما وراء عيني
 من دَخِيلَةِ نَفْسِي ، واستأنفتُ أَقُولُ :

ما جوابك ؟

— إن أردتَ المصارحة ، فإني لم أُدِرْ هذا الأمر بفكري من قبل !

— ومتى تفكرين فيه ؟

— لا أدري !

— معنى هذا أنك ترفضين ...

— أَسَمِعْتَ مِنِّي كَلِمَةَ الرَفْضِ ؟

— إِذْنِ أَنْتِ تَقْبَلِينَ

— أَسَمِعْتَ مِنِّي كَلِمَةَ القَبُولِ ؟

ووقفتُ حائراً مَغْيِظاً ، أَرْنُو إِلَى حَدِّقَتِهَا ، كأنِّي أَسْبُرُ غُورَ بَرٍّ تَلْهَةٌ
 الْأَعْمَاقِ . ثم وجدْتُني أَقُولُ :

لماذا تعذِبنِي ؟

فأقبلتُ عَلَى مَشْغُوفَةٍ تُمْسِكُ يَدَيَّ وتَلَاظِفُنِي فَرَّقُ وَإِخْلَاصُ ،
 وهي تقول :

قَسَمًا بما بيننا من حُبِّ إِيَّيْ لَمْ أُرِدْ لَكَ عَذَابًا .

— أَيَّ حُبِّ ذَلِكَ الَّذِي تُقْسِمِينَ بِهِ ؟ إِنَّكَ لَتَهْدِمِينِهِ هَدْمًا !

— بل إنى لأعمل جاهدة على الاحتفاظ به صافياً نقياً ، لا تتطرق إليه شوائب الانحلال .

وتقضت أيام دون أن يطرأ على صلتنا جديد .
وظللت أروضُ نفسي على الصبر ، قانعاً من صديقتى بوَدِّها المحض ،
يحدوني أمل في مستقبل سعيد .

وترامى إلى نأْفَزِعتُ له ، ولم تكد تصدِّقه أذنى ، فبَكَرتُ إلى دارها ، وصادقها في المستشرف ، تلهو بالتطريز ... فما لَمَحْتَنِي حتى ضاء وجهها ، وتجلى فيه إشراق ، وابتدرتني بتحيةٍ شَيِّقة ، وهى تقول :
الساعة كنتُ أفكر فيك ، وأحسُّ الشوق إلى رؤيتك ... فهل كان هذا الإحساس هو الذى اجتذبك إلى ؟

فقلتُ ، وأنا أحدِّقُ فيها بِمَجَامِعِ عيني :
أحقاً كنتِ تفكرين في ؟

— أفى قولى تشكُّ؟ أليس فى استطاعتك أن تستمعَ إلى نجوى قلبى ، وتعرف سريرتى ، دون استعانة بما يلفظه لسانى ؟ ... أأكون قد أخفقتُ فى إشعارك بحبى إياك ؟

أصغيتُ إليها واجف القلب ، جَيَّاش الأعصاب ، فوجدتُنى أتخاذل وأستكين . ولكن عاودنى الاهتمام بما جئتُ من أجله ، فاستنقذتُ شجاعتى ، وتمالكْتُ قائلاً :

كيف تزعُمين أنك تحبينني وأنتِ ترمعين اتخاذ غيري شريكاً لحياتك !
فقلت في ثقة و يقين :

أنتَ شريكُ رُوحى الأول والأخير .

— أزعامةُ أنتِ أن نبأ زواجك إشاعة لا صحة لها ؟

فأجابتُ في تمكن و رباطة جأش :

للاشاعة من الصحة نصيب !

فقلتُ لها مشدوها :

إذن أنتِ مقبلةٌ على الزواج بغيري ...

— وماذا يريُّبك من هذا الصنيع ؟

فصحتُ بها :

يجب أن يركب الله في نفسى طبعاً غير طبعى ، وخلقاً غير خلقى ، حتى

أستطيع أن أحيبك عن هذا السؤال !

فأخذتُ تعبتُ بمنديلها لحظة ، وهى ترمى بنظرها إليه . ثم قالت :

يوسفنى أن هناك تفاوتاً كبيراً بيننا فى النظر إلى الأمور ، واعتبار

الحقائق .

— أوكد لك أنى فى لبسٍ وحيرة من شأنك ، فبرِّبكِ أوصحى

وأينى .

فسمتُ إلى بعينيهما ، فبهرنى من حدقتيهما صفاء الألق ينكشف أمام

سواده أسطع الأضواء . وقالت في صوت كَيْن المكاسر :

إني في حاجة إلى رجل يقاسمني عبء هذه الحياة الراتبة . أقصد رجلاً من أولئك الأزواج الذين تقوم عليهم دعائم البيوت ، رجلاً عريضاً أركن إليه ، وأطمئن به ... وقد اخترتُ شخصاً توافرت له تلك الصفات التي أرجوها ... أأست موافقي على رأيي !

فانبثقت من بين شفتي ضحكة ساخرة شوّهاء ، وقلت :

أرجو ألا تحرميني أن أكون شاهداً في عقد زواجك ...

— إنك دائماً تنتزع من حديثي مثيراً لسخرية واستهزاء .

— أيتها الساهر المستهزئ ؟ إنك تتحدثين عن خاطب اليوم وزوج

الغد ، فتُسبِغين عليه أكرم خصال الرجال !

— ما قلته أنا حق .

— وأنا ؟ ماذا أكون في دنياك العجيبة ؟

— أنت ؟ أنت شيء آخر .

— حقاً ... شيء آخر ... على الهامش ... لست أهلاً أن أملأ

حياتك !

— أنت ملء حياتي كلها ، لا تدع لغيرك فيها ناحية .

فصرخت :

هذا هراء كل هراء ...

- خفف من جدِّتك .
- هذا فوق ما أحتمل .
- أفتك هذه الغيرة الحمقاء .
- وأنت يا سيدتى .. ألا تغارين ؟
- أثمة شيء يثير غيبتى ؟
- إذا قلت لك إني متزوج غيرك ، فماذا ترين ؟
- فأجابت ، وقد برقت عينيها :
- أحقاً تقول ؟
- أقسمت لأفعلن .
- ليتك تبرَّ بقسمك .
- فنظرت إليها كالمحبول ، أقول :
- لا بأس .. تتزوجين غيرى وأتزوج غيرك ، ثم نطوى حبنا ، وننفصل إلى الأبد !
- بل إننا نستقبل عهداً من الحب يبلغ فيه الأوج ، ويستكمل النضج والإيناع .
- أما التفاهم معك فلم يعدْ إليه سبيل ... أحدنا مجنون وحق السماء !
- وركضت مغادراً الدار ، يغلى رأسى كالمرجل .
-

ما كان أعظم انتصارى فيما بعد .

لقد نجحتْ خُطى فى صرف صاحبتى عن زواجها الذى أزمعته . ولم أقف عند هذا الحد ، وإنما أقنعتها بأن تكون لى زوجا .

مجهود جبّار بذلته ، ووسائل شتى لجأتُ إليها غير مملول ... مرة أقاطع ، وحيناً أهْدِد ، ويوماً أَلَيْن ، وساعة أَسْتَرْجِم ، حتى أُوْفِيتُ على الغاية ، وملكْت القيادة .

الآن وقد مضت أشهر على زواجى إياها ، لا أدرى أكان ذلك فوزاً بلغته ، وكسباً أصبته ؟

أخشى أن أقول إن أحلامى كلها قد ذابت .

لقد جنيتُ على نفسى وعلى هذه الإنسانية ، بما سعتُ إليه جاهداً من زواجى إياها .

إنى اليوم لأتَبَيّن سلامة رأيها حين كانت تؤثر ألا يكون بيننا هذا الزواج .

لقد هدمتُ أنا سعادتنا هدماً .

لقد أحلتُ هذه المرأةً بذلك الزواج من إنسانة تضطرم حيويتها ، وتتوهج عاطفتها ، إلى تمثال من الرُخام ، لا حيوية فيه ولا عاطفة . تمثال جميل ، ولكنه جمال صامت تشيع فيه البرودة والجود .

كأنى أعاشر ميتاً ، لا رُوحَ فيه !

طالما هفا بي الشوق إلى أن أُقبلها ، فلا أكاد الأملس شقتها ، حتى أحسّ كأنني الأملس قطعة من جليد ، وسرعان ما يشملني هود وحمود .
 وحقيق بي أن أعترف بأن هذه الزوجة على ما طرأ عليها من جهود عاطفة وركود إحساس ، كانت ربة بيت يزدان بها البيت ، وكانت زينة المحافل في الكياسة والظرف ، حتى إنني لأدهش إذ أراها في هذه المحافل وقد انسلخت من جمودها الرخامي ، وتوجهت أنوثه ورقة . . . وكان ذلك يهيج بين جوانحي ألماً دفيناً أجاهد في كبتّه ، فيسامني التفكير إلى ظنون وأوهام أعجب كيف تخنّط لي ببال .

وكثيراً ما برمتُ بهذه المحافل ، إذ كنتُ أحسّ بأنني فيها واغل غريب ، وأن شمائي قد اتسمت بطابع الخشونة والاستيحاش ، على حين أنني كنتُ فيما مضى معروفاً بدمائة الطبع ، ورقة الحاشية ، والبراعة في مطارحة الأحاديث ، ومؤانسة الجلّاس .

وأخصي على بعض إخواني بوادٍ من سوء المعاملة ، لم يعرفوا لها من تعليل ، فاستباننّ على وجوههم مخايل الاستياء والنفور ، وأخذت تبدو على أفواههم بسمات إشفاق ورثاء !

وحقا كنتُ في هذه المحافل لا أملك لأعصابي زمماً ، أتلفت لأقل نائمة مباغتة ، فإذا انقلبت مائدة أو هوى كرسى ، هزّ التفزع أقطار نفسي جميعاً .

أما زجاجات الشبانيا فكان منظرها يثيرني ، ويملائي اشمئزازاً ،
فصدفتُ عنها ، ولم أعدُّ أمدُّ إلى أقداحها يدًا .

وكانت هذه التصرفات تزعج زوجتي ، فَنُقِلُّ على بعد السهرة معاتبة
مسائلة ، ولم أكن أجد عوناً من لساني إلا كلمات الاستعطاف والاستغفار ،
ولا أثبتُّ أن أثبِّها آيات حبي وشغفي ، ثم إذا بي أطوقها بذراعي كائني
أحاول أن أستبقِها في حوزتي ، خاشياً أن تصفِّرَ منها يدي !

وما زال ضيقى بهذه المحافل والسهرات يشتدُّ ، حتى انتهى بنا الأمر إلى
أن عزفنا عنها كل العزوف ، فأصبحنا لا نزور ولا نُزار .

ولاحظتُ أن زوجتي تُكثِّرُ من الاختلاف إلى ، في عيادتي ، حيث
أستقبل مرضاى ، وتجعل زوراتها في مواعيد متباينة . وما أدري أكانت
تزورني حقاً لأمر ذي بال ؟ أم كانت تصطنع الأسباب والتعللات متخذةً
منها أستاراً وأقنعة ؟

ومما كان يثير عجبى أنها تطيل انتظارها إياي في حجرة الزوار ، فأجِدُنِي
قد اعتراني قلق واضطراب ، وراودتني ألوان من الشكوك ، حتى إنني لم
أكن أستنكف أن أسأل الممرض في القينة بعد القينة :

ماذا تصنع زوجتي ؟ وهل يتحدث معها أحد ؟
وشرعتُ أتجسس عليها ، وما كان في طوقى ألا أفعل ، فقد دَفَعَتْنِي
إلى ذلك دوافع نفسية ليس عنها مَحِيص .

وكنتُ أحياناً ، بينا أنا أتفحص مريضاً ، أراني قد تركت حجرتي ،
وانطلقت إلى حجرات الزوّار ، أتبين زوجتي : كيف هي ؟ وإلى
من تجلس ؟

وفي أغلب هذه الأحوال ، كنت أجدها متكئة على الكرسي ، منهمكة
في نسج وتطريز .

وربما عاجلتني نوبة هياج ، واندفعتُ في أرجاء العيادة أتصفّح الناس
وأفحص الأشياء ، وما أزال أدقق في البحث والتفتيش ، تحت الممتلكات
و وراء الأبواب ، مدّعياً أني فقدتُ شيئاً ، وأنى أنشده .

وكان هذا التصرف يبعث دهشة الزوار والخدم ، فيسرى بينهم
التساؤل والهمس .

وكثيراً ما يمتُّ المرأة ، أطلع إلى مُحَيَّاي ، وأتبيّن عيني : هل في
نظراتي علامة جنون ؟ !

كنت أشعر بأنّي مكتمل العقل ، صحيح الإرادة ...

ولكن أئمة مجنون يعترف بأنه فقد من عقله مُسَكَّة ؟

ويوماً ثارت ثائرتي ، فتقدمتُ إلى خدام المنزل بأن يُخاؤا الحجرات من
المناضد ، ولكنني لم أعم أن رجعتُ إليهم في غديّ أمرهم بأن يعيدوا تلك
المناضد حيث كانت ...

ومما رابني من أمرى أني كنت لا أطعم الهدوء إلا إن كانت زوجتي

خارج الدار ، فثمة أجد الراحة سابعة ، وأحسُّ بأنى أحيا حياة مألوفة
يشيع فيها السكون والصفاء ، فإذا احتوى البيت زوجتى ، وتناهى إلى
من جانبها حركة أو صوت ، جُنَّ جنونى ، وهاجت أعصابى ، وكأن
أفاعى تتناهب فؤادى !

وقد تُقبِلُ علىّ ، وأنا فى هذه الحال ، فأخذُ بيدها محدِّقاً فى وجهها ،
أتقرس وأستشفّ ، محاولاً أن تتجلى لى الحقيقة المستورة خلف ما يبدو
من مظاهر . . .

وجاء يوم أصبحت فيه عيادتى قليلة الزوّار ، بعد أن كانت تضيق بهم
من كل صوب وحدب ، فأتسع وقت فراغى ، فكنت أقطعه بتفكير عميق
فى أمرى ، وتحليل دقيق لنفسيتى ، وعرض لما يكتنفنى من ملاسبات
وأحوال . . . ثم ينتقل بى فكرى إلى زوجتى ، وما هى عليه من غرابة
طبع ، وتعتيد نفس .

ووضح لى أن صحتى تتهاوى . . . رأس يصْخَبُ بآلامه وأوجاعه ، وجسم
تنتابه لفحات الحمى ، وأعصاب مستوفزة يَقْظَى ، ينتهى بها التوتر إلى
خَوَرٍ وتهافت .

واضطُررتُ أخيراً أن أنقطع حيناً بعد حين عن عيادتى ، ملازماً بيتى ،
وَنَصَحَ لى رفاق الأطباء بأن أقضى وقتى فى راحة شاملة ، وأكّدوا لى أن
ما بى يرجع إلى إجهاد وإعياء .

ولكن أئنّى لى أن أذوق الراحة ، وهذه زوجتى تقاسمنى حياة البيت ؟
 إني لأقرّ بأنها لا تألّو جهداً فى العطف علىّ ، والبرّ بى ، والعناية بما أنا
 فى حاجة إليه من علاج وتمرّض . . . ولكن هذا كله كان يزيد فى قلقى ،
 ويضاعف من اضطرابى !

لقد أسمى البيت أمام عيني جحيا لا تطاق .
 لكأنّ كل ركن فيه مغارة نكراء ، تتدسّس فيها عناصر أذّيّة وشرّ ،
 متربصة بى ، راصدة فرصة الإيقضاض علىّ ، والانتقام منى !
 بل إن البيت كله لكأنّه ملْتَقَى أحجار تزدحم فيها الثعابين ماكرة
 غادرة ، ولكأنّى بها تطلق فحيحها فأسمعه عَجيجاً فى الأرجاء ، وتنفضُ
 سمومها فأستنشقها ساريةً فى الهواء !

وأدت بى الحال إلى أن أستوطن الفراش ، لا أبرّحه إلا قليلا ، وكان
 أكبر ما راعنى أن أكون لهذا الفراش عبداً ذليلا .

أما من وسيلة إلى تحطيم هذه القيود ؟ ألا سبيل إلى فرار ونجاء ؟
 فإن لم يكن بدٌّ من بقائى رهْنٍ وسادى ، فهل من ذريعة إلى أن أبقى
 زوجتى مشدودة إلى جانبي بأغلالٍ ثقال ، لا تملك معها الانتقال ؟
 ولكن ليس ثمة قوة فى الأرض ولا فى السماء تستطيع التغلب على
 هذه الشيطانة الشُّعوب !

رَبَّاه ! . . .

كيف سولت لي نفسي أن ألقبها هذا اللقب الذميم ؟ وهى التى تغدق
على من حنانها وعطفها ما لا عهد لي به من قبل . وحقاً إنه لحنان وعطف
لم أنسه من أحد غير هذه الزوجة الرءوم !

لست أنسى يوماً استغرقنى فيه نوم ثقيل الوطأة ، وجسمى كأنه سندآن
تتعاقب عليه المطارق ، وأكاد لشدة وقعها أتين مساقط الضربات من أوصالى .
وبينا أنا كذلك إذ أنبهنى صوت ... أكان هذا الصوت منسرباً من
وليجة نفسي ؟ أهو صوت من أصوات تلك المطارق التى تدق جسدى ؟
أم هو صوت منبعث من الحجرة الملاصقة لحجرتى ؟ !

وكانت زوجتى ، ساعة نومي ، على مقربة منى ، فلم يكد الصوت يصك
سمى ، حتى ألفتني أدير حولى نظرات متفرعة ملهوفة ، فلم أجد لزوجتى
من أثر .

ووجدتني على الفور أجاهد لأنهض ، وانطلقت من شئ صيحة :

ما هذا ؟ من هناك ؟

ثم أرهفتُ السمع ...

لماذا صحتُ هذه الصيحة ؟ إنه لخطأ جسيم ، وفلتنة خرقاء !

كان أخزَم أن أعاجل الحجرة مفاجئاً .

وتحاملتُ على نفسي قائماً ، وأنا أتخذ من الجدران عوناً على أن أخطو ،

إذ كانت ساقاي لا تقويان على حمل ذلك الجسد المهدود .

وأشرفتُ على الحجرة المجاورة ، وأنا أحدٌ من بصرى ، فلهجتُ زوجتى
 ممددة على المتكأ ، وما إن شعرتُ بمقدمى ، حتى أمرعتُ إلىَّ تأخذ بيدي .
 وكنتُ مُستترق الأنفاس ، راجف الأعصاب . . . وسمعتها تقول :
 لماذا أجهدتَ نفسك ؟

فقلتُ :

لقد ناديتُ ، فلم يلبَّ ندائى أحد .
 وما كدتُ أُلْفِظُ هذه الجملة ، حتى شملتنى ارتعاشة عارمة .
 يا لتعسى ! . . . ما زلتُ مندفعاً فى حماقتى ، أتعثر فى الكلام .
 لماذا أخبرها بأنى ناديتها ؟
 إنها سلسلة من الأخطاء ، أضيف حلقة منها إلى حلقة .

وسمعتُ زوجتى تقول :

معذرة . . . أخذتني إغفاءة !

ثم واصلتُ قولها فى حُنى بالغ :

تعال هنا . . . تعال نجلس على المتكأ معاً .

وَحَدَجْتُ المتكأ بعين تضطرم ، وأنا أبتاط فى خطاى إليه .

إنه المتكأ العظيم ، ذلك العرشُ الآثمُ الخداع الذى تكمنُ فيه الخناجر

المسمومة ، فلا أكاد أجلس عليه حتى تنغرز نصاله فى جسدى . . .

ورأيتنى على الرغم منى أئداني منه ، وفى لحظة تهالكته عليه .

وطوّقتُ ببيصرى ، أبحث عن المنضدة ، فصدمتُ عيني قائمة في ركن
منزو تحديجني كأنها بؤمة مشئومة تلتهم في نظراتها السخرية والفناء !
والزجاجات ؟ ... أين هي ؟

إنها هنالك بلاريب ، في مكانها المهود عينه !
وندت من فمي ضحكة أفرعتني ... أهي ضحكتي حقاً ؟ أم ضحكته هو ؟ .
هو ... إني لأحس أنفاسه الحبيسة تجيش تحت المتكأ ، فكأنني جالس
على بُرْكانٍ تحتدم فيه الحَمَم !

وقالت لي زوجتي ، وهي تنظر إليّ في دُعر :
أنت شديد الإضطراب ... ألا أحضرك جرعة من دواء ؟
فصحت :

بل شربة ماء !
فقد كنتُ أحسّ بجلتي قد جفّت حتى تشقق ، ولساني قد جمّد فلم أعد
أستطيع له تحريكاً بين شدّق !
وما أسرع أن عادت إليّ زوجتي بكوب ماء ، فقرّبته إليّ ، ولكني
جعلت أحدّق فيه برهة ، لا أمدُّ إليه يدي .
أكوب ماء هو ؟ أم قدح شبنانيا ؟ !

ويلى ! ... إن زوجتي مصرّة على أن تعيد الرواية كاملة الفصول .
يا لله !... من النّزق أن أغالط نفسي ، فلا أُلقي بالا لتلك الحركة التي

أحسُّ بها تحت المُتَكِّ... .

ودفعتُ بالكوب جانباً ، وصرخت ، وأنا أحاول النهوض :

سأُكشِف السر ، مهما يكن الأمر !

في تلك اللحظة ، غامت الدنيا أمامي ، وكأن ضباباً كثيفاً غَشِيَتْ

عيني ، ففقدتُ وعي على الأثر .

ولما تاب إلى رشادي ، أُلقيتُ في حجرة غير حجرتي ، بل في دار غير

داري .

وكنتُ كأني قد أُجريتُ لي منذ قليل عملية جراحية ، فشرعتُ أصحو

من تأثير مخدِّر . بل لكأني قد مِتَّ حقاً ، أو توهموني مِتَّ ، فأُنزلوني

رمسى ، وهالوا على التراب ؛ فلما تَبَيَّنُوا أَنِّي مازلتُ حيّاً أخرجوني من

مَحْبِس الموت ، ووحشة القبر ، إلى حيث النور والهواء .

النور ... النور اللألاء الذي أُمْتِعُ به عينيَّ بهيجاً .

والهواء ... الهواء النقي الذي أَمْلَأُ منه رِئتيَّ منعشاً .

وهممتُ :

أين أنا ؟

وإذا صوتها الحنون العذب يحيني ، وقد أخذتُ يدي تلاطفني :

أنتِ في المستشفى ... هي أيام قلائل تقضيها هنا للراحة والجَمَام !

إذن أنا في مستشفى

ولكن أى مستشفى هو ؟
 الأمراض الجُسْمانية هو ، أم لأمراض العقول ؟
 وتلك الأيام القلائل ...
 أتمضى سراعاً ، أم تمتد شهوراً وسنين ؟
 مجنون ! ...

ما ضرّنى أن أكون مجنوناً ؟ ...
 إنها تجربة جديدة أمارسها فى هذه الحياة ...
 يلوح لى أنها تجربة طريفة لطيفة !
 متاعى تتزايىل ...

نور بهيج ... وهواء منعش .

وهى بجانبى ... هى ... دائماً هى !

واحتويتُ يدها الرخصة بين يديّ ، أتوسّمُ مليّاً تلك الأصابع القانية
 الأطراف ، كأنها حبات « الكرز » اليناع ، ثم أدنيتها من فى ، وأودعتها
 قبلة جيّاشة زاهرة !

الحكمة لله

كان جالسا القُرْفَصَاء في حجرة الفردية من السجن ، معتمداً ذقنه
بيديه ، رانياً إلى الحائط المعتم أمامه . ولم يكن له غير الحائط مجالاً للنظر ،
فحجرتُه ليست كلها إلا حوائط متشابهة .

وذلك الظلام الخيم على كل شيء ، كان يراه شائعاً حوله ، ويحسّه يغمر
دخيلة نفسه . إنه الظلام الدائم العابس ، ذلك الزميل الوحيد الذي يلزمه
ولا يريد له فراقاً .

لقد أمضى في هذه الحجرة أياماً لا يحصى لها عدداً ، ولم يكن يستطيع
أن يميز بين ليلها ونهارها ، فقد كانت الحجرة متغلغلة في مَبْنَى السجن ،
كأنها هاربة تريد أن تلوذ بمكان سحيق ، تستخفي فيه عن الأنظار !

ولا يذكر أنه رأى ما يسمونه ضوء الشمس ، وإن كان يذكر
أن بصيصاً يَدْلِفُ إليه حيناً بعد حين ، فلا يعرف : أبقيةً هي من أشعة
الشمس استطاعت أن تُفْلِتَ من بين الجدران والسدود ؟ أم فضلة هي
من فضلات أضواء المصابيح الشحيحة في ذلك البناء الكئيب ؟

وذلك الصمت الثقيل ... كان يتمثل في مخيلته كأنه كتل ضخمة من
الحجارة تتراكم على كاهل ذلك المأوى الضيق الذى يحتويه ... صمت
متواصل يقطعه رنين أجراس السجن فى فترات متباعدة ، فيترامى هذا
الرنين إلى أذنه مضطرباً متخاذلاً مزق بُعد الشقة أشلاءه ، فلا يبلغه
إلا أصدا غامضة لا يدرك لها كُنْهاً ، حتى إنه ليتخيلها بعض وساوس
نفسه الموحشة .

وقد اتخذت هاته الحجرة فى ظلامها وصمتها وحوائلها المتشابهة الدائرة
حوله شكل بئر بعيدة المهوى ، كأنما انطبق فيها فلا منفذ لها ، وهو ملقى
فى قرارتها كأنه إحدى الهوام التى تأوى إلى جحورها فى بطون
الغاوير والكهوف !

وأحس السجين ضغطاً يتكاثف على صدره ، واحتبست أنفاسه ،
فراح يتامس الهواء جاهداً .

لقد أبرم القضاء منذ أيام حكمه فيه بالإعدام شقاً ... وسينفذ الحكم
يوماً ما ، إن تراخى قليلاً فهو آتٍ لا ريب فيه .

إنه ليدكر تلك اللحظة التى نطق فيها كبير القضاة بحكمه ، وقد تلقى
هذا الحكم واقفاً شامخ الرأس بقامته المديدة ، وجسمه الصلب المكتنز ،
ووجهه المستدير المظهم ذى العينين المتألفتين .

كان فى قفص الاتهام ، والحراس حوالينه ، وعيون الناس فى قاعة

الحكمة تنتهيه بنظرات التفحص والفضول ... وإنه لو اثنى أنه استقبل ذلك الحكم بجأش رابط وقلب جسور . ولم لا يكون كذلك وهو يشعر شعوراً قوياً ، في تلك اللحظة التي سمع فيها الحكم عليه ، بأنه كائن موجود لم يُمسَّ بسوء ، ويرى الناس حيالَه أحياء مثله يستمتع بما يستمتعون به من مجالي الحياة ، فقاعة المحكمة أمامه رجة تزخرُ بالنور والهواء والضجة .

لم يتغير شيء ، ما زال على حاله حياً يتحرك ويتنفس ، ويستطيع أن يتكلم وأن يتنسم ، بل يستطيع أن يضحك وأن يقهقه إذا أراد .

لقد صدر عليه حكم الإعدام ، ولكن أين منه ساعة التنفيذ ؟ كل جارحة من جوارحه تكذب أن حكم الإعدام نافذ فيه ... وتهياً وقتئذ ليتحرك حتى يثبت لنفسه أنه ممتلئ قوة وفتوة ، وأنه جياش القلب بحرارة الحياة ، فلم يلبث أن أحسَّ رِعْشَةً تتمشى في أوصاله فتوهن ساقيه . وهمَّ بأن يتنسم ، فأحس بعضلات وجهه تنقلص كمن أجهد باليكاء . أما الضحكة التي أزمع إطلاقها فقد ألفاها ترتد إلى حلته متخاذلة . وأحب أن يتكلم بصوته الجَهْوَرِيَّ الحاد ، شأنه فيما اعتاد من مناقشة وجوار ، وأن يقول : ليس في طوق أحد أن ينالني بضر . فإذا بشفتيه تجمجمان بنغمة محتقة ، قائلاً : ما قَتَلْتُ إِلَّا مُنْتَقِماً لشرقي ... ربنا عادل ... الأمر لله !

وعَجِبَ لما أدركه من ضعف ، أليس هو الشيخ « عبد المتجلى » عزيز قومه وعמיד بلده في الصعيد ، رجل الدين والدنيا ، من أصاب

من علم الشريعة قدرا ومن السلطان والتحكم نصيبا ، مَنْ استطاع أن يوفق في نظره بين روح التدين وطابع الحياة ، ويستخلص منهما فلسفة فريدة له . الرجل الذي أقام نفسه ، بسطوة شخصيته ونفوذ جاهه ، حاكما مهيب الرأي مخشياً الجانب ، يفصل في المنازعات ، ويُنزِل العقوبات بأصحابها دون أن يُرَدَّ له أمر أو نهى .

إنه ليعرف الحق والعدل أكثر من أولئك الحكام والقضاة الذين نصبتهم الدولة يقرّون الأمن والنظام . إنه يحكم بقلبه وضميره ، أما أولئك فيحكمون بمنطق القوانين المصنوعة . إنه وحده القانون والمحامي والقاضي . وهو في ذلك كله عادل في قسوته ، حكيم في شدته . إذا اعتقد أن المتهم جان فهو جانٍ ما من ذلك بُدَّ . إنه لشديد الاعتداد ببصيرته النافذة التي لا تخطئ ، فليس هو بمفتقر إلى شهود نفي أو إثبات ، وإلى مرافعة أو دفاع . بل إنه في أغلب الأحيان ليس في حاجة إلى أن يستنطق المتهمين أو يستدرجهم إلى اعتراف . وكان في أسلوب قضاائه يقرر ما يراه وينفذه في آن ، لا تعقيب لحكمه ولا استئناف .

وقد جرى على تلك الخطة لما أسرَّ إليه أحدُ أعوانه « سعداوى » أن « ستيتة » حَقَّ عليها العقاب ، إذ فرَّطت في شرفها ، وخاضت في حديثها السنة الناس . وكان النبأ شديد الوقع عليه ، فإن « ستيتة » شقيقته الباقية من إخوته الراحلين ، وهو لذلك يحمل لها كبراً من الحب

والإعزاز... وبعد أن استيقن من « سعداوى » أن الأمر جد لا يحتمل التأويل ، أحسَّ على الفور حَمِيَّةَ الشرف تَهْبُّ أعاصيرها بين جوانحه ، فأقسم أن يَثَارَ للشرف الثلوم ، وأن يغسل ما لحقه من عار . وما عَمَّ أن أصدر في دخيلة نفسه حكمه الفاصل على شقيقته وعلى شريكها في الإثم ، ولم يَبْحُ بما تمَّ في محكمة نفسه لأحد .

أما التنفيذ فقد جرى على أهون سبيل ، ترصد لغريمه المتهم بهتك عرض أخته وراء أكمة في منطقة غير مأهولة ، وما إن رآه في الطريق آيًّا إلى البلدة قُبِيلَ الغروب ، حتى رماه بطلق نارى ، وهو يغتم :
هذا جزاء الفاسق الأثيم !

وفي منتصف الليل دَلف إلى مخدع أخته « ستيتة » وهى مغرقة فى سبات ، فلم يزجها بإيقاظ ، بل أخذ برأسها فوراً وأعمل السكين المسنونة فى رقبتها ، فغارت فى أوداجها ، حتى كاد يَهْوَى الرأسُ عن الجسد ، وهو يهيمهم : الله أكبر ! ... فلتموتى أيتها الفاسقة الأثيمة !

وترك الجثة تحتلج اختلاجاتها الأخيرة ، والدم يشخب منها دَفَاقًا . ومضى يمسح السكين فى قبائنه ، ثم ذهب فاغتسل ، وأوى إلى فراشه ، ونام ملء جفنيه .

إنه لا يذكر على وجه الدقة ماذا وقع بعد ذلك من أحداث ؟ تَجَمُّرُ الأهلين ، هَرْج ومرَج ، شُرطة ورجال تحقيق ... ثم ألغى نفسه نزيل

السجن ... وترادفت الأيام ، وتوالت المشاهد ، وهو ينتقل بين محبسه ومكتب النيابة : شاهد يُقسِم ، ومحام يجادل في صيحة واحتداد ، ومحقق يضرب المكتب بكفتا يديه ، وحُجَّاب يغدون ويروحون ، وشرطة يتراءون هنا وهناك : يهزون الأرض بأحذيتهم الضخمة ، ويقفون بأسلحتهم المرهوبة .

تشابكت في رأسه المشاهد واختلطت الأيام ، وتداخلت الحوادث ، وغَشَى ذلك كله ضبابٌ متراكم . ولكن صورةً واحدةً بين آلاف هذه الصور الغامضة ظلت ماثلة في مخيلته واضحة الملامح لا تبرح مكانها من رأسه ، تلك هي صورة « سعداوى » الذى سَعَى إليه بِتُهْمَةِ أخته ، وهو بين يدي المحقق يعترف أخيراً اعترافه الخطير الذى لم يكن فى الحسبان ... إن اعتراف هذا « السعداوى » ما زال يقرع سمعه بكلمات كأنها قذائف حامية صَخَّابَةٌ ... لقد أدلى الرجل أمام المحقق بأن اتهمه القتيلىين فى شرفهما لم يكن إلاّ تبليغاً مكذوباً ، وشاية مقصودة ، وأنه إنما عمَدَ إلى هذه المكيدة منتقماً من الرجل القتيلى لضغائن كمينه ، ومن « ستيتة » لأنها حرَمَتْهُ ما كانت تُحْزِرُ له من عطاء .

إذن لقد وضع للشيخ « عبد المتجلى » أن جانيته المزدوجة لم تكن فى موضعها . لقد قتل نفسين بريئتين منساقاً بدافع وهم وخدعة ، قتل أختاً عزيزة كريمة وصديقاً وفيّاً أميناً ، قتلها بلا جريرة كأنه يلهو ويعبث ...

وَعَضَّ مِنْ بَصْرِهِ ، وَجَعَلَ يَقْرِضُ أَظْفَارَهُ بِعُنفٍ ، حَتَّى أَدْحَى أَنْفَامَهُ ،
وَصَعَّدَ زَفْرَاتِ حَرَّتِي ... وَسِرْعَانَ مَا لَاحَقَهُ الرَّيْبُ : لَيْسَ بِمَعْقُولٍ أَنْ يَقْتُلَ
نَفْسَيْنِ بِغَيْرِ حَقٍّ . إِنْ فِرَاسْتَهُ لَمْ تَخْطِءْ مَرَّةً ، وَبَصِيرَتُهُ لَمْ تَكْذِبْهُ يَوْمًا ...
وَلَكِنْ مَاذَا يَصْنَعُ أَمَامَ اعْتِرَافِ ذَلِكَ « السَّعْدَاوِي » بِأَنَّهُ وَاشٍ
كَذُوبٌ ؟! ... وَمَاذَا يَصْنَعُ بِمَا أَقْنَعَهُ بِهِ مُحَامِيهِ مِنْ أَنَّهُ قَتَلَ بِلَا مُوجِبٍ ،
وَأَنْ شَهَادَةَ الشُّهُودِ وَقَرَائِنَ الْحَادِثِ كَشَفَتْ هَذِهِ الْحَقِيقَةَ سَاطِعَةً نَاصِعَةً ؟!
وَعَامَتِ الدُّنْيَا أَمَامَ عَيْنِيهِ ، وَازْدَادَ الْمَكَانَ تَجْهِمًا وَحُلُوكَةً .

وَرَفَعَ رَأْسَهُ ، فَاصْطَدَمَ بِبَصْرِهِ بِهِذِهِ الْجُدْرَانِ السَّكَّالَةِ الْبَغِيضَةِ ، جُدْرَانِ
الْبُئْرِ الْمَظْلَمَةِ الَّتِي لَا مَنَفَذَ لَهَا ... وَفَتَحَ عَيْنِيهِ جَهْدًا لِمَكَانِهِ ، وَرَاحَ يَحْمِلِقُ تَائِهَ
النَّظَرِ ... وَتَمَثَّلَتْ لَهُ اللَّحْظَةُ الَّتِي نَطَقَ فِيهَا كَبِيرُ الْقَضَاةِ بِحُكْمِ الْإِعْدَامِ : إِنَّهُ
لَيَرَاهُ الْآنَ أَمَامَهُ جِلِّيَّ الصُّورَةِ ، وَاضِحَ الْقَسَمَاتِ ، مُنْكَبًا عَلَى أَوْرَاقِهِ ، فَإِذَا
رَفَعَ رَأْسَهُ تَرَاءَتْ عَيْنَاهُ الصَّغِيرَتَانِ خَلْفَ نَظَارَتِهِ وَهُوَ يَرَكُزُ بِبَصْرِهِ دَائِمًا
فِي مَوْضِعٍ ثَابِتٍ لَا يَبْدُوهُ إِلَى مَنَصَّةِ الْحَامِيَيْنِ وَلَا إِلَى صَفُوفِ الْجُمْهُورِ وَلَا إِلَى
قِصَصِ الْإِتِهَامِ ، كَأَنَّهُ لَا يَعْنِيهِ مِنْ هَذَا كُلِّهِ شَيْءٌ ... وَكَانَ ذَلِكَ الْقَاضِي
لَا يَفْتَأُ يَتَابِعُ حَرَكَةَ يَدِهِ إِلَى رَأْسِهِ ، يَخْلَعُ طَرَبُوشَهُ ثُمَّ يَعِيدُهُ مَكَانَهُ ، فَتَظْهَرُ
صَلْعَتُهُ مَلْتَمَعَةً وَتَسْتَخْفِي سَرِيعًا ... وَقَدْ نَطَقَ بِحُكْمِهِ فِي صَوْتٍ أَخْنَّ ، وَلَهْجَةٍ
فَاتِرَةٍ ، كَأَنَّهُ يَتَحَدَّثُ إِلَى جَارٍ لَهُ حَدِيثًا تَافَهًُا لَا يَثِيرُ الْإِتْبَاهَ .

وَبَيْنَمَا كَانَ الشَّيْخُ « عَبْدُ الْمُتَجَلَّى » مُنْسَرِحَ الْفِكْرِ فِي هَذِهِ الْأَخِيلَةِ ،

إذ انتفض في جلسته انتفاضة مباغتة ... كلا لن يُشَنَّقَ ، ولن يمسه أحد
بضرٍ ... لقد قتل مَنْ قتل ثاراً للشرف ... إن أخته وصمت اسمه بل اسم
الأسرة بالعار ، فحقَّ عليها القتل ... ولكن أيكون قتل من قتل بلا أناة
ولا روية ؟ أينسى ساعة دنا منه « السعداوى » والتحقيق آخذ مجراه ،
وانكبَّ على يده يغسلها بدموعه ويستغفره ، ويردد بصوت متحشرج :
لقد خدعتك يا « عبد المتجلى » ... لقد أثرت حفيظتك على بريئين .
أختك طاهرة طهر الملائكة ، وصاحبك مخلص لم يخطر بباله أن يهتك لك
سترًا ولا أن يلحق بك عارًا ... عفوك ، عفوك !

وكان يصغى إلى استغفار هذا « السعداوى » ولا يلفظ من قول . إنه
يسأل نفسه الآن : لماذا لم يجبه حتى بكلمة واحدة يصب فيها عليه اللعنة ؟
لماذا لم ينقض على هذا الوغد ويصرعه بدفعة واحدة ؟ لماذا كان خاملاً
كالمعتوه لم يجرُّك ساكناً ؟ إنه يذكر أن كل ما فعله ساعتئذ أنه ازورَّ
ببصره عن « السعداوى » وهمهم :

إن الله لا يظلم من عباده أحداً ...

ثم طفرت من عينه دمعة ، فلم يمسه ، بل تركها تتهاوى على خده .
إنه ليذكر كيف خلا به محاميه بعد ذلك ، وجعل يتحدث إليه حديثاً
مسهباً مستفيض الحواشي ، لم ترسخ منه في ذهنه إلا هذه الجملة التي ختم بها
قوله : « ليس للإنسان أن يحكم على أخيه الإنسان مهما يكن من أمر

يا شيخ « عبد المتجلى » . الحاكم هو الله ! ...

وانصرف عنه المحامى ، وعاد هو إلى تلك البئر في حلوكتها وصمتها
المرهوب ، وظلت هذه الجملة ترنّ أصداؤها المفزعة في حنايا نفسه ... لقد
أحسن بها تأخذ عليه سبيل تفكيره ، بل تلهب رأسه ، وتسرى في أوصاله ،
تخزّه وخز الإبر !

وألقي لسانه يردّد ، وهو مطأطئ الرأس :

ليس للإنسان أن يحكم على أخيه الإنسان ، إنما الحاكم هو الله !
واعترته بغتة نوبة بكاء حادّ ، وتماذى في نشيجه وهو يشعر أن ليس
لهذا البكاء من آخر . ثم أدرك أنه لا يجملُ به أن يبكي ... قد يمر
على مقربة منه أحد الحراس فيسمعه ، فليكف كفّ دمعته ، وليكبح
ثائرة نفسه .

ورفع بصره وجمجم : إنما الحاكم هو الله !

أَيكون في سوابق أحكامه على الناس قد وقع في مثل هذا الخطأ الذى
وقع فيه ؟ وإذا فُرضَ أنه كان عادلاً في أقضيته لم يحدّ عن جادة الحق
مرة ، فمن الذى نصبه قاضياً يتحكم في شؤون العباد ؟ وأولئك الذين أدانهم
من أهل بلده ، على فرض أنهم قد اقترفوا حقاً جرائمهم التى اتهموا بها
وتصدّى هو للفصل فيها ، أليس لهم من ملابسات حياتهم ودوافع عيشتهم
وحدود تفكيرهم ما يَرُجّحُ بهم في مزالق الجريمة دون أن يستطيعوا الهارداً ؟

أينسى كيف حكم بالجلد على سارق لأنه تسلل إلى أحد البيوت فاستولى على جانب من الذرة ، وتبين بعد ذلك أن هذا السارق لم يُقَدِّم على فعلته إلاَّ لِيُطْعِمَ بنيه الجياع ؟

ولماذا يذهب في التفكير بعيداً ؟ ها هو ذا قد قَتَلَ متوهماً أنه يؤدي واجباً لا قِبَلَ له بالتغاضى عنه ، فهو في حساب نفسه برىء شريف الغرض ، ولكنه في حساب العدالة مجرم يستأهل أقصى عقاب ...

إن أىَّ رجل لو كان في مكانه ، وحاطت به هذه الملابسات ، وكان صاحب كرامة وسميَّة ، لما تردَّد في أن يفعل ما فعل ، ويقتل من قتل : المأمور الذى قبض عليه ، ووكل النيابة الذى حقق معه وأدانه ، والقاضى الذى أصدر حكمه فيه ، هؤلاء جميعاً لو وقفوا موقفه من هذه الحادثة ، لما تردَّدوا في أن يرتكبوا جريمته !

ليس لأحد أن يقاضيه ، ليس لأحد أن ينفذ فيه حكماً ، ليس للإنسان أن يحكم على أخيه الإنسان . إنما الحاكم هو الله ، الله وحده هو الذى يُقَدِّرُ على الإنسان ما كسبت يده من خير أو شر ، فما يجوز لنا أن نجادل فيما اقتضت حكمته أن يكون . هى إرادة علوية تتصرف فينا منذ الأزل ، فلْيَدْعِ البشرُ حُكْمَ السماء للسماء !

واعتمد الشيخ « عبد المتجلى » رأسه بيديه ، وما لبث أن راح في سُبَات لا يدرى أطلال به أم قصر ... ثم رفع رأسه ودار بنظره مستظلاً حوله ،

وقد قامت بنفسه رغبة في أن يتبين : في أى وقت هو ؟ أنى مَهِيْطُ الغروب
 أم في مطلع الفجر ؟ ليس من شىء حوله إلا الصمت والظلام !
 وأحسَّ بالوقت يمرُّ به الهويْنِي ثَقِيل الخطأ ، وشعر بأن تفكيره قد
 تعطلت حركته وجمد ...

لقد أضحي لا يفكر في شىء على الإطلاق !

وانتابه شعور مفاجئ غريب ، شعور غامض لم يعرف كُنْهَهُ يتوثب
 من أعماق قلبه متمسكاً له منفذاً . . . وتكاثف هذا الشعور ، وازدحت
 طبقاته يدفع بعضها بعضاً ، تريد الانطلاق .

وَأَلْقَى في رُوعِهِ أن الوقت الذى هو فيه إنما هو طلائع الصباح ،
 وتأكد له هذا الحدس . أنفحة من هواء رطب لامست وجهه هى التى
 أَلَقَتْ في رُوعِهِ هذا الشعور ، أم بصيرته هى التى أَوْحَتْ بذلك إليه ؟

الشمسُ الآن في طفولتها تنهذى على بساط الأفق بِسَامَةً تنشر الضياء
 وتُشِعُّ النشاط والحركة في رِحاب الكون . وهل نَسَى تلك الساعة الرائعة
 في قريته ؟ لقد طالما استقبلته بواكير النهار في مُنْصَرَفِهِ من المسجد وهو
 يُنْقَلُ حَبَّاتِ الشَّبَحَةِ بين أصابعه مردداً الأدعية والابتهالات التى أَلِفَ أن
 يخْتِمَ بها صلاة الصبح ، ولقد طالما حيَّاه نسيم السَّحَرِ وهو على المصطبة
 الفسيحة أمام داره ، وقد بُسِطَتْ عليها مفارشٌ صوفية زاهية الألوان ،
 وهو جالس يقرأ بعض كتب الشريعة والسَّيَر ، متذوقاً مستمتعاً بما

تَهْدِي إِلَيْهِ مِنْ غِذَاءِ رُوحِي وَرِضَا نَفْسِي !

على هذه المصطبة نَعِمَ حيناً من الدهر بصحبة صديقه المتهم بتدنيس شرف أخته ، قضى مع هذا الصديق أوقاتاً كلها مؤانسةً وصفاءً ، وبادله أحاديثَ كلها مؤازرةً وتعاوناً ، وكانت نهاية هذه الصداقة أن سَدَّدَ إِلَيْهِ طَلَقاً نارياً أَرَادَهُ قَتِيلاً . وأمام هذه المصطبة تمتد الساحة الرحبة التي كانت تَزَخَّرُ بطلاب الحاجات ومن يَفْزَعُونَ إِلَيْهِ يطلبون قضاءه في المنازعات . كان يقضى في هذا المكان شَطْرَ نهاره ، يتناول فيه الطعام الذي تُعِدُّهُ أخته له بارِعَ الطهوِ مختلفَ الألوان شهياً .

أخته ! . . . وتراءت له السكين المُخَضَّبَةُ ، وهو يمسحها في قبائه ، ورأس القتيلة يتسائل منه الدم غزيراً .

أبريئة هي حقاً ؟ لقد اعترف « السعداوى » بأنه كان أفأكاً مخادعاً فيما رماها به من تهمة العار . . . وعلى فرض أنها ليست بريئة ، أفكان له أن يحاكمها وأن يحكم عليها ؟ . . . إن للكون خفايا وأسراراً لا يسوغ للبشر أن يحاولوا كشف الغطاء عنها . . . الله هو العالم بالثبَّات والسرائر ، فله وحده الحكم ، وإليه يرجع الأمر كله !

وخَيْلَ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَسْمَعُ شَيْئاً : أحرَكُهُ هِيَ أَمْ صَوْتُ ؟ أَرْهَفَ أُذُنِهِ ، وَأَحَدَ مِنْ بَصَرِهِ . إن الوقت صباح حتماً . . . وفجأته رِعْشَةٌ . لقد حدث أنه سَمِعَ قَبْلَ ذَلِكَ أصواتاً وحركات في مختلف الأوقات ، ولكن

جسده لم يكن يختلج لها أية اختلاجة ، فقيم هذه الرعشة الطارئة ؟
إنه يُصغى في اهتمام . . .

لا ريب أن هناك حركة وهممة . أمِن الدّهليز صادرة ؟ أم من
تلك الكوّة الضيقة التي عجزت عن أن تأذن للضوء أن يرسل بصيصه ؟ .
إنها أصوات . . . إنه وقع أقدام . . .

وأحس بقشعريرة تسرى في جسده ، ووجد نفسه كأنما تحوّل كله
آذاناً صاغية .

أخرّاس إليه بالطعام قادمون ؟ أم . . . أم . . .
وتسمّرت عيناه نحو الباب يرقبه .

وتعاقبت لحظات ، ثم فُتح الباب إلى آخره ، وظهر مأمور السجن
والطبيب وشرذمة من رجال الشرطة ، وتقدموا إليه على مهل .

وخُيّل إليه أن حديثاً يُوجّه إليه ، وفطن إلى أن صدره يعلو ويهبط
متلاحق الحركة ، ووضع أمامه أحدُ الخُرّاس فطوره . إنه أجود فطور
وقعت عليه عيناه منذ حلّ في السجن . . . ووجد يده تمتدّ في تباطؤ
وتصيب من الطعام لقيمة ، وأحسّ بها تضطرب في يده حتى كادت تسقط ،
ولكنه استطاع أن يضبط أنامله ، وأن يُلقي بالقيمة بين شذقيه . لقيمة
واحدة لم يتناول سواها ، أردفها بجُرعة ماء ، ثم قال بصوت خافض
متقطع النبرات : الحمد لله !

ومسح قمه بظهر يده ، وردد في صوت أجهر من ذى قبل :

الحمد لله على نعمتك يا رب !

وإذا به ينهض من تلقاء نفسه ، وألقى الجمع يتأهبون للخروج .
وقد عقدت ثلثة الحراس حوله نطاقاً ، وساروا جميعاً .

كان مُمتقع الوجه ، بارد الأطراف ، خفاق القلب ، ولكنه على الرغم من ذلك كله يكسوه ظل من السكينة والهدوء .

وشاعت على مُحبيّاه بسمة غامضة : أِبْسَمَةُ أَسَى هِىَ أَمَ بِسْمَةِ تَهْكُمْ ؟

وكان لا ينفك يردد : الحمد لله على نعمتك يا رب !

وسار فى الدهليز تغمره لُجَّةٌ من تفكير متقلب عميق . إنه مقبل على رحلة طويلة مُبْهِمَةٌ ، بيد أنه على يقين من رحمة الله ، إن الله واسع المغفرة تَوَّابٌ . . . من هو الشيخ « عبد المُتَجَلَّى » بالنسبة لعظمة الخالق ؟ إنه لأهون من جناح بعوضة . الناس تُجَارِى الناس سُوءاً بسوء وإحساناً بإحسان ، أما الله جلَّ شأنه فإنه لن يقابل الذنب إلا بالعفو والرضوان . وسيق إلى حجرة لا تختلف عن سائر حُجَرِ السِجْنِ إلا بهذه المِنَصَّةِ الصغيرة التى تدلّت عليها من السقف أُخْبُولَةٌ مفتولة . . .

أَتَكُونُ الْمِشْتَقَّةُ ؟ ليست كما يتوهم الناس مرهوبة مفرّعة ، ليس فيها

ما يبعث على العَجَبِ ، إنها لأشبه بأَرْجُوحة الصَّبِيَّانِ فى القرية !

وتجمّع إحساسه حول نفسه ، وتعمّق فى دخيلتها ، فلم يعد يشعر بما

حوْلَه ولا بمن معه . لقد أصبح نائياً عن المحيط الذى هو فيه بِجُسْمَانِهِ .
وكانت شفتاه تختلجان بالدعوات سريعة مختلطة .

وخِيلَ إلى الشيخ «عبد المُتَجَلَّى» أنه يسمع من بعيد صوتاً يتلو أسبابَ
الحكم عليه .

وأبصر خلف الضَّبَابِ الذى كان يَغْشَى عينيه شَبَحاً يدنو منه ويأخذ
بكُتْفَيْهِ ، فألقى نفسه يدفعه عنه .

ووجد قدميه تخطوَانِ نحو المِنْصَةِ .

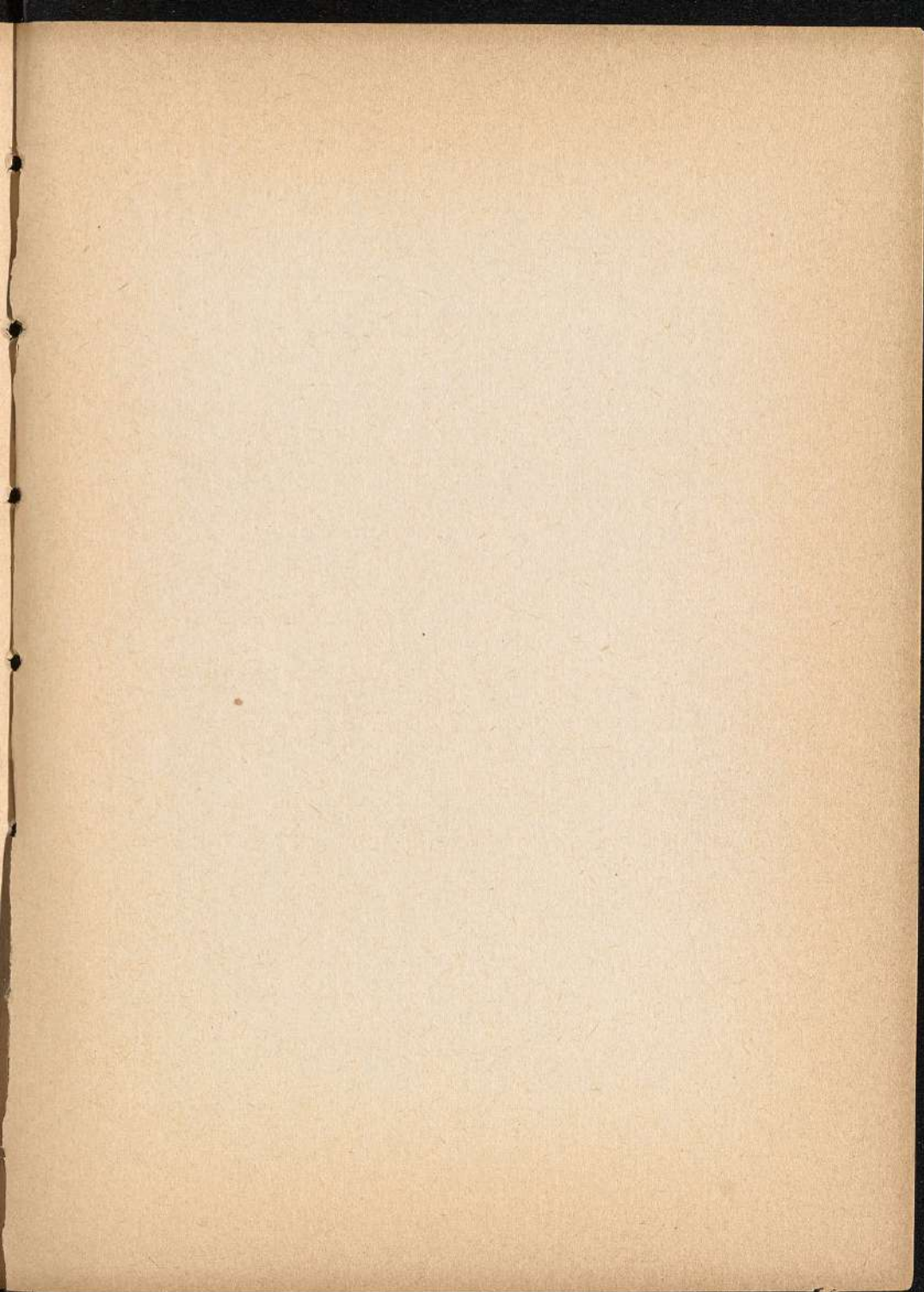
وفى هذه اللحظة طرق سمعه صوتٌ قائل :

أَلَا تَشْتَهَى شيئاً ؟ بماذا تُوصِي ؟

وأَحْسَ يدأ تَدِيرُ الأُخْبُولَةَ حول عنقه ، فأجاب بصوت يَبِينُ :

إِنِّى بَرِئٌ . . . كلنا أبرياء . . . الله وحده هو الذى يملك الحكم

على عباده !



قَبْلَةُ مَرْهُونَةٍ

هي ابنة عمِّه .

كلاهما في زهرة العمر ، وبَسْمَةِ الصَّبَا ، ولكنها تَكْبُرُهُ بأعوام
قِلَال . وقد جمعتُهُما نشأة واحدة ، فتلازما منذ الطفولة الباكرة .
وكان أصغى وقت يغتنمه وقت لقائه إياها ، يرتقبه على شوق متجدِّد ،
ويُعِدُّ له العُدَّة كأنما هو يستقبل العيد .

أنا يساجلها الحديث ، وحيناً يجلسان معاً إلى المذِيع يُنْقِلَان سَمْعِيهما
بين مَهَابِّ الأنعام ، وطوراً يتناوبان كرسى « البَيَانِ » متباريين في
العزف والغناء .

وكثيراً ما جعل يُخَالِسُهَا النظرات ، مجتلياً مَفَاتِنَهَا في نشوة واستمتاع .
فإن فطنتُ إلى ذلك منه سَنَحَ على ثغرها ابتسام ، وأسرعت تجاذبه
الحديث في شأن يشغله .

إنها لتعلم ما يتناجى في صدره من شَغَفٍ بها وهيام ، بيد أنها لم تبادلْه
إحساساً بإحساس ، دون أن تدركَ لذلك من سبب ، فما يزيد شعورها
نحوه على صداقة رفيق ، ومودَّة ذى قُرْبَى .

وإذا خلتُ إلى نفسها نازعها إشفاق عليه ، وربما انقلب هذا الإشفاق ضيقاً به ، ضيق الأخت الكبرى أمصّها أخوها الصغير بلجاجته وإنتقاله .
وكما خطر ببالها ذلك تراءى حيالها طيف آخر ، طيف الطبيب الذي تولى شأنها في المستشفى ، فاستأصل لها الزائدة الدودية منذ أشهر .

قائمة بأسقة ، وعَيْنُ فَوَّارة ، وشباب يانع !

فأين منه ذلك الغلام الغرير الذي أحاله الغرام شمعةً تذوب ؟ فهو بادى الضراعة ، سليب الإرادة ، ينحني عند أية إشارة . . . على حين أن الطبيب يعاوبها بجماله ، ويستعزُّ بمهابته ، فتحسُّ الفتاة انطواءها في ظله ، وفناءها فيه .

لا عجب في أن تؤثره بالمكنون من قُوَّةِ العاطفة وجوهر الشعور .
لا يكون لها أن تستكثر ذلك عليه ، فإنها لتجدّه يطارحها رقيق الحديث ، ويؤليها حُسْنَ الرعاية ، ويخصُّها بمزيدٍ من اللطف والإيناس .

ظل الطبيبُ يختلفُ إلى دار الفتاة بين القَيْنَةِ والفِينَةِ ، يشرف عليها في فترة استكمال العلاج ، فيطيبُ لها أن يطول معها مُكُونُهُ ، وتتحيلُ لذلك جُهْدَ ما تستطيع .

ولا يفوتها أنه مغتبط بزوراته لها ، راضٍ عن الوقت الذي يقضيه في مجلسها وإن طال ، إذ يستمرُّ حديثها في طمأنينة وارتياح .

وقد تتلاقى عيناها ، وتتلامس يداها ، ويتراخى بهما الوقت على تلك الحال ، ثم يستدركان أمرهما ، تعروهما اختلاجة المأخوذ !

و ذات يوم غداً إليها ابنُ عمها على مألوف عادته ، ففشيئت مجلسهما غاشيةً من الغموض والقلق .

كلاهما بين جنبيه خبيثةٌ يضيق بها الصدر ، وكلاهما يرصد فرصةً تتيح له أن يخفف عن نفسه .

أمشاج من الحديث مبتورة ، ووقفات من الصمت مُتجهمة .
ودلقت يداها إلى صحيفة مصورة ، فانطلقا معا يعبدان بتصفحها عبثاً مغلوبٍ على أعصابه .

وعلى حين فجأة ، استقرت يداها على صورة أخذت بلبهما ، فجعلا يَرْتَوِان إليها في إمعان . ولبثا كذلك فترة لا يحيدان عنها ، ولا يرويان منها على طول النظر .

كانت الصورة مُمَثِّلُ قُبلة من القبلات السينمائية الحافلة .
ورفعت الفتاة بصرها الهويني ، خف بها الفكر إلى أفق رأت فيه نفسها بين ذراعى طيبيها الشاب ، وقد التحما في قبلة رِيَّانة ثائرة .

أما ابنُ عمها الفتى فقد اتجه بعينه إلى مُحَيَّا الفتاة يتوسمها ، ثم سدّد نظرتَه إلى ثغرها في تشوّف ، وبين حناياه تتقد أمنية جامحة . . . هي أن

تتأح له يوما نهلة فياضة من ذلك النبع المعسول !
 ونذت من صدر الفتاة تنهدة حياشة ، فإذا الفتى يبتدرها مسائلًا :
 ما بك ؟

فأجابته الفتاة ، وهي تسرحُ البصر في الفضاء ساهمة :
 هي أمنية تلوح في خاطري ، وإنى في سبيل تحقيقها لراضية أن أبذل
 كل شيء .

— أيسوغ لي أن أسألك : ما هي تلك الرغبة ؟

فلاطفت كتفه ، حانيةً عليه ، وقالت :

ما زلتُ أعرف فيك هذا الفضول !

— أتضيقين بسؤالي ؟

فأرسلت ضحكة عابثة ، وأجابته :

حسبك علمًا أنها أعز أمنية لي في الوجود !

وما أسرع أن اكتسى وجهها برونق البشر ، وسبغت على قسماتها
 أطيايف الأحلام .

ثم وقعت كأنها تتأهب لاستقبال أمنيته الغالية ، تلك القبلية المشتهاة !

وألقي الفتى نفسه يقترب منها ، وهو يهمهم :

هَيَّيْ أَنْ أَمْنِيَّتْكَ قَدْ دَانَتْ لَكَ ، فهل لي أن أتمنى عليك شيئًا طامًا

صَبَتْ إِلَيْهِ نَفْسِي ، وتعلق به هواي ؟

فواجهته لحظةً تُصعد فيه البصر وتصوبه ، ثم قالت :

وماذا تمنى على ؟

— مَطْلَبًا لَا يُعِينِيكَ أَنْ تَسْتَجِيبَ لَهُ ، وَهُوَ عِنْدِي لَا يَعْدِلُهُ مَطْلَب
أَيًّا كَانَ .

— أَيْ مَطْلَب هُوَ ؟

— عِدِّي أَوَّلًا ، وَأَنَا أَجَاهِرُكَ بِهِ .

فتضاحكت وهي تتراجع عنه بخطوات خفاف ، وما عتمت أن قالت :

يَا لَكَ مِنْ طِفْلِ غَرِيرٍ !

فأقبل عليها يقول في احتياج :

أَتَعِدِّيَنِي ؟

فثنت عنه عطفياً في تدلل ، وما لبثت أن عادت تُولِيهِ وَجْهَهَا بِاسْمَةِ

الثغر ، وهي تقول :

حَسَنًا يَا رَفِيقَ الصَّغِيرِ . . . لَكَ مِنِّي مَا تَشَاءُ إِنْ تَحَقَّقْتُ أُمْنِيَّتِي . . .

أَفْصَحْ عَمَا تَمْنَى !

ومدّت إليه بصرها مَدِيًّا ، تتأمله ، فإذا هو قد تَضَرَّجَ وَجْهَهُ دَفْعَةً

واحدة ، وتتابع أنفاسه ، واختلجت أوصاله ، ونبس بهذه الكلمات

متعثرة على شفثيه :

أَنْ تَهَبِّينِي قَبْلَةَ مِنْ ثَغْرِكَ الْحَلَوِ .

فوقفت تحدّجه في صمت ، وقد تالّأت على فمها ابتسامة وضاحية ،

ثم قالت :

قبلة ؟ !

فتدائى منها ، شاخص البصر إليها ، تفيض عيناه بالأحلام ، وغمغم :

أجل ، قبلة . . . قبلة فوارة تشفى الغليل !

فصلصلت ضحكاتها عالية الرنين ، وقالت :

أجادت أنت فيما تقول ؟

فأجابها راعش الصوت ، مسحور النظرات :

الجِدُّ كُلُّ الجِدِّ فيما أقول !

فاستدارت على عقبيها ، وهي تقول له :

حقا لقد برهنت على أنك لما تزلّ طفلا .

وأرسلت ضحكات عابثة ، ثم تقدمت إلى المرأة تتوسّم مثلها مزهوّة

بما ترى من حسن وإشراق .

وما هي إلا أن انسحرت تفكر . . . إنه حقاً طفل غريب . . .

ولكن لماذا تعدّه طفلا ؟ ألا أنّه استوهبها قبلة ؟ !

وهي ؟ أليس لها مثل هذه الأمانة عند طيبها الشاب ؟ !

وشملتْ مُحيّاها اختلاجة . . . قبلة رهن قبلة . . . لن ينال فتاها

ما تهفو إليه نفسه ، إلا إن نالتْ هي من قبْلِهِ ما تهوَى ... لن تعطى
قبل أن تأخذ !

يا له من مسكين ! ... بل ياله من مسكينة !

وترادفت الأيام ...

وساعةً أمّ الفتى دارَ ابنةِ عمه ، كما هو شأنه ، وصعد الدَّرَج ، وقلْبُهُ
مُنْتَشٍ بما هو مُقْبِل عليه من لقاء .

وأنهى إليه الخادم أن الطيبَ الشابَّ مع الفتاة في حجرتها .
فكث في البهوى ينتظر انصرافه ، وسرى فيه اضطراب لا يدري ما تأتاه ،
فنهض يذرْعُ البهوى بخطى متشنجة .

وساقته قدماه إلى باب الحجرة على غير عمد . إن بالباب فرجة قليلة ،
وإنه لمستطيع أن يتحرفَ حتى يرى من في الحجرة دون أن يراه أحد .
وسرعان ما أنكر على نفسه هذا الصنيع ...

كيف يستبيح التطلع والتعرف بغير وجهٍ حق ؟
وأذبرَ عن الباب يقطع خطاه ، ثم ألغى قدميه تعودان به حيثما إلى
الباب ، وإذا هو يقف مرتقبا يسترق السَّمْع ... إن أصداء من الهمسات
الرَّقاق تتوارد على أذنيه ، وإنها لتثير فيه الفضول ... فازداد إصغاه ،
ثم وجد نفسه يخالس الحجرة النظر ، وقلبه دائبُ الخفوق .

وَيَلَاهُ . . . هما يتعانقان ، هما يَذُوبَانِ في قبلة حامية متقدة ، لا يُسْمَعُ
لهما إلا أنفاس مصعّدة . . . يا لله من هذه القبلة التي لا يهدأ لها أوار ،
وكأنها في امتدادها دهر موصول !

وترأخت أوصاله ، والتمس أقرب مقعد ، قتهاوى عليه ، لا يدري أطل
به الوقت في جلسته أم قصر ، ولكنه يحس كأنما التقيته برُ مختنقة الجو ،
بعيدة القاع !

وأخيراً شعر الفتى بالطيب تنثاب عنه الحجرة ، والفتاة بذراعه متعلقة .
وجاز كلاهما به ، لم ينتبها لوجوده .

وتابعت الفتاة سيرها تودّع طبييها الشاب !
وفيا هي عائدة إلى حجرتها وقع بصرها على الفتى ، وقد هم أن يهزّب
من الدار ، ناجيا بنفسه من هذا الموقف العصيب .

فصاحت به الفتاة مرحبة بمقدمه ، ووَجَّنتها تضطربان من بهجة
ومراح ، وعيناها ترَفَّانَ رَفِيفَ النشوة والاهتياج .

ومثلت أمامه مُنْبَرِيَةً تقول :

أَبْشُرْ يا رفيق . . . لقد تحققت لي الأمنية . . . وحان أن تطالب
أنت بما تمنى !

فارتسمت على فم الفتى ابتسامة نكراء ، يتجمّع فيها التقرّز والاشمئزاز .
وغنم قائلا :

هنيئاً لكِ ما بلغتِ من المني !

فأخذتُ بيده تلاطفها ، وهي في غفوتها لم تكد تصحو .

وقالت له :

إني عند وعدى إياك !

وتدفقتُ في حديثهما تقول :

ما أسعدني اللحظة ! . . اطلب ما شئت . . فإني واهبتك

ما استطعت . . . إني . . .

فقاطعها ، وقد سلَّ يده من يدها ، قائلاً في صوت متحشرج :

تستطيعين أن تهبي كل شيء ، ولكنني أنا لا أستطيع أن أقبلَ

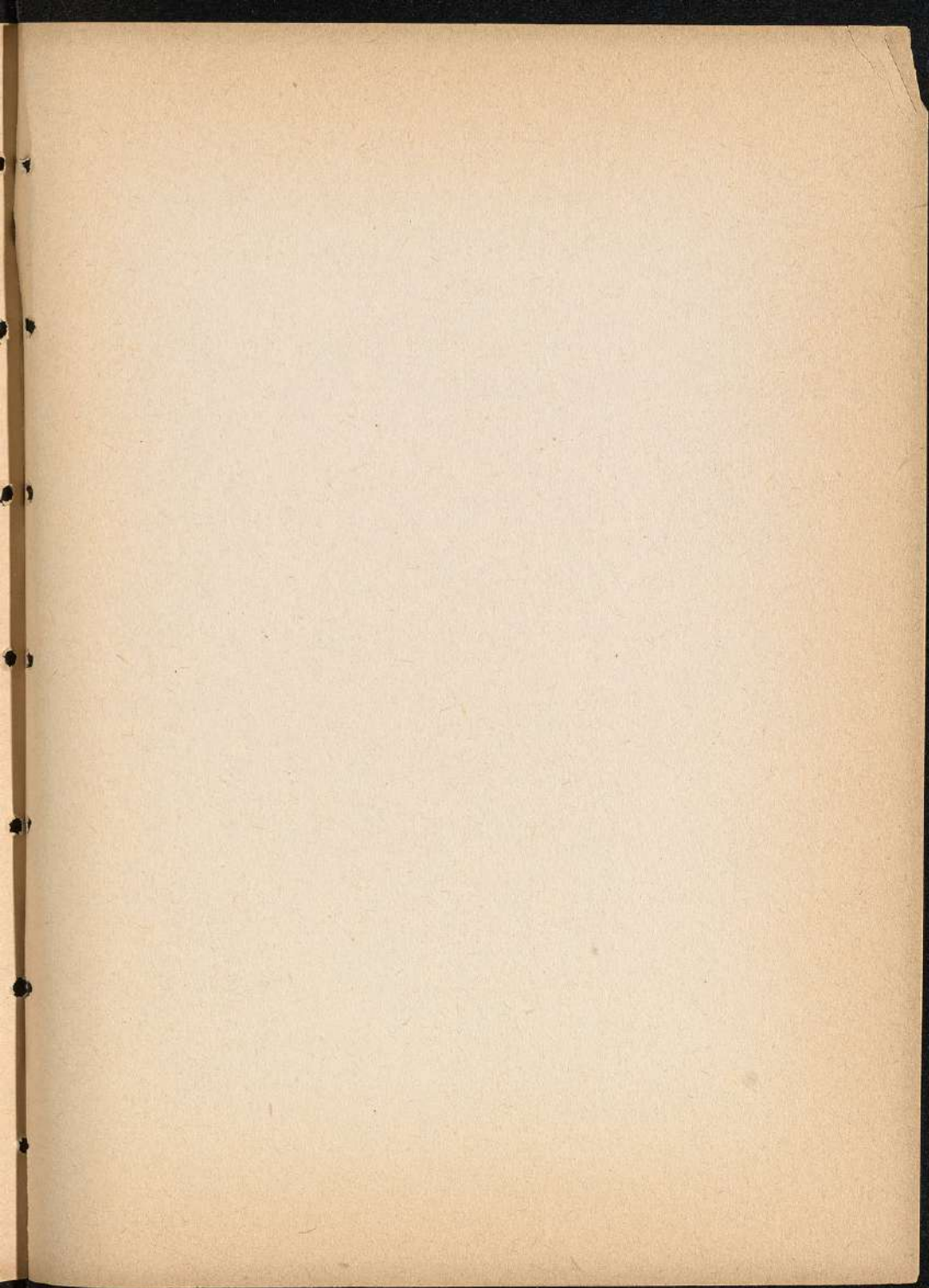
منكِ شيئاً !

ونكصَ عنها خطوات ، وهو يقذفها من عينيه بنظرات يتجلى فيها

البغض والحنق .

وانطلق يغادر الدار ، وقد صاح قائلاً :

وداعاً ... وداعاً إلى الأبد !



في ظلمة الليل

أسطورة فرعونية

في أوّل يوم من الأيام كان الشيخ « حابي » في بستانه الصغير أمام داره المتواضعة يتعهد نُحَيْلاته ويتنزه . فاسترعى انتباهه خفق أقدام ، فالتفت نحو مصدر الصوت ، فإذا بفتى يسير صَوْبَهُ وهو يدفع — في جهد — قدميه المُتَعَبَتَيْنِ ، وقد علاه الغبار ، فاخفت ملامحه . بَيَدَ أَنْ الناظر إليه يستطيع أَنْ يَلْمَحَ في عينيه على الفور حيرة الغريب .
وكان الفتى يحمل في يده صُرَّة . فحَفَّ الشيخ للقائه ، وما إن اقترب منه ، حتى سمعه يقول في صوت الهامس :

الشيخ « حابي » .

— هأنذا ... ما مطلبك يا بُنَيَّ ؟

ووجد « حابي » الفتى يتخاذل أمامه ، فأسرع إليه ، وأسنده إلى صدره محيطاً إِيَّاهُ بذراعيه ، وقال له :
أمريض أنت ؟

— بل جائع !

وسار به « حابى » إلى داره فى رِفَق ، وأجلسه بجوار الباب على مصطبة عارية . وتركه برهة ، ثم عاد إليه بإبريق مملوء باللبن ، فأخذ يَعْْبُ منه الغريب حتى شَبِع ... وبعد أن تنفَّس طويلاً تتم بكلمات الشكر لِصُفِيهِه ، ثم أطرق وقتاً ... وأخيراً رفع رأسه وسَرَّحَ بصره فى الشيخ ، والكلمات تقرأى حَيْرَى على شفثيه .

وابتسم الشيخ ابتسامة تنطوى على عطف وطِيبَةٍ ، وقال :
تكلم يا بنى ، لا تخشَ بأساً ... ما حاجتك ؟ إن « حابى » لا يرد
حاجة الغريب !

فأمسك الفتى بيد الشيخ ، وضغطها فى انفعال ، وقال :
لقد حَدَّثُونى أنك تأتى بالمعجزات ، فسعيتُ إليك أطلب معجزة !
فتأمل الشيخ وجه فتاه طويلاً ، يحاول أن يَسْتَكْنِه ما خلف تلك
الصفحة المُرَبَّة التَّعْبَةِ من خَفِيَّة نفسه ، وقال :
معجزة ... لستُ كاهناً يا بنى !

— أنت أعظم من كاهن ..

— أفصح عن غرضك !

— إن قوة تعاويذك وعقاقيرك يا أبتِ مستمدَّة من روح الآلهة .

— أنا حكيم زاهد ، قد أنجح فى مداواة النفوس وتطبيب الأجسام .

وحدّق الفتى فى الشيخ بعين جاحظة ، ثم هَبَطَ أمامه ، وقال وقد
تَشَبَّثَ بشو به :

وَحَقٌّ « إيزيس » لتَنزَعَنَّ نفسى من بين جوانحى ، وَلَتَلْقَيْنَ بها
بعيداً عن جسدى !

— هَدَّيْ من رَوْعِكَ .

— إني أَمَقْتُ هذه النفس الخاملة المَيِّتة ... لَتَخْلُقَنِي خَلْقاً جَدِيداً ،
ولتَجْعَلَنِي رَجُلًا ذَا بَأْسٍ وَاقْتِدَارٍ !

وجعل الشيخ يلاطف رأس الفتى ، ثم أَنهَضَهُ فى وداعة ، وأَجْلَسَهُ
بجواره . وبعد حين قال له فى هدوء ورزانة :

ارو لي قصتك يا بُنَيَّ ... إني مصغٍ إليك فى انتباه !

ودعّم الفتى وجهه براحتيه ، وراح يرسل الطرف أمامه فى ذلك الفضاء
العظيم ، حيث يبسط الغسق على الكون غِلالته السوداء .

وأنصت برهة إلى ما يحيط به من صمت شامل . ثم تكلم فإذا به يقول :

أنا « راموسى » . . ولكن ماذا يَهْمُكَ من اسمي ؟ إن « راموسى »
نَكْرَةٌ لَا يُحْسَ وجوده أحد !

— تكلم ...

— إني أسكن على مَسِيرَةِ شهر من هنا .

— فى بلدة « رنسى » ؟

— نعم !

— ذات المعابد الأربعة والمسَلَّات الخمس !

فواصل « راموسى » حديثه ، وقد رَقَّ صوته وضعف :

وحيث تسكن الأميرة « أشمس » !

وطأ طأ رأسه حيناً ، ثم رفع عينه بقتة ، وسدَّدها فى وجه « حابى » ،

وقال فى صوت غير متساوٍ النبرات :

أريد أن أكون عظيماً ... أريد أن أكون مثرياً ... تزخر خزائنى

بالأموال .. أريد ...

فابتسم الشيخ فى هدوء ، وقاطعه قائلاً :

إنه ليس بالطلب المستحيل .

فاستنار وجه الشاب بلعة متلألئة ، وقال :

إذا ستأتى لى بمعجزة !

— إن ما تسميه أنتَ معجزة يا بنى أسميه أنا أمراً قد يستعصى على

بعض الناس ، ولكنه فى مقدور آخرين !

فهو « راموسى » على يدى الشيخ ، وانهمال عليهما تقييلاً

وهو يقول :

شكراً ، شكراً ! سأذكر لك ذلك الجميل ما حييتُ ، وسأعوضك

عنه أضعافاً مضاعفة .

ثم رفع رأسه ، وقال :

أما الآنَ فليس لى ما أقدمه لك سوى ...

وتعثرَ لسانه بالكلمات ، فسكت ، وأشار إلى الصُّرَّة التى بجواره ،
وفتحها بيدٍ راعشةٍ أمام « حانى » ، فنظر فيها الشيخ ، فإذا بخليط
من قطع المعادن ، بينها شىء قليل من الفضة والذهب .

وتابع « راموسى » كلامه وقد غَضَّ من بصره :

هى كل ما تَبَقَّى لى مما أملك !

— أبقِها لك .

— إنها قليلة ... أعرف ذلك !

— كلا ، فهى كثيرة إذا كانت منك . وهذا يكفى ... ولكننى

لستُ فى حاجة إلى عطاء الناس .

— أبت !

ونفض « حانى » فى هدوء ، وهو يقول :

ألا ترى يا بنى أن المساء قد أقبل يحمل فى أعطافه برد الليل ، وأنا كما

ترى شيخ ... ؟ !

— هَيَّا .

وتركا المصطبة ، ودخلا قاعة غير رحبية ، بسقف منخفض ، تكاد

تكون عارية إلَّا من حصير وغطاء .

وأشعل « حابي » مصباحه الزيتي ، ثم جلس وأراح ظهره على الجدار
وقد طوى يديه إلى صدره .

وجلس « راموسى » قبالة الشيخ متربعا ، لا يفصله عنه إلا المصباح .
وانقضت برهة لم يتكلم فيها أحد منهما .

ثم سُمِعَ « حابي » يُردّد فى صوته الرزين :
إني مُضغٌ إليك !

فلم يحوّل الفتى عينيه عن المصباح ، وقال :

كيف أبداً لك قصتي ... حقاً إنه لجنون ما فكرتُ فيه ... غير أنى
لستُ نادماً على شىء ... لقد كنتُ أحيأ يا أبتِ مُتَبَطِّلاً أخرج من
دارى المهدمة إلى النهر أنزله على شاطئه حيث بساتين الأمراء ، أقضى اليوم
كله متقللاً بينها أستمتع بمراى الرياحين ، وأستنشق عرْفَهَا الذِّكْرَى . فإذا
تعبتُ استرحتُ بجوار الماء ، وأخرجتُ ناى أناجيه ويناجينى !

— أموسيقى أنت ؟

— لَمْ أَجْرُبْ أَنْ أَصْفِرَ إِلَّا لِنَفْسِي .

وأخرج « راموسى » من ثنايا ثيابه نايا من غاب ، ساذج المظهر ،
وأراه الشيخ قائلاً :

إنه زميلى الذى لا يفارقنى أبداً ... زميلى المطلع على سِرِّى ، العالم بما
يحيش فى قلبى من أمان وأطماع !

- أمان وأطماع قد تبدوا لك بعيدة التحقيق ...
- إننى أضعها بين يديك ، فافعل بها ما أنت صانع !
- ألم تكن راضياً عن حياتك المداثنة ؟
- كل الرضا !
- إذا « هي » التى غيّرتْ حالك .
- من هي ؟
- تلك التى ذكرت اسمها مُشرِّفاً بذكره مدينة « رنسى » !
- نعم ، هي « أشمس » أميرة الأميرات ، وأقربهنَّ صلةً بفرعون الأعلى !
- أتميم حديثك . .
- رأيتهُ يوماً تتنزه في بستانها ، فسَحَرَنِي من أول نظرةٍ جمالها . رأيتهُ ترتاد الخماثل في حاشيتها ، فجعلتُ أرقبها خلف دَغَلٍ من الأشجار ، وأضاءت نفسى على الفور شمس وهاجة كَسَفَتْ لى دنيا عظيمة كانت مخفية عني ، وإذا بي أقطع على نفسى عهداً بأنها لن تكون لسواى ... ولما عدتُ إلى دارى ، وراجعتُ هَجَسَات ضميرى ، هَزَبَتْ بنفسى وكلى سخط وألم ، ولكن عهدى ما زال ثابتاً على الرغم من كل شيء لا يتقهقر ولا يتزائل ، بل يتقدم فى جُرْأة وإقدام ... ولكن كيف أنفذ ذلك العهد ؟ هذا ما كان يحيرنى ويَحْزُنُ فى قلبى . منذ ذلك اليوم جعلت

طريق إلى بستانها لا أعرف سواه ، أقضى على مقربة منه يومى أراها
ولا ترانى ؛ فإذا ما صعدتُ فى قصرها انتحيتُ نحو الشاطئ وتخيرتُ مكاناً
ظليلاً ، وبثتُ شكواى للنائى ، فكنتُ أسمعُه أحياناً يهمس لى :

« لماذا لا تحاول التقرب إليها ؟ ... لماذا لا تكشف لها عن
كوامن صدرك ؟ »

— ولماذا لم تدعن لما أوحى لك به صَفِيكَ النائى ؟

— أتريد منى أن أستمع لذلك الساذجِ الغرير ؟ ألم أقل لك من هى ؟
إن فيها من دَمِ الآلهة يا أبتِ ! ... كلنا نعلم أن عظاماً تقدموا إليها
بقلوبهم فردَّتْهم خائبين ... لقد أمضيتُ يا أبتِ الليالى الطوال أفكر
فى مصيرى معها ... لا بدَّ أن تقع مُعْجزة تُحوِّلنى من صعلوكٍ بائسٍ إلى أميرٍ
يفوق جميع الأمراء ، يرضاه فرعون وترعاه « إيزيس » ... وكان أن
اشتدَّ بى الضيق يوماً ، فجريت صَوْبَ النهر ، وهممتُ أن ألقى بنفسى
إلى التماسيح ... فى تلك الساعة الفاصلة سمعتُ هاتفاً يقول لى :

« اذهب إلى « حابى » الحكيم ، فعنده تتمُّ المعجزة ! » .

فتمتَّ الشيخ « حابى » :

أقال لك الهاتف ذلك ؟

— قَسَمًا « يايزيس » ربة الأرباب لقد سمعتُ صوته واضحاً يرنُّ فى

أذنى ، وكانت التماسيح قد خرجت برءوسها تنظر إلى مُتَمَنِّرة ، فوجدتُنى

في لحظة أقفز متراجعا عن النهر ، وانطلقتُ أعدو ... أ كنتُ أعدو حقاً ؟
لا أدري ! كنتُ أحس أني محمول بقوة خارقة غير منظورة ... وفي الغد
بعتُ ما أملك ، واستصفيتُ مالي ، وحملتُ زادي ، وسرتُ ووجهتي
دارك .

فأمسك « حابي » بيدي « راموسى » وضغطهما وهو يقول :
ستم المعجزة يا ولدى ... فعولُ على .
— إذاً ستجعلنى أمير الأمراء ، وإذاً ستجعل من « أشمس »
زوجة لى .

— إن على لا يتناول إلى مثل هذه الأمور .

— كيف ؟

— كل ما أقدر عليه أن أعمل على تغيير نفسيته .

— أوضَحْ يا أبتِ !

— سيتغير فيك كل شيء ... شمالك الأصيلة ستقلب إلى ضدّها :
الحول سيغدو نشاطاً متأججاً ، والقناعة ستكون طمعاً صاخباً ، والرحمة
ستفسح مكانها للقسوة والعنف ... ستكون حياتك يا « راموسى »
كالبركان الفوار ، لا يخبو له كلبٌ ، ولا يسكن له زئير !
فطأطأ « راموسى » رأسه ، وقال :
أبتِ !

— ليس تَمَّةَ طريق يَنيلك ما تطلب من ثروة وجاه ومجد إلا هذا الطريق !

وصَمَتَ « راموسى » فترة ، ورأسُه منحني على صدره ، وبغتةً رفع وجهه إلى « جابى » وقال :

ولكن حبِّى ، حبِّى . . . أيعتريه تَغْيَر ؟

— حُبُّكَ باقى بقاء الرُّوح الخالدة . . . ولكن !

— ماذا ؟

— أوافق أنك ستكون سعيداً بنفسك الجديدة بعد أن تَتِمَّ المعجزة ،
وأنه لن يطول بك الحَيْنُ إلى نفسك الأولى ؟

— . . . افعلْ بى ما تريد !

ودارت مَحْلة الحياة : الأيام تَلَوَّ الأيام ، والأشهر إثرَ الأشهر . . .
وكان مَلِكُ الغرب قد دفعه الطمع إلى امتلاك « مصر » ، فسير إليها
الجيوش الكثيفة ، وفزت المناطق الشمالية فى غير عُسْر ، ثم اندفعت فى
طريقها تكتسح أمامها جند الوطن . ولم يُجَدِ تعيين القائد الكبير « رودا »
أميراً على الجيش الذى أرسله فرعون لإيقاد البلاد . . . إذ أصيب « رودا »
بهزيمة نكراء ، وقتل فى المعركة ، وكاد الجيش يتفكك ويندثر ، لولا أن
قَيَّضَ الله له شاباً من بين المحاربين زَعَمَ عليه ، فأخذ يجمع شمله وَيُثِّتُ

فيه رُوحاً جديداً ، فلم ينقض وقت طويل حتى انقلبت الهزيمة إلى هجوم ، ثم انتهت المعركة إلى مطاردة العدو فاكنتساح كامل له . وأصبح هذا الشاب قائداً للجيش ، ولقب نفسه بالأمير الأسود ، إذ كان يرتدى السواد دائماً . . . ولم يقتصر هذا الأمير على تطهير البلاد من جيش العدو ، بل تابع زحفه في جزيرة غريبة ، ففتح « مملكة الغرب » بأسرها ، وأخضعها لفرعون ، فصارت تابعة « لمصر » .

كانت « رَنْسِي » المدينة ذات أربعة المعابد وخمس المسلات حاضرة « مصر » الثانية ، تحتفل احتفالاً شائعاً بقدوم الجيش المنتصر ، وعلى رأسه أميره الأسود ، فقد عاد محملاً بأسلاب وغنائم لم يأت بها قائد منتصر من قبل . وكان موكبه حافلاً بالأسرى العظام من الأمراء والحكام وسرّة الدولة المغلوبة . أما بقية الأسرى من الدّهاء فقد اكتفى بقطع أيديهم وأطلق سراحهم ، حتى لا يعطوا سير الموكب بكثرة عددهم . ولكنه احتفظ بتلك الأيدي ، فحملها معه ليقدمها إلى فرعون ، رمزاً للخضوع والطاعة !

وتمت مراسم الاستقبال في عظمة وخفامة جديرتين بالقائد العظيم والفاتح الكبير ! . . . ولكن الأميرة « أشمس » أولى أميرات البيت الفرعوني تخلفت عن حضور الاحتفال ، وأرسلت تعتذر لفرعون . وكان فرعون

يعرف شذوذَ طباعها واعتزالها العالمَ ، فقلَّ عذرُها على مضض . ولكن رسول الأمير الأسود جاءها يحمل من الأمير نفسه رغبته في زيارتها قبل الغروب لأمر ذي بال ، فلم تجد مخلصاً من استقباله ، وأمرت أن يُعدَّوا القصر لهذا القدوم .

وأخذ الأتباع يعملون بجدٍّ واهتمام في تزيين القصر ، فما كادت الشمس تُؤذِنُ بالمغيب حتى برز القصر خلال الظلام كأنه قطعة من لؤلؤ تتألق . وانتشر الطيب الذي في شَتَّى أرجائه ، فكانه روضة فوّاحة من الأزاهر النَّضرة !

وجاء الأمير في الموعد في حقل من قوَّاده ، ودخل القصر وهو يضرب بقدميه الصُّلْبَتَيْنِ الأرض ضربات شديدة ترَدَّد صداها في جوانب المكان ، وجعل يتلفَّت يَمَنَةً وَيَسْرَةً بوجهه الرائع الذي تَمُّ كلُّ لمحة من لمحاته على رجولة قويَّة قاسية . وكانت لعينه الواسعة إشعاعات قويَّة باهرة لا تقوى عين أخرى على تحمُّلها .

وما إن دخل البهو الكبير ، ورأى الأميرة واقفة في صدره تحفُّ بها وصيفاتها ، حتى توقَّف بغتة ، واتسعت حدقتا عينيه ، وفتحت وجهه في لحظة بنور متألق تشيع فيه الأحلام . وأمسك بيد رفيق له بجانبه وشدَّ عليها ، وطالت وقفته على هذه الحال ، والناس من حوله صامتون .

وأخيراً همس رفيقه في أذنه :

مولاي ! إن الأميرة تنتظرك ... تقدّم !
وتقدم الأمير الأسود بخطوات لم تردّد صداها جوانب المكان هذه
المرّة ، وركع أمامها ركعة المُتَبَتِّل أمام ربّه ، فأنهضته وهى تقول :
نحن الذين يجب أن نركع أمام المنقذ العظيم !
ورفع وجهه إليها ، وقال فى صوت متخافت :
عفواً مولاتى ! ... أمام هذا الجلال الإلهى الذى هو قِبَسَةٌ من «رع»
ونفحة من «إيزيس» يستشعر القائد العظيم ضالّة نفسه وتفاهة مجده !
— سيدى !

— ليس ثمة عظيم أمامك يا مولاتى ! ... كلنّا من أتباعك المخلصين !
وتهامس الناس فيما بينهم دَهْشِينَ حَيَارَى ...
لَمْ يُشَاهِدِ الأميرُ على هذه الصورة حتى فى حضرةِ فرعونِ الأعلى !
وبدأتِ الجموع تتفرّق ، والمكان يخلو للضيف وربة القصر ، وأخذ
القائد يَرَوِي وقائعهُ ، ويعدّد أسلابه ، ويذكر ما ناله من مال وضياعٍ
تتعادل معها أموال فرعون العظيم ... وختم حديثه قائلاً :
إن الأميرة لتعلم أن فرعون بلا عَقِب ، وهو الآن شيخٍ مثقلٍ بالمرض ،
وقد طالبتهُ الكهنة بَتَبَيِّ أميرٍ يجعلهُ وليّاً للعهد ، أميراً أهلياً لهذا المنصب الخطير .
— وهل وقع اختيار الملك على هذا المحظوظ ؟
فابتسم الأمير ابتسامةً ذات معنى ، وقال :

لقد أتم اختياره سرًّا ، وسيعلنه غدًّا في الهيكل الكبير !

وصمتت « أشمس » وهى تنفحص الأمير طويلا . . .

ثم انحنت فى خشوع ، وهى تقول :

يُسعدنى أن أكون أول من يقدم طاعته لصاحب التاجين ، ورِث

مُلْكِ الفراعنة العظيم !

فأمسك الأمير بيدها ، وقال :

هذا المُلْك العظيم ، وهذا النصر الباهر ، وهذه الأموال التى لا يستطيع

أن يحصيها أحد ، كل ما كَسَبْتُهُ وما سَأ كَسِبُهُ أضعه تحت قدميك أنتِ

يا أميرتى ويا مولاتى ! . . . أقدم لك كل هذا مقابل شىء واحد منك .

فأسبلت الأميرة جفניה ، وتابع الأمير حديثه فى لهجة مشبوبة :

كلمة منك يا « أشمس » تجعل هذا الوادى الفسيح بسكانه وكنوزه ،

هذا المُلْك الضخم ، طوعَ يدك . . قولى كلمة الرضا ، ثم مرى فلن يعصى

لك أحد أمرا !

ونفضت الأميرة ، وهى تقول فى صوت حيس :

ألا نذهب إلى المُستَشرف ، فنلقى نظرة على البستان ؟

فأجابها الأمير ، وهو حائر :

كما تريدن !

وزهدا إلى المُستَشرف ، وأطالت الأميرة النظر إلى الحديقة ، وهى تُصعد

بصرها في أشجارها وأزاهيرها . ثم قالت :
 أيسمح لي الأمير أن أقصَّ عليه قصة صغيرة ؟
 فأجابها ، وهو يزداد عجباً :
 إني مُضغٍ إليك يا أميرة !

— كان في الزمان الغابر فتاة من الأثرياء ، من أسرة رفيعة النَّسَب ،
 تحيا ناعمة البال ، في قصرها ذي البستان الكبير ، حياة ترف ورغد . ولم
 يكن لها مطمَع تصبو إليه إلا العنور على أليفٍ تنعم معه بحبٍّ ووفاء ، شأنها
 في ذلك شأنُ كلِّ فتاة . وحجَّ إلى قصرها أعلى الأمراء شأنا ، وأعظمهم
 جلالاً وثراء ، يطالبونها للزواج ، فردتهم بلا أمل .

— ولم ذلك ؟

— لأنها كانت مخدوعةً بنفسها ، مغرورةً بجمالها ، فلم يرقها واحد
 من هؤلاء الأمراء !

— ومن كانت تنتظر أن يتقدم لها ، بعد هؤلاء ، وهم صفوة البلد ؟
 وترثت الأميرة في إجابتها ، وهي تُسرِّح طرفها في الأفق ، حيث
 الظلام مقبلٌ في وحشته وصمته وأسراره . . . وقالت :

هي نفسها لم تكن تدرى ، ولكنها على الرغم من ذلك كانت تنتظر
 وتؤمل !

— وهل طال انتظارها ؟

— كلا !

— إِذَا عَثَرْتُ عَلَى ضَالَّتِهَا !

— نَعَمْ أَيُّهَا الْأَمِيرُ . . .

— أَمَا كَانَ قَائِدًا غَازِيًّا ؟

— كلا !

— أَوْ زِيرَ خَطِيرٍ هُوَ ؟

— كلا !

— إِذَا هُوَ مَلِكٌ مِنْ نَسْلِ الْأَلْهَةِ !

— وَلَا هَذَا أَيْضًا . . .

— مَنْ يَكُونُ ؟ !

وَأَرْسَلَتِ الْأَمِيرَةُ تَنْهَدَةً خَفِيفَةً ، وَقَالَتْ فِي صَوْتِ الْهَامِسِ :

شَابٌّ رَقِيقُ الْحَالِ ، مُرْهَفُ الشُّعُورِ !

— وَمَا مِهْنَتُهُ ؟

— لَيْسَتْ لَهُ مِهْنَةٌ . كَانَ يَقْضِي أَيَّامَهُ يَجُوبُ الْبَسَاتِينَ ، وَيَتَنَزَّهَ عَلَى

ضِيفَانِ الْأَنْهَارِ ، يَسْتَمْتَعُ بِمَحَاسِنِ الطَّبِيعَةِ !

— إِنَّهَا حَيَاةٌ أَقْرَبُ إِلَى التَّبَطُّلِ وَالصَّعْلَكَةِ . . .

فَتَمَتَّتِ الْأَمِيرَةُ بِلَهْجَةِ الْحَالِمِ ، وَهِيَ تَسْتَقْبِلُ بِعَيْنَيْهَا كِتَابَ الظَّلَامِ

الْمَكْدُوسِ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ :

قد يكون ذلك ، ولكنه الوحيد الذى استطاع أن يصهر كبرياءها ،
ويحطم تاج غرورها !

فندت عن الأمير صرخة :

هو ! ... أمكن ذلك ؟

— أجل لقد أحبته الفتاة ... أحبت فيه ذلك الشاعر المُرَهَفَ

الحس ، يُنشدُها أعذب ألحانه وأرقها !

— أ كان شاعراً ينظم لها القصائد ، ويُنشدُها إياها ؟

— كان ينظم قصائده بلا كلام ، ويُنشدُها إياها من مزماره

الرخيم ! ...

فأصابت الأمير هزة شديدة ، وقال فى صوت جيتاش :

وهل تلاقينا ؟

— كلا ، فهى لم تره ، بل أغرمت به على البعد ! ... ولا تدرى

أراها أم لا ؟ !

— لا ريب فى أنه رآها ...

— ليس ذلك مؤكداً ، فأنظارُ هذا الشاعر الجوال كانت أقصر من

أن تخترق خمائل البستان أو جدران القصر ، لتكشف عن الفتاة وتلتقى

بأنظارها !

— ياللفتى البائس ! ... لو علم أنها تُضمِرُ له هذا الحب لطار إليها ،

وارتمى تحت قدميها يَلْتَمِسُهَا في عبادة !

— من يَذْرى أيها الأمير؟ ... إنه فتى غريب الأطوار ، يعيش
وَفَقْ هَوَاهُ ... قد يرفض حبها لو تقدمت به إليه !

— مُحَال !

— لو كان يعلم كيف أحبتَه هذه الفتاة ، وكيف أنها تَرْضَى
أن تعيش معه ، تُقاسِمُهُ حياته الطليقة في دنياه الرَّحْبَةِ الوضَاءَةِ ، لَقَبِلَ
منها هذا الحب !

وتتم الأمير بكلمات متقطعة ، وقد شدَّ يده على حاجز المُسْتَشْرِفِ ،
حتى كادت أصابعه تَدْمَى . وتابعت الأميرة حديثها :

لقد بَرِمَتْ الفتاة بحياة الثروة والجاه التي تحياها ، وتوضّحت أمامها
بشاعتها ، وأحست ثِقَلَهَا المرهق يَحْبِسُ أنفاسها ... فرغبت أن تَفِرَّ
من بيتها تستبدل الكونخ الساذج الهادئ بالقصر المنيف الصاخب ،
والرداء الخفيف المزين بالأزهار بالثوب الثمين اللامع بأوصال اللآلئ ...
لقد بَرِمَتْ بكلّ شيء يحوطها ، واشتدت بها الرغبة أن تَهْرُبَ ، فتَلْحَقَ
بشاعرها تقضى حياتها في جَمَى مزماره !

— ولكنها لم تفعل !

— لقد كادت ... ولكن الفتى اختفى فجأة .

— أَهْرَبَ ؟

— إن الناس يُرْجَفُونَ بموته ، فقد تكون التماسيح أكلته ... ومن ثمَّ أسدلت الفتاة على حياتها سِتْرًا غليظًا يحجبها عن العالم أجمع !
— قد تَسْلُوهُ يوما ، فتَرْضَى الزواج بأمر كبير !

— إن القصة تحدِّثنا أن الفتاة قضت في عُزْلَتها عامين ، وهى لم تتغير ... إنها لا تطلب الأمير ولن تطلبه ، بل ستحيا مترقبةً شاعرها الفقير كما هو ، بردائه الساذج وقلبه الكبير ... لن تستبدل به أحدا ، مهما يعظم قدره ، ويتسع ماله !

— وهنا تنتهى القصة ... أليس كذلك !

— تكاد تنتهى ، والبقية فى كلمتين ... أتريد أن أتمِّها لك ؟
فقال الأمير ، وهو يَضَعُ كلماته فى حسرة مكتومة :

إذا رغبتِ أتمِّها أنا لك !

فمايلت الأميرة ، وعرضت على وجهها ابتسامة ، وقالت :
كيف ؟ أو تعرفها ؟

فقال فى شيء من السهوم :

إنَّ حِذْقَكَ فى رواية القصة قد جعلنى أَحْزَرُ خاتمتها !

وراح الأمير يُحَدِّثُ بصره فى نجوم الليل البعيدة ، كأنه يريد أن يستلهم منها كلمة نصيح أو هداية ... ولكن لم تَطُلْ وقفته على هذه الصورة ، فانحنى أمام الأميرة يقول :

لن أنسى ما حييتُ حُسْنَ احتفائكِ بي !

وقبَل يدها قبلة طويلة عميقة ، ثم ترك المكان لا يَلُوى على شيء .
وأَقَلَّتْهُ على الفور مجلته الحربية ، واستأذن رفاقه في أن يَمْضِيَ
وحدَه ...

وانطلقتْ به العربة هائمة في أديم الصحراء ، تشقُّ أمامها سِجْفَ
الظلام شَقًّا !

في غفوة الأفئدة

إذا اختار القدر امرءاً فضرب عليه رقابته ، وأحاطه بأنظاره ، فإن ذلك المرء يحيا راسقاً بين قيود وأغلال .

ليس القدر إلا وليد هذه الحياة ، فيه الكثير من خصائص المخلوقات الدنيوية جميعاً ، بل إنه ليمثل هذه الخصائص أقوى ما تكون عنفوانا وروعة . والمخلوق الدنيوي لا يفهم من الرقابة والرعاية إلا أنها فرض أنظمة وتقاليد وأوضاع يُنمّتها وفق هواه ، ويتخذها ذريعة إلى بسط سلطانه على من يدعى حمايته ورعايته .

وإذن فالقدر هو المثل الأعلى لتلك الظاهرة الحيوية ، ظاهرة الحماية والرعاية التي تكمن في طواياها نزعة الهيمنة والتأثر .

فإن قيل لك إن القدر يرعاك ويرقبك بعين عنايته ، فاعلم ، علمت الخير ، أنك قد أصبحت في عداد ذلك القطيع الجرم ، يسير متراصاً محني الهام في طريق مرسوم ، لا يفكر في الحيدة يمنية أو يسرة ، ولا يعن له أن يتطلع بأنظاره إلى الأفق النير يستجلي مصدر ما يعم الكون من ضياء ،

ولا يدور في خلدَه أن يُقدَّرَ ما قد يعترض طريقه من عقبات وعراقيل .
 حَسْبُه أنه ساعٍ على أديم الأرض في غير حرية ولا اختيار ، صاغِرٌ
 يستملى إرادة القَدَر ، قانعٌ بذلك القسطِ من العطايا قلَّ أو كثر .
 وما له لا يقنع بذلك ، وسواءٌ لديه القليلُ والكثيرُ ، ما دامت جَذْوَةُ
 النفوس خادمة ، وما دامت الأغلالُ تُثْقِلُ الأيدي والأعناق ؟
 على أن للقدَر ساعات ، أو قُلْ لحظات ، تغفو فيها عينه ، فلا يملك
 رقابة ولا رعاية . أو لعلَّ القدر إنما يَكِلُ بصره بعضَ السَّكَّال ، فيلتمس
 وقتَ دَعَاة ، ومُهْلَة جَمَام ، فإذا هو يُسْبِلُ جفنيه أو يكاد .
 في هذه الساعات ، أو اللحظات ، تَتِمُّ خوارق ، إن شئتَ سميتها
 معجزات ، وإن شئتَ قفل ثورات ، فليست تسميتها بذات بال . وهى على
 أية حال خروج على العُرف المألوف ، وانحراف عن الطريق المرسوم . فيه
 تتقلب أوضاع ، وفيه تذهب دولة وتقوم أخرى .
 فَمِنْ هذه الخوارق ما يترك أثراً عميقاً لا يَعْقُوهُ كَرُّ السنين ، ومنها
 ما يمرُّ عَبْرًا ثم يمحوه ذَيْلُ العفاء .
 ومهما يكن من أمر ، فإن هذا الكون المُنْقَلَبَ بأعباء الأقدار وأحواله
 يفتنم تلك الغفوات الخاطفة ، يتخفَّفُ فيها مما يُثْقِلُه ، وينطلق ليتنفسَ
 خارج القيود والحدود .
 وإني لزعيم بأن العبقرية لم تكن إلا وليدة هذه الغفوات التى تغفوها

الأقدار ، فتنبثق العبقرية كالقذيفة العنيفة ، ترُوع بانفجارها ، وتبهَر بسطوع ضوءها ، وتضكُّ السمع بدويها . . . وإنها بذلك لتشقُّ جديداً من الطريق لم يكن للكون به عهد من قبل .

وحين ينبه القدر من غفوته ، يجد نفسه — كما يقولون — إزاء « أمرٍ واقع » فَيُسَكِّتُ غضبه ، وَيَكْظِمُ غيظه ، ويرفع سوطه ثانية يلهب به ظهر القطيع ، فيسير في ذلك الطريق الجديد الذي شقَّته العبقرية على الرغم من إرادة القدر المسيطر .

ومن حسن الحظ — أو من سوءه — أن العبقریات لا تستطيع الظهور في كل غفوة من غفوات القدر ، فلو أنها ظهرت كلما غفأ لما استراح الكون من عناء الضرب في آفاق جديدة مديدة تتوالى في غير مهل . والكون على تطلعه إلى التخلص من أثقال القدر ورقابته ، يُؤثِّرُ الدَّعة والراحة أحياناً في ظل العبودية والانتقاد .

فأما ما يقع كثيراً في غفوات القدر ، فهو الأحداث الهينة التي لاتسلم من شدوذ وانحراف ، ولكن أثرها لا يعدو نطاقها الضيق ، وتجعلها المحدود .

وربما كان شأن الخادمة « فكرية » مثلاً لهذه الأحداث الهينة التي تَنجُمُ حين يغفو القدر . فإن الحادث الذي مرَّ بها ، وإن عدَّه الناس من التوافه التي لا خطر لها في مجرى الحياة ، تعدُّه « فكرية » نفسها

أخطر حادث يشغل الفكر والبال ، فهو عندها أمر جسيم ، وحدث عظيم ،
حتى أصبح لزائماً علينا أن نذيقه على المَلَأِ ، لِيُقْتُوا في أمره بما يشاءون .
أول ما يجب الإشارة إليه أن « فكرية » نشأت في كَنَفِ القدر
يرقُبها ويحميها ، ويرسُم لها الخُطَطَ ، تأمينا لمستقبلها على نحو ما يريد .
هي فتاة يتيمة لم تر لها أمًّا ولا أبًا ، ولا تعرف لها أحداً من ذوى
القربى .

أَيَجْمَلُ بِالْقَدَرِ أن يترك فتاةً في مثل حالها ، تتقاذفها أسباب التشريد ؟
إنه لَأَكْرَمُ من أن يرضى لها هذا المصير !
وكان أن اختار لها مهنة الخدمة ، فقد أدرك القدر بثاقب فطنته أن هذه
المهنة ملائمة للفتاة ، مناسبة لما أُوتِيَتْ من مواهب .

قضَى القدر بهذا الحكم ، فأصبحت « فكرية » خادمة مؤبدة في
بيوت خلق الله . . . تنقلت من أسرة إلى أسرة ، ولكنها ظلت كما هي ،
تمارس أرذل الأعمال وأكثرها إمعاناً في المشقة .

وقد استقرَّ بها المَقَامُ اليومَ في أسرة يقول عائلها إنه رئيس إحدى
المصالح ، وهو يحيا مع زوجته وأطفاله الثلاثة وأمّه في الطبقة الثالثة من دارٍ
حديثه البناء في أحد الأحياء المتواضعة .

وإذا استطعت أن تتمثل هذه الطبقة بأثاثها ومتاعها وأهلها موضوعةً
جميعها في صينية ، فتمثل أن هذه الصينية مَحْمُولَةٌ على رأس الخادمة

« فكرية » تروح بها وتغدو في الحياة ، مهما تكاثرت فيها الصّحاف ،
وَتَقَلَّتْ بِهَا الْوَطْأَةُ !

ولقد ظلت « فكرية » تحمل هذه الصينية الضخمة ، حتى قرأ في ذهنها
أنها ستحملها أبد الدهر ...

ما أشبه « فكرية » بذلك الثور الذي يحمل الدنيا بما حوت من
رزايا وأحداث وشجون ، وإن « فكرية » لتجد في هذا بعض العزاء ،
إذ تعلم أن الأقدار قد جعلتها هي وذلك الثور الصبور الكريم في
منزلةٍ سواء !

لم تعد « فكرية » تستنكر شيئاً مما تُسأله من خَسَف ، وما تتعرض
له من أذى . ولذلك لم تعد تُدير في ذهنها أن لها في الحياة مذهباً غير هذا
المذهب ، فقد دار بها دُولاب العيش تلك الدورة الراتبة التي لا بدء لها
ولا ختام ، كالحلقة المفرغة ليس لها طرف ، فانسدل على عينيها غشاوة ،
وران على نفسها صدأً ، ولم يبق في مجال تفكيرها منفذ ، فانطبعت على
نُحْيَاهَا سِيَاءَ الْبِلَاهَةِ وَالتَّبَلُّدِ وَالْجُمُودِ .

تراها في غالب أمرها فاعرة الغم ، تحدق فيما أمامها بعين تأثمة النظر ،
فاذا ما أدركها بعض الانتباه ، وحاولت أن تشحذ ذاكرتها لاسترجاع
ما كانت تفكر فيه ، لم تبلغ مما تريد منالاً ... وأنى لها أن تقتنص شيئاً
من غير شيء ؟

سلختُ «فكرية» من عمرها عِقدَيْنِ من السنين ، لم تتبدلُ بها الحال إلا قليلاً ، فهي دائماً فتاة قيّنة زادها الإمتهانُ ضُموراً وقمّاءً ، وطَمَسَ ما عساه يكون فيها من مخايلِ الوسامة .

ولك أن تقولَ إن «فكرية» كانت تعمل في ذلك البيت صباحَ مساء ، فقد كانت كَرَقَاصِ الساعة في جيئة وذهوب ، تَفْرُغُ من أعمال البيت في غُيوب الشمس ، فتستقبلُها في آناء الليل شواغلُ الأطفال !
وكان بالدار مُسْتَشْرِفُ أنيق طَلَقِ النسيم ، تتوخّاه الأسرة لتتجمع فيه مشتركةً في حديث ومسامرة ، وإن «فكرية» لتغبِطِ الأسرة على ما تلقى من نعيم في هذا المُسْتَشْرِفِ الرَّخِيّ ، ولأَ ما رَبَّ لها في الحياة فوق أن تنعمَ بقسط من الراحة والنوم في ذلك المكان المرموق ، تُلَاطِفُها النَّسَمَاتِ الرَّقاق ، وتراسلها النجوم بِالْمَعْجَاجِ الطَّاف ، وَيَكْفُها الليلُ بِغِلَالته السَّاجِيَةِ !
ولكن ذلك المُسْتَشْرِفُ العَزِيزُ ظلَّ وَقفًا على السادة ، لا تَقْرَبُهُ خادمة لها مكانها المعلوم .

على أن هذه الحقيقة لم تكن لتمنعها أن تحلمَ بالتنعم في ذلك الفردوس ، بقدر ما في صدرها من مجالٍ للمُني والأحلام !
بقيتُ «فكرية» على حالها تلك ، تدور في هذا المَدَار ، حتى كانت أُمِسِيَّة من إحدى الأُماسِيّ ، في عهد الحرب الماضية .
في لحظةٍ من هذه الأُمِسِيَّة أَحسَّ القَدَرُ إرهاباً وعناء مما يمارس من

جهود الرقابة والعناية بتلك الفتاة ، فإذا بجفنيه يتثاقلان ، وإذا هو تأخذه
سِتَّة من نوم .

إنها غفوة سائحة ، وإن عُدَّتْ في الحساب أياماً وأسابيع . . . أين
تقع تلك المدة في حساب الأقدار ، وإن طالت في حساب الزمن ؟ !
انطلقت صغارة الإنذار تعوي . فشمل الناس دُعر ، واضطربت
الدار بما فيها من طبقات ثلاث ، وتوالى الهرج والمرج ، وعلا الصياح
والعويل ، وانحدر الأهلون يزحمون السلم ، ويهرعون إلى المخيا . . .
وكانت « فكرية » من فرط التعب والإجهاد قد ملكها نوم ثقيل ،
فلم تنفتح عيناها إلا بعد أن خلا المسكن ، فنهضت تستوضح الأمر ،
وأخذت تسائل نفسها :

ما سرُّ ذلك الاضطراب ؟

وَفِطِنَتْ إلى أن ثمة غارة ، وأن أهل الدار قد أخلوها ، فاندفعت في
غير وعى إلى الباب تطلب حماية المخبايع الناس ، ولكنها لمحت المُستَشْرِفَ
ينبسط فيه ضوء القمر ، ويرفرف النسيم . . . وفي ذلك الوقت كانت
الجبلة قد انقطعت ، وعمَّ المكان هدوء وسكون .

إن « فكرية » لترجع البصر فيما حولها ، فلا ترى في البيت سيداً
سواها ، وإن المُستَشْرِفَ بوسائده الوثيرة لكأنما يدعوها إلى التمتع
والاستمتاع !

وظلت الفتاة هنيئة تتقاتل نزعاتها : أتفادر الطبقة أم تبقى ؟
وما لبث الهدوء الشامل أن سرى إلى نفسها ، فاستشعرت بعض
الطمأنينة والسكينة .

إنها لتتمثل موقفها في الخيا مع الأطفال ، تحمل هذا وتحنو على ذلك ،
وتعاني أشات المتاعب من هنا وهناك .

وشعرت بقلها يفتتح ، وبقدميها تخطوان إلى المستشرف ، وإذا هي
تهاوى على الوسائد ، وتتقلب يمناً ويسرة .

إن جسدها لم يعرف قبل اليوم إلا صلابة الأرض وخشونة
الوساد ...

ما أطيّب المستشرف من مضجع ، وما أنعم وسائده من فراش !
وطفقت تستنشي كسبات العشي ، وتمطى في تلذذ واستمتاع .
وتواردت اللحظات ، وهى على هذه الحال ، تشعر بأنها تسبح في عالم
آخر ، ملؤه الهجة والإيناس .

وبغنة قرعت سمعها قعقة مدوية اهتزت لها جوانب الدار ... فألقت
« فكرية » نفسها تهبط واقفة ، وتزمع أن تأخذ طريقها إلى الباب ،
ولكن القذائف ترادفت كأنها حُمم البركان ، فإذا بأوصالها ومفاصلها يدر كها
تخلع واصطكاك ، وما هى إلا أن تهاوت فاقدة الرشد .

وبعد وقت لا تدري مداه ، ذهب عن « فكرية » الإغماء ، قاشرا ببت

متطلعة حولها ، فوجدت نفسها في مكانها من المستشرف ، وقد توهجت الشمس ، وَمَتَعَ النهار .

كل شيء كما كان ، أو يكاد .

ولكن ما بال هذا التراب المهييل ، وتلك الحجارة المتناثرة ؟

ثمّة شيء قد حدث ، فأی شيء هو ؟

مهما يكن من أمر فإن « فكرية » لم يُصِبْهَا أذى ، إلا ما ينتظمُ جسدَها من فتور ، وما يَرِين على عينيها من خدر .

ووثبت في خاطرها على الفور أشباح سادتها من أهل البيت ، فعاجلتها رَجْفَةٌ .

عليها أن تهَرَّع إلى مكانهم ، تقوم بواجبها نحوهم ، وإلا تعرضت للنكال ، وذات على أيديهم عذاب العقاب !

وانطلقت تريد الباب ، وكان مقفلا ، فدفعته بِجُمُع يدها ، وهمت أن تخطو ، فراعها أن ترى هُوَّةً سحيقة لم تكد تُدَلِّي إليها أنظارها حتى أخذ برأسها دُورًا ، فأمسكت بالجدار زائغة البصر ، وأنفاسها تتلاحق . ثم ارتدّت وقد حوِّمت في خاطرها أفكار وصور .

وفطنت بعد تفكير وَرَوِيَّةٍ إلى حقيقة ما جرى . . . فدرجت في محاذرة واحتراس إلى سُورِ المستشرف تطل على الطريق ، فتنزعَت مما رأت حولها من خَرِبَاتٍ فِساخ تتراكم فيها الأنقاض والطلول . . . وأخذت

تُنعم النظر هنا وهناك ، وكأنما قد أصابها مس .

وَيْلَهَا ! . . . لم تُبق الغارة من أبنية الحى إلا جداراً عالياً يحمل
المستشرف الذى كان مَخْدَعَهَا أثناء الليل ، مثله كمثل منارة وَحْدَهَا
قائمة في ملتطم الموج !

وارداد تَلَقَّت الفتاة في جزع واضطراب ، وَندَّت من حلقها صيحات
استغاثة مكروبة ، فاستجاب لها من الطريق بعضُ أصوات .

وبعد قليل رأت الناس يتجمعون على مسافةٍ من أسفل الجدار ، وهم
يُشْرِعُونَ أَبصارهم في خشية إلى تلك الأعجوبة . . . تلك الفتاة المعلقة بين
السماء والأرض !

وأخذت حَلْقَة الناس تتكاثف ، وظهر بعد لآى ذلك الشرطى العتيد
يلقى الأوامر والنواهى ، في مِشْيَةٍ مُخْتَالَةٍ وصوت جَهَوْرِي .

ومضت لحظات قلائل في انتظار الإنقاذ . . . فبدا أعوانُ المطافئ
فارعى القامات حِدَادَ النظرات تلتمع على رؤوسهم الخُودَات الصُّفْر ، ومن
حولهم رجال الإسعاف في مِشْيَتهم الوديعَة ونظراتهم الساكنة تزهو على
رؤوسهم القُبَعَات الحُمْر .

وسرعان ما نَجَمَ وسط الجمع رجل كأنما انشقَّ عنه أديم الأرض ، قد
انتفخت جيوبه بالأوراق ، وامتدت يَدُه بآلة تصوير ، وهو يتواثب هنا
وهناك ، ويقول :

افسحوا للصحنى طريقاً !

ولبث الفتاة تواصل استغاثتها ، وكلما تجمّع الناس ازدادت من حماسة
واهتياج .

وانعقد تحت المستشرف مؤتمر تدّاول فيه الناس الحديث في شأن
الإنقاذ : على أى نحو يكون ؟

الجدار متصدّع يريد أن ينقضّ ، ولا بدّ من تدارك الخطر قبل وقوعه ،
وفي كل لحظة تمرّ مقامرة بحياة الفتاة !

وما هى إلا أن بسطت ملأه أخذ بحواشيها رجال المطافئ والإسعاف ،
وصاحوا بالفتاة أن تُلقَى بنفسها ، وإلا تعرضت لِهَلكٍ وشيكٍ ...

ووقفت الفتاة تقدّم رجلاً وتؤخّر أخرى ، وهى فى معركة من النزعات
والمخاوف ، وخيّل إليها أن المستشرف يهتّز اهتزاز التداعى ، فاشتعلت
فيها العزيمة فجأة ، وألقت بجسمها فى الفضاء ، على حين وقف الصحنى
بمصورته يلتقط الصورة الفريدة لإنسان يُلقَى بنفسه إلى الموت ، فراراً
من الموت !

وستطّت الفتاة على الملاة تشملها غيوبة ، وما إن لامست قدمها
الأرض ، فاستعادت وعيها ، حتى جعلت تقلّب فى الجمع نظراتٍ ذاهلة ،
وما عتّمت أن استبدّ بها ضحك موصول .

وتحقّق حولها الناس يسألونها ، ورجال الإسعاف يتفقدونها ، وتناولت

إليها الأعناق تتَمَلَّى هذه الأعجوبة ، فلا تخطو خطوة حتى يزدحم طريقها
بأنخلق .

وشعرت « فكرية » بأنها مُلتَقَى الأنظار ، وقِبْلَةُ الاهتمام ...
ما تلفظُ من قولٍ إلا التقطته الناس بأذانٍ عَطَشَى ، وما توى أو تشيرُ
إلا أثارت الدهشة والإعجاب .

وزُهِيتْ نفسها بتلك الآلة المصوّرة التي تُخَصِّي عليها حركاتها أنى
سارت !

وبرزت لها من الصفوف امرأة حَيَزَبُون بادية الشيب ، ترتدى السواد ،
في مظهر من وقار مصنوع ، وإنك لتستطيع أن تقرأ في أسارير وجهها
المعروق حياة المغامرة والجرأة ، ولا يعوزك مِصْدَاقُ ذلك فيما تسمعه من
صوتها العريض الذى يمتلك الآذان .

اقتربت المرأة من الفتاة تُبَسِّمِل وتُحَمِّدِل ، وتمضى فى تعويذات
وأدعية ، وتُضْفَى على شباب « فكرية » ووسامتها حُلَّةٌ من الإطراء
والإغراء ، فاهتزت الفتاة لهذا الحديث ، إذ كان أول ما يطرُقُ سمعها
فى مراحل حياتها من تمدّح وثناء ! ...

والتفتت طَلَقَةً المُحَيَّا إلى المرأة ، فاستأنفت المرأة تثنى وتمدح ، ثم
جاذبتها حديثاً لم يَظُلْ ، ولكنها عرفت به من شأنِ الفتاة ما فيه غناء !
يتيمة لا عائل لها ؛ فأما الأسرة التى كانت الفتاة خادمةً عندها ،

فلاريب أن الغارة قضت عليها .

كانت تلك المرأة الحيزبُون فَطْنَةً نَفَّاذةَ البصر... من نظرة واحدة ألقها على الفتاة استبانَتْ لها سرائرُ نفسها ، فعرفت أنها غُثمٌ جدير بالاهتمام . وما أسرعَ أن عرضت المرأة بيتها على الفتاة تنزل فيه ضيفاً مكرماً ، ريثما يستقرَّ بها الحال ، فلم تجد الفتاة مَحِيصاً من القبول .

أصبحت المرأة لهذه الفتاة هادياً ورائداً ، بل لقد أصبحت لسانها الناطق . فإذا ما أقبل امرؤ يستوضح شأنَ الفتاة وما جرى لها من مغامرة ، نَصَدَّتْ له المرأة تحيب ، حتى إنها لتصف تلك السقطة الرائعة ، كأنما هي صاحبُها !

ورافقت الفتاة تلك المرأة إلى بيتها ، فلقيت منها غايةَ الخفاوة والإعزاز ، وقضت يومها هانئة رافهة العيش ، ترفل في ثوب قشيب أنيق .

وفي الغد خرجت الصحفُ إلى الناس تحمل أنباء الغارة الشعواء ، وما كان لها من أثر وبيل ، ولكن قصة الفتاة وأعجوبة الجدار المعلق كانت واسطة العِقد في هذه الأنباء . فعَجِلَتْ المرأة بهذه الصحف إلى الفتاة ، تُريها صورها ، وتُلقي على سمعها ما كُتِبَ في شأنها . فامتلات الفتاة من عَجَبٍ وازدهاء ، وسرعان ما توردت وجنتاها ، والتمعت عيناها ، وبدت مبسوطة القامة ، ناهدة الصدر ، فأكسبها ذلك بهاء ورؤاء زانه ثوبها القشيب الأنيق .

وتوافدت على الدار أفواج المتطلعين يستزيدون من أنباء الفتاة ، ويرغبون في إمتاع أنظارهم بهذه المعجزة الحية ، بظلة الغارة ، تلك التي انفردت بالنجاة على نحو طريف ، في حين أن العشرات من جيرانها قد أصبحوا حُطاما تحت الرغام .

وما كانت المرأة تَصْنُ على الرؤاد بما يشفي غليل الفضول ، فكانت تحتفي بمقدمهم ، وتجلس هي وضيفتها إليهم ، وتتولى بنفسها رواية القصة ، وتطرزها بالتزويد المطرد ، حتى غدت حقيقة الواقعة فرعا ، وغدا الخيال المزيد أصلا .

وبينا المرأة تروى القصة ، تظل الفتاة مصغية يقطي ، حتى انتهى بها الأمر إلى اعتقاد ما تصوغ المرأة من فضول ، فما كان عقلها بقادر على أن يميز بين ما جرى وما يُروى .

تواصل اهتمام الناس بتلك الطرفة الإنسانية ، فتواردوا زرافات على الدار في اليوم بعد اليوم ...

وما لهم يزهّدون في تلك الطرفة الرائعة ، وهم ما يكادون يلهجون في الطريق حدّثا من الأحداث ، من نحو صدام سيارة أو ترام ، أو مشاجرة عابرة ، أو شأن غير مألوف ، إلّا نسوا أنفسهم ، وعدّلوا عن طريقهم ، فتجمعوا يُشبعون منهم برؤية صريع يُختصر ، أو جريح يُبْنى ، أو ممسوس يهذى ؟ وأيُّ تثريب عليهم في أن يفعلوا ذلك ، وهم في عجلة الحياة الراتبة

مسوقون ، يدرّكهم سأم التّكرار ، ومَلَالَةُ المألوف ، فتشتدّ حاجتهم إلى ما يلهب العاطفة ، ويشير اليقظة ، من منظر جديد ، ومشهد طريف ؟ !
وتتنقّل في الدار أكواب المربطات ، والفتاة بين الّجمع كأنها عروس
يوم الزّفاف ... تختلط بين جوانحها مشاعر الإبتهاج والاهتياج !
عرّوس ...

الحق أن كل شيء كان يمهّد لذلك الحادث السعيد .
كان حديث العرّس يعتلج بين الصدور ، وتتناجى به النفوس ، وإن
لم تنبّس به الشّفاء !
أخليفة هذه الفتاة حقاً بأن تكون عروساً مكرّمة تتهافت عليها القلوب ،
وهي التي كانت إلى الأمس القريب في منزلة الهوّان ، لا يعبأ بها أحد ؟
لقد توارت خادمة الأمس فيمن توارى من صرعى الغارة ، وما تلك
التي تتجلى اليوم على الملاّ إلا بطلة تبهر العيون .
إن الرجل ليأخذ اللاّء ، وإن كان زائفاً موقوتاً ، وهو بحكم عنجهيته
وأنايته يأتي أن تظهر عليه المرأة وتنافسّه في مجالات التبريز ، فلا يكاد يلمح
امرأة توشك أن تُشْرِقَ في مطلع من مطالع المجد ، حتى تراه قد أسرع إليها
يضرب عليها رؤاؤه ، ويمدّها لها ظله ، أو هو يوهّم نفسه بأنه يهبّها الحماية
والصون !

ومن الرجال كثير طلب المجد فباء بالإخفاق ، فتراه يلتبس العوضَ

من كل باب ، فإن بدت له امرأة ذاتُ صيت أو منصب ، آثر أن يكون لها زوجا ، حتى تُصنّف عليه من صيتها أو منصبها مجداً طالما كان فردوس أحلامه المنشود !

كذلك نجمت فكرة الزواج ... زواج « فكرية » التي أصبح يلمع اسمها في محافل الناس وأندية الشُّمار .

وكان السابق إلى الجهر بالفكرة رجل جَسُور من ذوى المغامرات ، لم يبق من شهرته إلا شارب مفتول ، وكَتِفٌ مَلَأى ، ومن وراء ذلك ثروة طيبة . فأفضى بفكرته إلى المرأة الحليزبُون ، فأودعت قلبه أملاً كبيراً ، ووعدته عوناً كريماً ، فأغدق على الدار هداياه وعطاياه ، وانصرف مشكوراً يرتقب اليومَ الموعود ...

وما إن بارح الدار حتى تعاقب عليها ألوان من الخطّاب ... هذا جَزَار من أثرياء الحرب ، يمتاز بأصابع ضِخام رُصّعت بالخواثيم البراقة ، و « بُلْغَةٍ » أصيلة تلتمع صُفرتها الفاقعة ، وقد هَفَّتْ نفسه إلى أن يضيف إلى متاعه تلك البطلة ، استكمالاً لما عنده من ضروب التَّحَف والطَّرَف !

وما إن فاتح المرأة الحليزبُون حتى أودعت قلبه كبيراً من الأمل ، ووعدته كريماً من العون ، فأفرغ ما فى جيبه فى يدها ، وانصرف مشكوراً يرتقب اليومَ الموعود ...

وطَفِقَ الخطّاب يطرقون الدار بهداياهم والطفاهم ، ويصدُرُون عنها ،

ملء حقائبهم وعود وأمانى ، على حين تسترسل الفتاة في تدلُّلها ومغالاتها ،
 وتطمئن المرأة الحيزيون بما يُفَاضُ عليها من خير كثير ، وورق كريم .
 وكانت المجلات قد آنست في شأن هذه الفتاة مادة شائقة للحديث ،
 فتفتنت في تفصيل الموضوع ومجاذبة أطرافه ، وعُنيَت بتزيين صفحاتها
 بأنواع من صور الفتاة على اختلاف الأوضاع ، فازداد الخطَّاب إقبالاً ،
 وزحرت بهم الدار ليلَ نهار ؛ كأنها قاعة المزایدات يشتد فيها التنافس ،
 فارتفع سعر الفتاة بهذه المضاربة ، حتى جاوز المئى والخيال ... وبات الأمر
 معركة بين متنافسين تأخذهم حمية الغلبة ، وتأسرهم نشوة التملك ،
 ويحدوهم نداء الظفر ؛ فهم متقاتلون متفانون ، لا إغلاء بالسلة المعروضة ،
 ولكن إحرازاً لقصب السبق ، وإمتاعاً للنفس بلذة التغلب !
 وأوشكت الفتاة أن ينتهى بها الأمر إلى رجل من الأثرياء الذين
 أقعدهم طولُ العمر ، وكان لا يكاد يدرى شيئاً من شأن هذه الفتاة .
 وقصارى أمره أن مثله كمثل امرئ في بعض طريقه ، صادفته جموع
 متدفقة ، فصَبَّأ إليها قليلاً يبتئ ، فها هو إلا أن غمرته الجموع ، وتشابكت
 وراءه الصفوف ، فلم يجد إلى الطريق مخرجاً ، ولم يلبث أن ساير الجمع
 فيما هم مقبلون عليه .

أوشكت الفتاة أن تكون لهذا الرجل زوجاً ، لولا أن وقع ما ليس
 في حِسبان أحد .

هنا اختلجت أحفان الأقدار، فكان ذلك إيذاناً بانقضاء الغفوة ،
واستئناف الصَّحْوَةِ !

وما إن انطلقت من عين الأقدار أولُ شعاعة ، حتى نفذتُ تتفقد
رَبِيبَتِها الفتاة ، خشيةً أن يكون قد أصابها مكروه .

في ذلك الوقت توالى الغارات عنيفةً أشدَّ العنف، تحمل إلى النفوس
ألوان الفرع ، فنفر كثير من الناس عن العاصمة يلتمسون المأمنَ البعيدَ ،
وكان في طبيعة النافرين وَجِئُها الثرى الذى كاد ينتهى إليه أمر الفتاة .

وشغل الأهلون ، كلُّ بشأته ، وانصرفت الصحف إلى ذلك الجديد
المتواتر من أنباء الغارات وأفاعيلها فى الناس ، فأسبل النسيانُ سجوفه على
« فكرية » وبطولتها التى طوت صفحاتها مُحَدَّثَاتُ الأيام !

لكل ساعةٍ فى الحياة بطولتها ، ولكل طالعةٍ أفول ، ولكل خافقةٍ
سكون !

فى لحظاتٍ تغيَّر مصير تلك التحفة التى علا قدرها وغلا مهرها فى سوق
المزايدة ، فأصبحت اليوم بضاعة مُرْجَاة !

ووجدت الفتاة نفسها تدفعها إلى الشارع يَدُ المرأة الحيزبون . فتداولتها
الطرق ، حتى أسلمها التَّيْه إلى دار ذاتِ ثلاثِ طبقات ، وهنالك فى الطبقة
العليا تلاقت هى وسادتها الذين انقطعت بهم صلتها ، حتى حَسِبَتْهم فى
ذمة الصَّنُون .

واسترجعت الفتاة مكاتبتها في الأسرة تُدافِسُ ذلك الثور الْجَلِيدَ
الْحُمُولَ الذي يَضَعُ على قرنيه متاعب الأرض .

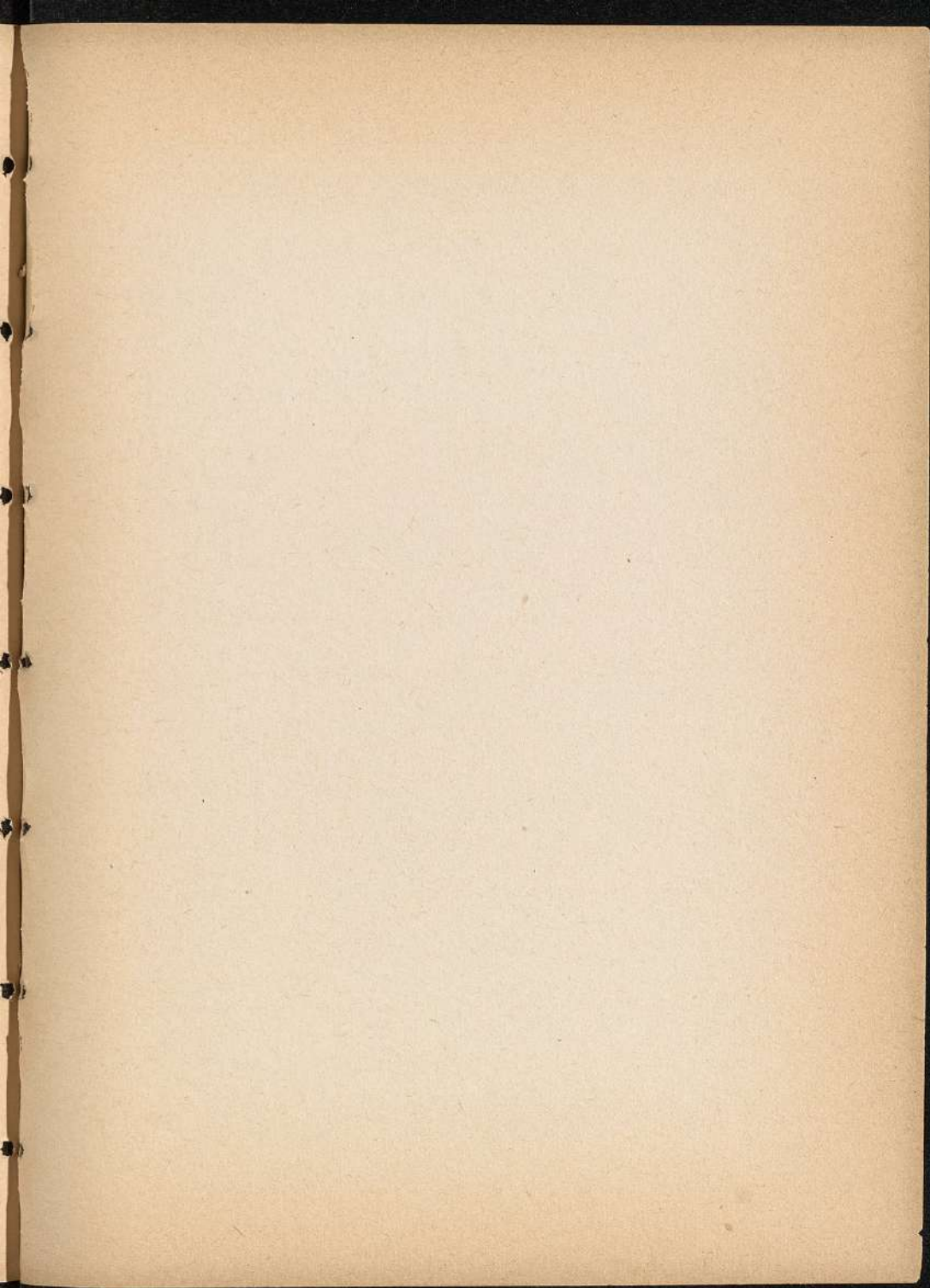
ومضت في عملها كسابق عهدها ، لا تشير إلى ما كان من أمرها يوم
الغارة ، ولا ما كان من بطولتها التي طبقت الأرجاء ذيوعا وشهرة .
ونالها العجبُ مما ترى . . .

أ كذلك تنقلب بها الدنيا من حال إلى حال ، دون أن تستبقى في يدها
شيئا من نعيم مَضَى ؟

وشَمَاهَا استسلام ، فما كانت تَتَسَخَّطُ ولا تَتَشَكَّى ، وكلما خطرت
ببالها تلك المغامرة الفريدة في حياتها الغابرة ، راجعت نفسها تتساءل :
أ كان ذلك حقا واقعا ؟ أم زيفٌ أوهام ، وباطلٌ أحلام ؟

ولكن الفتاة لم تصل إلى فصل الخطاب ، وصدق الجواب ، ولن تصل
إليه يوما من الأيام .

ولا غرو أن تختلط الحقيقةُ والخيالُ في رأس « فكرية » الساذجة ،
فليس في عقلية الوجود الأكبر ، وفلسفة الكون العجيب ، ما يميزُ بين
الحقائق والأخيلة تمييزاً طابَعَهُ الثباتُ والاستقرار !



عَرُوسٌ مِنْ قِطْنٍ

في بواكير شبابي الغارب ، كنت أختلفُ إلى الريف ، طلباً للمتعة بتلك الحياة الرَّخِيَّةِ المهادنة .

وما كان أطيَّبَ الحياةَ الريفيةَ في تلك الأيام ... فقد ظلت تتمثل فيها الطُّمَأْنينة والسكينة ، وَيَشِيْعُ في جَوِّها رُوحٌ من الصفاء والسلام .
بل ما كان أطيَّبَ دنيا الأُمس ، إِذَا قِيسَتْ بما نكابه في عهدنا العتيد من حيرة وقلق ، وتوجُّس من الخطوب ؛ ومن حرب تدوب في حَرِّها الأَنفس ، إلى حرب تَصَلِّي نَارَها الأعصاب .

وإنها لكثيرةٌ تلك المباهجُ التي أُولِعتُ بها في الريف ، وكان أفتنَّها عندي وأحبَّها إليّ ، تلك الأُمسيَّات الوادِعة ، أقضيها في مُسْتَشْرِفٍ دارنا العتيقة ، وقد بُسِطَ عليه الحَصِير ، عن كَثَبٍ من الحديقة .
وَأَلْفَتُ في هذه الأُمسيَّات أن يجلس إلى البستاني الشيخ ، وأن أستمع إلى قصته الفريدة التي لم يكن يَلْهَجُ بغيرها .

قصة تبلغ من السذاجة حدَّ الإفراط ، يحلوه دائماً أن يردِّدها ، كما

يحولى أن أصغى إليها ، دون أن تدركنى ملالة التكرار .
إنها هي هي ، مقدمتها ، وجوهرها ، وخاتمها . لا تزيد ولا تنقص ،
ولا يعترى روايتها تغيير ولا تبديل .

طلما أرهفتُ سمعى له ، وتُجاءَ عيني خمائلُ من أشجار النارج
والليمون ، تنمو على فطرستها ، لا تجد من ضروب التشذيب والتعهد إلا جهد
ما يستطيع ذلك الشيخ الفانى .

إنها خمائل متشابكة ، يُعْيِيكَ أن تلتمس بينها مسلكا ، حتى ليخيل
إليك أن تتساءل :

كيف يجد الماء مساعه بين هذه الألفاف ؟
ما أشبه حياة هذه الحديقة الفطرية بتلك الحياة البدائية التى يحياها
شيخها العتيد !

وليس عجيباً أن يظل ذلك الشيخ راوية أميناً لقصته المعادة ، فهى
جزء متمم له ولحقيقته . من هذه العناصر الثلاثة تتألف حياة هذا المكان
ويتكامل انسجامه ... ذلك الانسجام الموسيقي الذى إن فقدَ جزءاً من
إيقاعه ، بطل سحره ، وبدا نُشُورُهُ !

وما أنسَ لا أنسَ مجلسَ ذلك البستانيِّ متربّعاً قبالتى ، وبين يديه
عُلبَة التبع ، تعبث أصابعه بين الفينة والفينة بما فيها ، فإذا به قد فرغ من
إعداد لفاقة ينفث دخانها فى مهل ، وهو يرقبُ سحبته يهفو بها الهواء !

كان لا يفتأ يقول :

إن ما تسمعه منى ياسيدى ليس بقصة ، كتلك الحكايات التى يتشدد بها الناس .

إنها قطعة من حياة .

حياة فتاة ، أو حياة عروس ... سمها كما شئت ، ولكنها على اختلاف الأسماء فتاة عاشت عُمرها عذراء .

لم تكن من أهل هذه القرية ، وإنما هى من صُقع بعيد ، يقطع الزاهب إليه طوال الساعات على متن المِطِيطَةِ الدَّووب .

الناس أجمعون يقولون إن مَسْقَطَ رأسها « كفر السمان » . فيه درجت ، وعلى ثراه قَصَتْ ... فهو وحده دنيها جميعاً فى ذلك الكون الرحيب ! وعلى الرغم من ضالة الكُفْر وتفاهة شأنه ، كان ميداناً فسيحاً يهبطها كل ما يُسْعِدُها من أمانى ورياب .

وما كان يغيب عنها من أرجاء هذا الكفر شيء :

طريقاه الضيقان ، تجوبهما فى غُدُوٍّ ورواح .

دوره المتطامنة ، تَتَسَنَّمُها كُومَاتُ الهشيم .

المرأة العجوز مُحْتَبِيَّةٌ تهالك على قَفَّتِها المهلهلة ، فيها نِشَارٌ من حَلَوَى

تبيعها بالثمن الزهيد .

أما ما وراء ذلك المحيط ، فلم يكن للفتاة به عِلْم ، إلا ما تَلْقُطُهُ من أفواه الكبار ، وهم يخوضون في الحديث .

كانت « رِيحانة » وحيدة أبويها ، فهي الدُّخْر الذي بقي لهذين الأبوين من ذرية ذهبت بها الأقدار . فلا غَرَوُ أن تحاط منهما برعاية وإعزاز ، وأن يكفلاً لها حياة دعة ورخاء .

ما رأى « رِيحانة » أحد إلا ظَلَّ ذا كراً لها .

كانت ضامرة ، خفيفة الوزن ، تكاد الرِّيحُ إن اشتدت أن تحملها على جناحيها كما تحمل أوراق الفصون .

وما أوفت على العاشرة حتى حجبتها أبواها في الدار ، فلم تعد تَرِيْمُ عتبتها .

وفي الخامسة عَشْرَةَ من عمرها ، جرى في شأنها حديثُ الزواج . هكذا بلغت الفتاة تلك السنَّ التي تستقبل فيها حياة الزوجية والأمومة ، ولكنها على الرغم من ذلك لبثت طفلة بكل ما للطفولة من خصائص : لهجتها في الحديث ، إشراقه وجهها بتلك البراءة والسذاجة ، خِفة حركتها كأنها الطيِّب الغرير .

لقد احتفظت في هذه السن بطفولتها الحُلوة ، حتى إنها لم تَقْرُط في عَرُوسها القطنية التي خاطتها لها أمها في يوم عيد ... فأصبحت هذه العروس أليفاً لها ، تتصافيان وتتناحيان ، وتقنعان بدنياهما معتكفتين عن راحة الناس .

ومن كان يرى « ريحانة » وعروس القطن ، لا يلبث أن يلمح بينهما من المشابه ما يثير العجب . وكانت « ريحانة » نفسها تفتن لذلك ، فتفرح به ، وتزداد شغفاً بصديقتها الوفية ، وإعزازاً لها : تهدهدها ، وتتوسمها ، ثم تنثني إلى قطعة من مرآة ، فتوازن بين قسيمات العروس القطنية وقسماتها ، ثم تغرق في ضحك ذى نبرات رائقة يسرى فيها المرح البرى .

يا عجباً لهذه المشابه !

تلك أنف العروس القطنية التي تماثل النبتة الياقة ، ليست إلا صورة من أنف « ريحانة » .

وهاتان العينان النجلوان الكحيلتان ، هما عيناها .

وهذان الحاجبان الغزيان ، أى فرق بينهما وبين حاجبي الفتاة ؟ وكانت « ريحانة » تؤثر عروسها بأعز مكان فى الدار ، حتى إنها حين أحضروا لها « صندوق الجهاز » أحلت عروسها فيه قبل كل شئ ، وأنزلتها منه أكرم منزل .

صندوق يزدهى بألوانه ورسومه ، لم يكد يُرَفُّ إلى الدار ذات يوم ، محفوفاً بأغاريد الفرح والتهلل ، حتى أيقنت الفتاة أنها خطبت ، وأنها منذ الآن عروس .

قالت لها أمها فى صوت رءوم :

في هذا الصندوق يا « ريحانة » نضع متاع العرس ، فاحفظيه ، وكوفي له صائنة .

فثلقت الفتاة هذه الكلمات في خَفَرٍ يطوى هِزَّةَ البهجة والاستبشار ، ولكنها لم تكن تدري : ماذا يدعوها إلى الخَفَرِ ؟ بل ماذا يبعث فيها الإبتهاج ؟ .

وتجاذبتُها بفتةً مشاعر أنست بها ، وإن لم تدرك لها كُنْها .
قصارى ما اطمأنت إليه من رأى أن كل فتاة على أُهبة الزواج خليفة أن تقرح ، وأن يكون لفرحتها قِناع من حياء ، فشأنها شأنُ لِدَاتِها سواء بسواء !

ورأت « ريحانة » صندوق الجهاز يستقبل في اليوم بعد اليوم جديداً من الثياب والمتاع ، فلم يكن بُدُّ من أن تنتقل عروسها القطنية من جانب إلى جانب ، ليكون لها على اختلاف الأحوال مقام كريم .
وكانت « ريحانة » تقضى طويلاً من الوقت أمام الصندوق تُسَوِّى مثابة العروس ، فتتخير لها من متاع العرس وِسَاداً ، وتبسط عليها دِثَاراً ، وتكسوها من قشيب الثياب .

وكيف « لريحانة » أن تَصْنَعَ على عروسها القطنية بتلك الحفاوة ؟
أليس بينهما من الوشائج ما يجعلهما شخصاً واحداً ، لا ميزة ولا فرق ؟
أولست « ريحانة » هى العروس ؟

وإذا خلا المنزل من أبويها ، وضائق بوحدها ، عَجِلَتْ إلى الصندوق ،
توقظ عروسها فتناجيها بذات نفسها ، وتُصْغِي إلى مشورتها وما تقضى به
من أحاديث .

وكان أبوها كلما أضاف إلى الصندوق طارئاً من المتاع ، ألقى على
العروس القطنية نظرة ، ثم التفت إلى ابنته يرنو إليها ، ويُربّت كتفها في
رقة وحنان .

وشرعت الأم تتحّين بعض الفترات ، لتتحدث إلى « ريحانة » في
شئون تتعلق بالزواج : حياتها في غدها القريب ، وعيشها في بيتها
المرجوّ ... ولا تفتأ تُغْدِقُ نصائحها إليها أن ترعى زوجها ، وأن تُعْنَى
بخدمته ، وأن تكون على الدوام حريصة على كسب رضاه .

فأما « ريحانة » فإنها كانت تنصت لهذه النصائح أجل إنصات ،
ولا تَنبِس بحرف .

وما تكاد الأم تَقْرُعُ من حديثها ، وتنطلق لشأنها ، حتى تُهَرِّعَ
« ريحانة » إلى عروسها القطنية ، تحاورها وتبادلها الرأي فيما غَمَضَ عليها
من تلك النصائح .

وقد يبدو « لريحانة » أن تتلفت يَمَنَةً وَيَسْرَةً ، حتى إذا استيقنت أن
المكان خال لا رقيب ولا سميع ، أَسْرَتْ إلى عروسها سؤالها في صوت
خافض عن الزوج المنتظر .

وسرعان ما تنطلق العروس القطنية ، مطبئةً في وصف ذلك الزوج ،
مُسَيِّدةً بخلاله وشمائله ، متغنيةً بوسامته ورجولته ، و « ريحانة » مصغيةً إلى
عروسها ، مطيلةً في إصغائها ، دائبٌ قلبُها في خفوق ، سَكْرَى بنشوة
الحديث .

وأقبلت أمها عليها يوماً ، ووجهها يتطلق ، وهمستُ في أذن ابنتها :
سيحضر اليوم زائراً أباك .

وفطنت « ريحانة » من فورها إلى الزائر الذي تعنيه أمها .

ومن يكون غيره ؟ إنه رجلها الأوحد ، هو الذي بعثه الله لها هادياً تجد
في كنفه الأمن واليُمن . . . هو الذي يجدر بها أن تهبه قلبها جميعاً . . .
تجبه حباً عميقاً ، حباً جديداً فريداً ، لا كالحب الذي تضمره لأبويها .
وكانت الفتاة يتناهى إلى سمعها أن زوجها لن يرى لها وجهاً قبل ليلة
الزفاف ، فأما في هذه الفترة ، فترة الخطبة ، فلا مناص من أن يقوم بينه
وبينها جدار غليظ ، وحجاب كثيف .

ولكن « ريحانة » على الرغم من ذلك كله ، أَلْقَتْ نفسها مسوقة في
هذا اليوم المتميز من أيام حياتها إلى أن ترتدى جديداً من اللبس ، وتتخذ
شيئاً من الزينة والعطر .

وعجبت من نفسها : فيمَ هذه العناية التي تبذلها ، على حين أنه لن
يكون بينها وبين زوجها في هذا اليوم لقاء ؟ .

ولبثت تتعجلُ الوقت وتضيق بالانتظار ، وتبثُ نظراتها من الطاق ،
تبين دورة الشمس من تقلص الظلال على الحوائط والجدران .
وأخيراً عرفت أن الضيف المنتظر قدِمَ الدار في رُقعة من ذوى قرياه ،
فاستحثت خطاها ، هاربة إلى السطح ، وانزوت في غرفة ضيقة ، لا رفيق
لها إلا عروسها القطنية .

وظلت « ريحانة » في الغرفة ، محتاجة الأوصال ، مبهورة
الأنفاس . وفيما هي تُعاني اضطرابها ، كانت تختلس النظرَ إلى عروسها
القطنية ، فتراها تبسم لها في دهاء ومكر ، كأنما تشير إليها أنها تعلم
مَبْعَثَ حفاوتها ، وسرَ اضطرابها ، فكانت « ريحانة » تضيق بها ،
وتُزيغُ نظرها عنها .

ولبثت كذلك فترة ، ثم أحست طارئاً من حركة وجلبة ، فعلمت أن
زورة الضيوف قد انقضت ، وأنهم عائدون أدراجهم . . . فشعرتُ بقدميها
تدنوان من شِقِّ في حائط الغرفة يشرف على الطريق ، وصافح سمعها صريرُ
الباب الكبير ، وإذا عينها ترصد الزوار في مُنصرفهم من الدار .
وخَيَّلَ إليها أن بصرها قد أوتى من الحِدة أضعاف ما كان له ، فأصبح
يستطيع أن يميّز الأشباح في وضوح وجلاء .
وما أسرع أن عرفت فتاها !

لقد ميّزته من بين الزوار جميعاً ، منذ النظرة الأولى . . . ومحال أن

يكون نظرها قد خدعها ، فإن كل سِمةٍ من سماتِ هذا الشاب تنطق بأنه الزوج لا محالة .

قامة باسقة ، تتجلى فيها الفتوة والرجولة ، ومشيئة مزهوة يستبين فيها النشاط والمرح ، وكساء أنيق يتلألأ بلونه الزاهر .

أما مُحيّاه ، بملاحمه وقسماته ، فلم يَبين لها إلا لَمَحًا .

ومهما يكن من أمر ، فإنه فتى وسيم ، بل إنه دُرّة الفتيان ، وزينة

الشباب !

وأرغمتَ الجمعَ نظرها ، حتى أخفته مَعاطِفُ الطريق .

وأُنحِتَ « ريحانة » على عروسها القطنية تضمّها في شغف واهتياج ،

حتى أحسّت العروس أنها تخنق .

ومنذ هذا اليوم خَفَقَ قلب « ريحانة » لزوج المستقبل . فكان شبح

هذا الفتى المَشِيق الطروب بكسائه الزاهى يترأى لها حيناً في اليقظة ، وحيناً

في جنة الأحلام .

وانكشف لها أن حياتها الماضية لم تكن إلا أياماً فارغة تافهة ، وأنها

قد أخذت تَتَمَكَّلُ أياماً عامرة بالبهجة والايّناس ، مشرقة بالأضواء السواطع

تَشيع فيها مَرَقَصات الأنعام .

وتواترت زورات الزوج ، فأذكت حبَّ « ريحانة » وملأت قلبها من

وَجْدٍ وحنين .

ولم تزد صلتها بفتاها على تلك النظرات المرسلات من شِقِّ الحائط
في غرفة السطح ، تُشَيِّعُ بها شَبَحَ القامةِ الفارعة !

وما زال صندوق الجهاز يتلقى الجديد ، حتى أوشك أن يكتمل ، فتواصل
حديث الأسرة في عقد الزواج : متى يومه ؟ وعلى أى نحو يكون ؟
ولكن لأمر ما فوجئتُ « ريحانة » بانقطاع الحديث في شأن الزواج ،
واقترن ذلك بأن الزوج لم يعد يُهلُّ على البيت كما كان يفعل ...

وشاع جوٌّ من الغموض لم يظهر للفتاة سره ، فأظلت نفسها حيرةً
واكتئاباً ، وفزِعتْ إلى عروسها القطنية تلمس منها العون فيما حَزَبَها
من أمر ، بَيَّدَ أن عروس القطن كانت لا تزيد على أن ترنو إليها بعينها
الكحيلة وحاجبها الغزير ، في حسرة واغتمام ... وكانت « ريحانة »
كأنما تلمح في عين عروسها أنداءً من دموع !

وكما تفقدت الفتاة صندوق الجهاز ، وجدته دائماً يرتقب شيئاً ينقصه ...
شيئاً ، واحداً ، ذلك هو حُلَّةُ الزَّفاف ، ولكن تلك الحلة غابت وطال مغيبُها !
ورِيعَتْ « ريحانة » مما تراه من تجهُّمِ أبيها ، وتحشُّرِ أمها .

واعترضت أن تقتحم السر المكتوم ، فطفقت تراقب حركات والديها ،
وتتجسس عليهما ، وتسترق السمع إليهما ، وما كان يَفْزُبُ عنها أنها
بذلك تجانب ما يليق ، ولكن ... أليس الذي يغشى الدار من جهامة
وخفاء عذاباً لا يطاق ؟ !

واستطاعت بعد لآي أن تصل إلى أشياء ظَنَّتْها مفتاح السرِّ أولَ
وهلة ، بيد أن هذه الأشياء زادتْها حيرة إلى حيرة .
إن أباهَا يُنَجِّي باللائمة على الزوج ، لأنه شَدَّما اشتبك في خصومة
ونزاع ، واشترك في مشاجرة وعراك ... حتى صار اسمه مُضغَّةَ الأفواه !
وساءلت الفتاة نفسها :

ماذا يَعِيب الرجل في أن يخاصم ويغالب ، حتى يُعَقِّد له الظفر ؟ أليس
ذلك برهاناً على فتوته ورجولته ؟ إن ذلك لجدير أن يُعَدَّ في محامده ...
أيرغب أبوها في رجل كالفتاة في خِدْرها ، لا تملك إلا الطَّوْع والإِذعان ؟
إن أباهَا لَيَنْعَى على الزوج ارتيادَه محافل الموالد ، وغَشِيَّاته سوامر الغناء
وقيادته للمواكب والجموع ، يقوم زعيماً عليها ، ويتقدمها راقصاً يتلاعب
بعضاه ...

ومضت الفتاة تسائل نفسها :

أيعاب الرجل بأنه ممراح طروب ، يقبل على مباحج الحياة ، ويستوفي
حظه من متع الشباب ؟ أيريد أبوها أن يكون الزوج الفتى على غِرازه هو ،
وَقُوراً في مجلسه ، قعيد بيته ، يملأ الجو حوله من تحفظ وترثمت وغُبُوس ؟
لماذا لا يرقص ؟ لقد طالما سمعتُ أن كثيراً من الأزواج استخفَّهم
المرَّح في الأعراس ، فرقصوا طرباً أمام هودج العروس في موكب الزِّفاف .
إنها لتمثل ذلك الفتى المشيق بكُسوته الزاهية يتقدم هو دجها مطوَّحاً

بعصاه ذات اليمين وذات الشمال ، وقد أخذَ منه الاعتزاز بجبال عروسه
وفتنتها كلَّ مبلغ ! ... وإنها لتمثله كذلك وقد رأى الجمعَ يمدُّون أعينهم
إلى هودجها ، فأشرع إليهم عصاه يردُّ عن عروسه خائنة النظرات . . .
ما أكثر ما يتجنَّى أبوها على الفتى الحميدِ الخصال !

ولبت الصندوق ينتظر حُلَّة الزَّفَاف ، ولكن الحلة صَدَّت عنه ، وطال
صدودها مديدا من الأيام .

وفي هَدَاةٍ من ليل ، تفرغت « ريحانة » من نومها ، وصوتُ أبيها
يَدَوَّى في الدار ، ويقول :

طالما نصحتُ له ، مُحاسِنًا مرة ، ومُعْلِظًا له في القول مرة أخرى ، فلم
تُجِدْ معه الحُسْنَى وغيرُ الحُسْنَى . . . وها هو ذا اليوم يحصِّد ما غرست
يداه . . . لقد ذهبَ إلى غير مَرَجِع !

فارتجفت « ريحانة » مما تسمع ، وتكشَّت في غَطَائِها ، وبقيت ساهدةً
ليلها كله ، يطوف حديثُ أبيها حولها كأنه خُفَّاشٌ مخيف .

وفي الغداةِ رأت أمها تقصِّد إلى صندوق الجَهاز ، فتُحَكِّم إغلاقه بالفتاح ،
وتحمِّله إلى مكان في الدار بعيد .

وتلَّتْ ذلك أيام لم تسمع فيها « ريحانة » من والديها أيَّ نَبَأٍ يتعلق
بالزوج ، فلا شيء إلا الصمت والجهامة والركود .

ولم يبرح سَمَعَ الفتاة قولُ أبيها : لقد ذهبَ إلى غير مَرَجِع !

ماذا يريد أبوها بما يقول؟ ما معنى أنه لن يرجع؟ إن الموتى هم الذين لا يرجعون... أيكون قد مات؟

لقد تَلَقَّطَ سَمْعُهَا نِتَاراً من أحاديث في هذا الصَّدَد ، ولقد قيل فيها قيل : إنه سيقَ إلى غِيَابَةِ السَّجَنِ في جُنَايَةٍ ذاتِ خطر .

حَمَى اللهُ الْفَتَى الْمَقْدَام !... فِيمَ يُسَجَّن؟ هِيَاتُ أَنْ يَكُونَ قَدْ أَجْرَمَ أَوْ حَتَّى... إنه لبطل كريم ، تكاثر حُسَّادُهُ ، وتوافر منافسوه ، ولا بد أنهم نَصَبُوا لَهُ حِبَائِلَ كَيْدٍ ، واثَمَرُوا بِهِ لِيُوقِعُوهُ فِي مَحْظُور... يَالْهَمُ مِنْ أُخْسَاءٍ !... مَهْمَا يَفْعَلُوا فَإِنَّهُمْ لَنْ يُدِيرُوا عَنْهُ ، وَلَنْ يَظْفَرُوا بِكَرْهَائِهِ ! وَخَلَّتْ مَرَّةً إِلَى عَرُوسِهَا الْقَطْنِيَّةِ ، وَأَقْسَمَتْ بَيْنَ يَدَيْهَا أَغْلَظَ الْقَسَمِ إِنَّهَا لَنْ تَخْفِرَ عَهْدَهُ ، وَلَنْ تَخُونَ وَدَّهَ ، مَا بَقِيَ فِيهَا دَمَاءٌ مِنْ حَيَاةٍ ! لَتَكُونَنَّ لَهُ وَفِيَّةً نَقِيَّةً ، فَهُوَ فَتَاهَا الْأَوَّلُ وَالْآخِر .

وَفُجِعَتْ « رِيحَانَةُ » بَعْدَ قَلِيلٍ فِي أَيْبِهَا ، وَلَمْ تَلْبَثْ أَنْ لَحِقَتْ بِهِ أُمُّهَا . وَغَدَتِ الْفَتَاةُ وَحِيدَةً بَيْتِهَا ، لَا تَجِدُ إِلَّا عَرُوسَهَا الْقَطْنِيَّةَ مِنْ أَنْيْس .

وَانْتَقَلَتْ إِلَى الدَّارِ خَالَةً لِلْفَتَاةِ شَارِكَتُهَا فِي حَيَاتِهَا ، وَإِنْ لَمْ تَنْفَ عَنْ نَفْسِهَا حَيَاةَ الْوَحْشَةِ وَفَرَاغَ الْفَوَادِ... .

وَتَعَاقَبَ الْخُطَّابُ عَلَى بَيْتِ « رِيحَانَةِ » يَطْلُبُونَهَا... . وَلَكِنَّمَا رَدَّتْهُمْ جَمِيعاً !

فَإِذَا سَأَلَتْهَا خَالَتُهَا : مَا بَالُهَا تَعْتَلُّ عَلَى كُلِّ خَاطِبٍ ؟

أجابتها الفتاة في سذاجة وسلامة نية ، وعيناها موصولتان بأديم الأرض :

لقد جَرَّبْتُ بختي في الزواج يا خالة!... والبخت الأول لا يُعوَّض...

فإن ألحْتُ خالتها عليها ، تحاول إقناعها بقولها :

أُظِلِّين عانساً سائرَ عمرِك ؟

أجابتها الفتاة في ثبات و يقين :

لستُ عانساً يا خالة... أنا مخطوبة !

— مخطوبة ؟ ... لقد ذهب الذي تَعْنِين ، وانتَقَضَى أمرُهُ .

— إما أن يكون حياً ، وإما أن يكون قد طوته المَنُون ... فإن كان

حياً فهو عائدٌ إليَّ ، وإن كان ميتاً فأنا صائِرةٌ إليه ... سنلتقِ يوماً ،

ونتزوج حتماً ، في هذه الدنيا أو في العالم الآخر !

وصبرتُ « رِيحانة » على تلك الحال عاماً وبعضَ عام ... تنتظر

عودة الحبيب ، وقد شَفَّها الجَوَى ، وبرَّحَ بها الانتظار ، حتى قصفتْ

يدُ المَنُونِ غصنَ شبابها الذاوِي .

....

وما يبلُغُ البستانيُّ الشيخَ هذا المبلَغَ من رواية قصته ، حتى يَقْمَرَ غُلْبَةً

دخانه ، وما هي إلا أن يُسوَّى لفاقة يشعلها في تمهل ، وهو يقول :

هكذا كانت نهاية تلك العذراء !

وبهذه الجملة كان دائماً يختم قصته .

... ..

واتفق لى فى آخر لقاء له أن امتدَّ بنا الحديث ، فقلتُ لشيخ البستان

بعد فترة صمت :

ما كان أشقى حياةَ هذه الفتاة ! .. لقد خَطَّتْ بيدها طريق
تعاستها ، على حين أنه كان فى مُكْنَتِها أن تَنَعَّمَ بشبابها فى ظل
زوج جديد !

فرجع الرجل بصره إلىّ ، وقال :

أترى أنها كانت حقاً شقية تاعسة ؟

— وهل تكون حياة الوحدة والوحشة والانتظار إلا تعساً وشقاء ؟ !

فأرسل الرجل بصره فى الأفق ، وهو يقول :

ربما كانت حياة الوحدة والوحشة والانتظار حياة حافلة بأطيب

النعمى ... إن وفاء النفس وصفاء السريرة يُسبغان على الرُّوح طمأنينة

وسكينة هما لبابُ السعادة وجوهرها الخالص !

فنظرتُ إليه وقتاً دون أن أنبس ، وجعلتُ أَسْتَعِيدُ كلماته الساذجة

الغريبة ، وأدير الرأى فيها .

أفى الإمكان حقاً أن نكون بأحزاننا وهمومنا سعداء ، ما دام ثَمَّة شعور

بالوفاء والإخلاص يملأ جوانب النفس ؟

وأزِفَ وقت مغادرتي لمُسْتَشْرِفِ الدار ، ولكنني لم أجدَ مُحِيداً عن مواصلة الجلوس ، ومتابعة الحديث .

ووجدتُني أقول لصديقي البستاني الشيخ ، وكأني أتحدث إلى نفسي :
والزوج ؟ ... ألم تُحِطْ علماً بشأنه ؟

فلاحت على وجهه بسمة وادعة ، وقال هادئ الصوت :

دعنا من شأن هذا الزوج ... علمُه عند عَلامِ الغيوب !

— أكبر الظن أنه كان شريداً عريداً ...

فأخذ الرجل يقلبُ عُلبَةَ دُخانهِ ، ثم قال :

كان كذلك فيما يشاع ويُروى !

— خيراً فَعَلْتُ الأقدار ، إذ فرقت بين هذين الإنسانين قبل أن

يتزوجا ...

— لماذا ؟

— لو تَمَّ زواجهما ، لبَسَّتَ تلك الفتاة الطَّيِّبَةَ النُّقِيَّةَ بين براثنِ ذلك

الشَّرِيرِ الأثِيمِ !

— ربما كان ذلك ... وربما كان للأمر وجه غير هذا الوجه !

ثم تابع تقليبه لُعلبَةَ دخانهِ ، وهو يقول :

لم يكن محالاً أن تصبح هذه الفتاة أسعدَ الزوجات .

— في صحبة هذا الشَّرِيرِ ؟

— نعم يا سيدى . . . فى حجة هذا الشرير ! . . . إن عينا الطاهرة
لم تكن ترى فيه إلا المثل الأعلى للرجولة والبطولة والإقدام . . . كانت
عين هذه الفتاة من البراءة بحيث لا تبصر إلا الجانب الطيب من
مشاهد الحياة !

— ولكن أليس من الحق أن تظل هذه العين البريئة غافلة عن
الحقائق ، مخدوعة بالظواهر ، راضية بهذه الغفلة والخداع ؟ !
فابتسم الشيخ ابتسامة يتجلى فيها الإشفاق . . .
وقال :

أليس من نعم الحياة أن نظل شيئاً ما غافلين عن الحقائق ، مخدوعين
بالظواهر ؟ . . . وعلى أية حال ، من ذا الذى أوتى القدرة على أن يحكم حكماً
حاسماً يميز فيه بين الحقائق والأوهام ؟ دونك مثلاً . . . كل الظواهر
والقرائن تؤيد أن هذا الرجل كان جُرثومة شرّ ، وأخا سوء .
— أأنت فى ذلك تشك ؟

— العلم عند علام الغيوب . . . نحن دائماً نحكم بحسب الظاهر . إن
عيوننا حَسَرى ، وإنها فى الغالب أعْيى من أن تستجلى بواطن الأمور
ودخائل الأحداث . . . قد يكون هذا الرجل على سوءه وشره مَطْوًى
الضلع على قلب أنقى نقاء من قلب طفل برىء . . . أليس ذلك بجائر ؟
فهمهمت :

كلُّ شيءٍ جائز !

— فإذا كان للرجل هذا القلب ، فهل يَعِزُّ عن أن يُسعد زوجته ،
ويكفل لها نِعماء الحياة ؟ ! ... أكان من المتعذر أن يتأثر هذا الرجل
بطيبة فتاته وكرم طبعها ، فإذا هو على يديها تائبٌ من ذنبه ، ناهجٌ طريقَ
خير وهدى ؟ !

كان شيخ البستان يخوض في هذا الحديث ، مُسترسلاً يتوقّد حَمِيَّةً
وحماسة . .

وبغته رأيتُه قد توقف ، كأنما يستدرك على نفسه ما قرّط من قول .
ثم انحنى على عُلبته يعبث بالتبع في صمت ، وأنا أحدّق في وجهه
أنفحصه ، وما هي إلا أن ألفتُه قد نهض يَلُمُّ شَعَثَه ، وحيّاني في أدب
جَمٍّ ، وأخذ سَمَتَه بين ألفاف الحديقة ، فلم أرَ عنه بصرى ، حتى
أطبقت عليه أفنان الشجر ، تُعِينُها أستار الظلام .

... ..

ومرت بضعة أشهر بعد هذا اللقاء ، قضيتها مستشفياً في بعض المداين ،
خارج « مصر » .

وما إن عدتُ حتى انتهت إلى سمعي أن البستانيَّ الشيخ قد وافاه
حَيُّنُه منذ قليل ، فضنّني أسف عليه ، وقصدتُ الضيعة أمضى بها فترة ،
فكان أول ما عُنيْتُ به أن يَمَمْتُ قبره .

وفي فواتح المساء ، خرجتُ إلى مُسْتَشْرِفِ الدار وحدي ، وبسطتُ
الحصيرَ أجلس عليه ، وأنا أُرْوِي إلى تلك الحديقة الموحِشة .

وبقيتُ وقتاً في صمت ، أعرضُ جلساتي إلى شيخ الحديقة ، فابلثتُ
أن آنستُ صوتاً لم يكن غريباً عني ، صوتاً واضح النبرات ، على الرغم من
بُعْدِ مَآتَاهُ . فأرهفتُ السمع في تلك الخلوة المظلمة ، وإذا الصوتُ
يُرْوِي لي قصة « ريحانة » كما هي بأحداثها وتفصيلها ومراحلها .

شَدَّ مَا كَانَ حَبِيباً إِلَيَّ أَنْ أَصْغِي ، وَأَنْ أَنْهَلَ الْكَلِمَاتِ نَهْلاً .
ولما فرغ الهاتف من قصته ، أَلْفَيْتُنِي أَهْمُهُمْ ، وَأَنَا أُرْوِي إِلَى الْأَفْقِ ، وَقَدْ
تَكَانَفَتْ ظِلْمَاتُهُ :

والزوجُ ؟ ... أَلَا عِلْمَ لَكَ بِهِ ؟ !

فسمعتُ الهاتفَ كأنما يحجب :

أَمَا بَرَحْتَ طَلَّاعاً إِلَى تَعَرُّفِ شَأْنِهِ ؟

ورأيتُني أنهض من فوري ، وكأن يداً مستورة تأخذ بيدي ، تهديني
الطريق ، فجعلتُ أجوسُ خلال الأشجار ، تُحْدِقُ بِي أَطْبَاقُ الْحُلْكَمَةِ
والصمت والوحشة ، حتى أَفْضَى بِي الْمَسِيرَ إِلَى كُوخِ قَعِيدِنَا الْبَسْتَانِي .

ودفعتُ البابَ في رَفَقٍ ، وَأَضَاتُ شَمْعَةً أَصْبَتْهَا هُنَاكَ ، فَتَبَيَّنَتْ مُتَاعُ
الرجل كما تركه ، لَمْ تَمْسُسْهُ يَدٌ بَعْدَهُ . ووقفتُ أَرْدَدَ النَّظْرَ أَمَامِي ، ثُمَّ
أَلْفَيْتُنِي أَقْلَبَ وَأَنْقَبَ ، حَتَّى عَلِقْتُ أَنْامِلِي بِشَيْءٍ ، فَأَخْرَجْتُهُ أَدْرِيهِ مِنْ

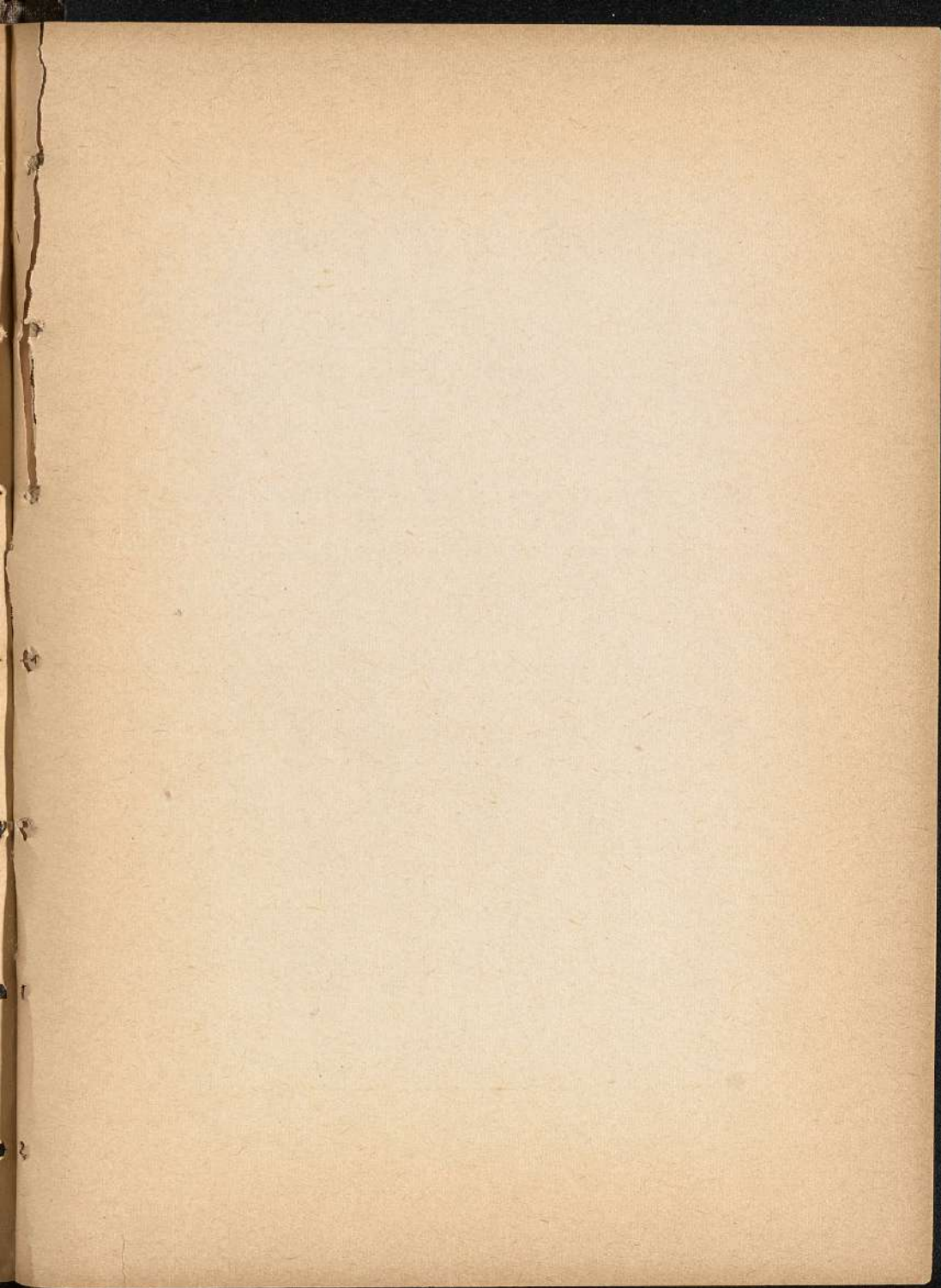
ذُبَالِقِ الشَّعْمَةِ ، فَإِذَا هُوَ : « عُرُوسَ مِنْ قَطْنِ » !
وَجَمَدَتْ قَدَمَايَ لِحْظَةً ، وَأَنَا أُحَدِّقُ فِي ذَلِكَ الْأَثَرِ الْعَجِيبِ :
أَنْفَ كَالنَّبَقَةِ الْيَانِعَةِ .

عَيْنَانِ نَجْلَاوَانِ كَحِيلَتَانِ .

حَاجِبَانِ غَزِيرَانِ .

وَأَحْسَسْتُ هَبَّةً مِنْ نَسِيمِ تَقْتَحِمِ الْكَوْخِ ، كَأَنَّهَا أَنْفَاسٌ تَتَصَعَّدُ . فَمَا هِيَ
إِلَّا أَنْ انْطَفَأَتْ الشَّعْمَةُ ، وَأَخَذَتْنِي رَجْفَةٌ ، وَخَيْلٌ إِلَى أَنِّي أَرَى طَيْفَ
وَجْهِ يَهيمُ فِي الْكَوْخِ . . .

وَالْتَقَتْ عَيْنَايَ بِوَمِضِ عَيْنَيْهِ ، فَسِرْعَانِ مَا وَجَدْتُني أَوْسَدُ
الْعُرُوسِ الْقَطْنِيَّةِ مَكَانَهَا الَّذِي أَخْرَجْتُهَا مِنْهُ ، وَأَتَسَلَّلُ مَبْهُورَ الْأَنْفَاسِ ،
ضَارِبًا فِي الظَّلَامِ ! . . .



هذه الحصاة

في حياتك أحداثٌ قد تعدّها تافهة لا بال لها ، ولكنك لا تلبث أن تجد لها من النتائج ما عساه يُغيّرُ منهجك في هذه الحياة ...

ربما صدرتُ عنك نائمةٌ على غير قصد ، أو بدرتُ منك كلمة هي عَفْوُ الخاطر ، أو انحرفتُ بك القَدَمُ خطوة دون تديير ، فإذا أنتَ قد ألفتَ نفسك تشقُّ طريقاً غيرَ طريقك المرسوم ، وإذا البؤنُ شاسع جِدُّ شاسع بين ماضيك المطوَّى ، وحاضرك المرموق .

إنْ هي إلا « حصاة » صغيرة تعترض السائرَ في مسلكه ، فلا يتمالك أن يعثرَ ، ولا ينهض بعد ذلك إلا وقد احتواه أفق جديد .

ليس حديثي هذا إليك ضرباً من لغو الحديث ، وإنما هو زُبْدَةٌ ما خلصَ لي من أحداث حياتي التي كُتِبَتْ عليّ .

لم يكن محورُ قصتي إلا « حصاة » عثرتُ بها قدمي ، فكان منها كلُّ ما كان !

وأنتَ ألفتَ من نصيح الناس أن يُحذروك من جسام الجنادل والصخور

أما أنا فما أردتُ بما أبشُّك إِيَّاه من حديثي أن أحذرك من صخرة أو جندل ، وإنما أردتُ تحذيرك من هذه الحَصِيَّات الضَّئِل ، حين تتناثرُ في مواطئِ الأقدام .

ولتكنْ على ثقة بأنِّي لن أخفيَ عنك سرًّا ولن أموّه عليك شيئًا . فهذه قصتي أصارحك بها ، لا أبالغ ولا أتزيّد ، وقصاري ما أبتغيه منها أن تنفعَ بتلك التجربة التي مرّتْ بي ، فأكونَ قد أسديتُ إليك جميلًا .

إن المتشرفَ بخطابك في هذه الساعة رجلٌ مُعَدِم ، حَطَمَتِ الأيام ، وألحَتْ عليه الشيخوخة ، وبلغَ أرذلَ العمر ، وهو لا يجدُ الآن مُتَنَفِّسًا لعيشه في غير لفائف الدخان الرخيص ، يبيعُها كَسْبًا للقوت وطلبًا للكفّاف . لقد أسلمني الزمن إلى هذه الحِقْبَةِ من حياتي ، تُمِضُني فيها الخِصاصة ، وتُضِلُّني الوحْدَةَ . وما كان عزيزاً عليّ أن أصبحَ رجلاً من ذوى المناصب العالية ، وأرباب الأسر الرفيعة ، وأولئك أقراني في النَّشْأَةِ ، قد أمْسَوْا زينةَ الحياة ، وزهرةَ المجتمع ، وظفروا من الدنيا بأطيب ما فيها من نعيم .

ولكنْ هي « الحصاة » . . .

رَلَّتْ بها قدحي ، فَهَوَتْ بي إلى الحَضِيض !

بنفسِكَ أن تسألني :

ما هي هذه الحصاة ؟

وكانى بكَ تتعجّلنى الجواب .

لكى تعرفَ حصاتى هذه ، يجب أن تضعَ على عينيكَ المنظارَ المُكَبَّرَ ،
فسينكشفُ لكَ أمرها .

هى إنسانة . . . إنسانة وافرة الحظ من الوَسامة والحسن ، لا وصفَ
لها عندى إلا أنها عجينةٌ من لؤلؤ سَفِيَّتْ بذَوْبٍ من الماس . ولكن أَى
قيمة لهذا الوصف ؟ أليست هى فى أول الأمر وآخره امرأةً من بنات
« حَوَاء » ، جُبِلَتْ فى حقيقتها من ماء وطين ، إذا أنتَ حلَلْتها ، ورجعتَ
بها إلى عناصرِها الأولى ، أَلْفَيْتَ قيمَتَها لا تزيدُ على بضعة قروش ؟ !
لا تَضَعِ المنظارَ المُكَبَّرَ جانباً ، بل امضِ فى التَّكشِفِ والتَّعْرِفِ جاهدًا .
سترى هذه الإنسانة قد اعتلتَ مِنْصَةً فى مَلْهُى كان قائماً منذ عشرات
الأعوام ، وإنها لتبدو فى رِىِّ المَلأَحِينَ رُؤَادِ البحار : كُسُوءٌ قصيرة
تلتصقُ بالجسد ، وَتَنُمُّ عن مفاتنه . وإنها لتتجلى فى بُهْرَةٍ المِنْصَةِ لا تزيد
على أن تُنْقَلْ قدمُها فى دائرة صغيرة ، منشِدةً إحدَى الأغانى بصوت ليس
بالرخيم .

لم تكن ترقص ، ولم تكن تُغَنِّى ... حَسْبُها ما كانت تبديه من إيماء ،
وما تَلْفِظُهُ من نغم ، فإذا بها تتحوّل إلى اختلاجة راعدة ، إلى رِغْشَةٍ
متمردّة ، لا تلبث أن تُثِيرَ فى نفوس النِّظَّارة رُوحَ العريضة والهوس .
تنحّ بمنظارك المُكَبَّرَ عن هذه الناحية ، وسدّدْه إلى ذلك الركن الأيسر

من المسرح فستلمح من بين النظارة هناك فتى تستطيع أن تجعل وصفه
في كلمتين . . . شاب تنوهج في إهابه كل معاني الشباب ، شاب يختصر
لك في جسده وفي رُوحه كل خصائص تلك السن الرائعة ، سن
الثامنة عشرة !

ولن يفوتك أن ترى ما تحويه يمينه من رزم مؤكتب مدرسية !
إنه في جلسته المسحورة يتتبع تلك الإيماءات والخلجات بعين طفل
رقيق يتفرج في « صندوق الدنيا » أول مرة ! . . . فإن ما يشهده الفتى
في هذه اللحظة ليس في الواقع إلا « صندوق دنياه » الجديدة ، وما أحق
تلك « الحصة » الأدمية ذات الجسم الفالوذجيّ الجراج بأن تسميها
« دنيا » جديدة لذلك الفتى ، قد انزاح عنها الستار ، على غير انتظار !
إذا أقسم لك هذا الفتى بأنه لم يطأ هذا المسرح من قبل ، ولم يعرف
له اسماً حتى ساعته تلك ، فصدقه . . .

وإذا أنباك بأنه قبل تعريجه على هذا المسرح بلحظات ، كان خالي
الذهن من أمره كل خلاء ، فصدقه أيضاً . . .

ليس لتكذيبه من مسوغ . فقد كان الفتى أبيض الصفحة ، صريح
اللهجة ، آية في الطوع ، صبور النفس ، مثابراً على الدرس .

كان يحيا في كنف والد أشبه ما يكون بقائد شديد المراس ، قوى
الشكيمة ، جهم القيمات . منزله أقرب إلى أن يكون ثكنة موحشة

من تُكُنَّاتِ الجند. وما حياة هذا الفتى في ظل ذلك النظام إلا «مواعيد»...
مواعيد دقيقة ليس إلى الإخلال بها من سبيل. وإن وطأة هذه المواعيد
لتجعل الفتى يتمثل نفسه في جوف ساعة ضخمة يقوم منها مقام «الرقاص»
عمله فيها هو تلك الحركة الدأوب من جيئة وذهوب، وفقاً لحفقات
الساعة الصارمة، لا وناء ولا انحراف.

بيد أنه مع هذا كله لم يكن يجد في نفسه مساعدا للضجر، فهو مستسلم
لهذه الحياة الراتبة المستتبّة، يسودها ذلك النظام المحكم الدقيق...

أليس النظام، فيما تعلم الفتى، عماد الحياة؟
ما كان للفتى من بُغْيَةٍ إلا أن يُنجز دراسته، ليأخذ جوازَه إلى
مَنْصِب كَرِيم. فذلك ما كان يحدثه به أبوه، لا يمل فيه تكرار
الحديث.

بينه وبين إتمام الدرس عامان اثنان، يقضيهما بما هو مألوف من اجتهاده
واستذكاره، ثم يظفر آخر المطاف بتلك الصحيفة المبرقشة الزاهية،
مهوى الأفتدة، ومطمح الأنظار...

ولهذا الفوز ما بعده!

أليس هو موعوداً من أبيه بأنه ما إن ينال إجازته الدراسية، حتى
يحقق له تلك الأمنية الغالية، إذ يهدى إليه ابنة عمه الحسنة عرساً له؟
إنها فتاة وسيمة الطلعة، يزيناها تحفظ وخجل، لا تقع عليها عين

الفتى إلا مرة في كل جمعة ، وفي هذه الزورة الأسبوعية تظفر الأسرة بمتعتها التي لا متعة لها سواها في سائر حياتها . . . الأب يُقيم في هذا اليوم مأدبة غداء تقوم على أربعة لا يزيدون : الأب وأخته وابنه والعروس ، وهؤلاء الأربعة يجمعهم طابع واحد من التزمّت والتوقُّر والاحتشام .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن الفتى كان يرى في هذه المأدبة المتواضعة « حفلة ترفيه » شائعة تنعم بها في كل أسبوع تلك الشُّكنة الموحشة بنظامها العسكري .

وكان الفتى كلما تطلع إلى ابنة عمه في مكانها من المائدة قبائلته ، أحس كأن الفتاة خلف أسوار وقضبان لا يستطيع الدنو منها . . . أو كأنها « مِنطقة حرام » في عُرف قائد الأسرة العتيد . . .

ما خلا الفتى إلى عروسه قط ، وما حاول أن يخالسها الكلام يوما من الأيام ، ولكنه مع ذلك كان يلتقي عروس غده فيطارحها الحديث ، وَيَنعم في ظلها بأوقات صفاء ومراح ، يستريح فيها ما لا يستطيع البوح به ، حتى في مناجاته لنفسه . . . كان ذلك يجري في أحلام اليقظة ، وفي رؤى المنام ! . . . فإذا ما صحا من نشوته ، أو انتبه من غفوته ، استنكر صنيعه ، وثار عليه ضميره يؤنبه ، فلا يلبث أن يعاهد نفسه على ألا يعود إلى تلك المعابث الصبيانية البغيضة .

وما له يتعجل المتعة وزينة الحياة ، وإن قصور الأمانى لتتساقط

أمامه في أفق رحيب . فيها هوذا مُجِدِّ في مسلكه المدرسيّ ، موقِّقٌ دَائِماً
في الانتقالِ من مرحلة إلى مرحلة ، وكلُّ شيءٍ يجري في عِنايته ، باعثاً على
الطُّمأنينة ، داعياً إلى الثقة بمستقبل زاهر باهر .

ظلّ الفتى ماضياً في طريقه الوردى المهود ، حتى هذه الأُمسية التي
عُثِرَتْ فيها قَدَمُهُ بتلك « الحصاة » . . .

وأنت إن رفعتَ المنظارَ المكبَّرَ عن عينيك ، وتخطيت صفوف المسرح
لتدنو من الفتى في مجلسه ، وتسأله متلطفاً به :

ماذا أتى بك إلى هذه المثابة ؟

أجابك في غير تكلف :

هي مصادفة محضة ، لا يد لي فيها بتدبير !

وإن الفتى ليقصُّ عليك ، كيف انسأقت به قدماء ، إلى مكان

« الحصاة » . . .

بارح الفتى دارَ قرين له ، عشيةَ يوم ، حيث كان يستذكر معه بعضَ
دروسه ، وذلك قُبَيْلَ الإمتحان . بارح الدار مختفياً يتلمس الهواء ، فقد
أضنته المكابدة والمجاهدة في المذاكرة والتدأُّرُس ، إذ احتوته هو وقرينه
حجرة متضايقة ، ضوءها شحيح . فما كاد يُذِيرُ عن الباب حتى ألقي يده
تَعَجَّلَ إلى رباط رقبته فتحلَّ عُقْدَتُهُ ، وكان وهو يفعل ذلك يُخَيِّلُ إليه
أنه يستخلص رقبته من طَوْق حديدٍ يضغطها ومضى يتلفت حواله منهوَم

الأنفاس والنظرات ، يَعْْبُ الهواء ، ويشْتَفُ الضياء !
 جَدَّ الفتى فى سيره ، يطلبُ منزله ، سالكاً ذلك الطريقَ الذى أَلِفَ
 سلوكه من قبل ، ومرَّ فى خُطاه بأحدِ الشوارع التى كان يمرُّ بها ، دون
 أن يَأْتِبَه لها . إنه شارع كسائر ما يتفرع من الشوارع فى الطريق العام ،
 لا يمتاز بشئ إلا ما يسطع فيه على مَرَمَى النظر من أضواء أَلَاة
 تتلون ألواناً .

وألغى الفتى قدميه تمشيان وثيداً ، ونظراته تنساب نحو ذلك النور البهيج
 تَبَاعاً . . . وفى خطفة البرق عَنَّ لخاطره أن يخترقَ هذا الشارع ، تَأْتِساً
 بأضوائه ، وما عليه فى ذلك من بأس ، فإنه بالغُ داره ، دون أن تبعد
 عليه الشُّقَّة ، ويطول السير .

وعَدَلَ إلى الشارع يجتازه ، وإذا هو بعد خطوات أمام تلك الأضواء
 المبرقشة التى بهَّرت عينه . . . وإذا هى أضواء مسرح ، أو بالأحرى دار
 لم يدخلها ، ولن يُتاح له دخولها . إنها أحد تلك المواطن التى يضعها أبوه
 فى « القائمة السوداء » ، ولا يذكرها إلا مقرونة بالتحقير والازدراء .
 لا مأْخَذَ عليه فى لحظة خاطفة يلقىها على هذه الدار ، ثم يَمْضى لِطَيْتِهِ
 لم يعلَقْ بأذياله ضَيْرٌ .

وسُرعاناً ما اشتبكت أنظاره بطائفة من الصور والرسوم تتناثر على
 الجُدران ، وأخذ العجب من تلك المناظر التى يبدو فيها صنف من الناس

غريبُ الأزياء والأوضاع ، فقام في ذهنه أولَ وهلة أنه يشهد صوراً لجمع
من المجانين !

واسترعى انتباهه صورة تتجلى في صدرِ المدخل ، صورة تُمثِّلُ الحُجَمَ
الطبيعيَّ لفتاة في لبَّوسٍ يحاكي زيَّ الملاحين رُؤَاد البحار ، فما إن رآها
الفتى حتى شعرَ بأن الدمَّ يَصْبِغُ وجهه بِصِبْغَةِ الخجل . إنها شبهُ عارية ،
لا يكسوها إلا شُفُوفُ ثوبهم الناظر أنها تُغَطِّي ما اصطَلَح الناس على تسميته
« مناطقَ الحياء » ... أما سائرُ أوصال الجسد فقد تُرِكَتْ نُهْبَةً للعيون !
واستحالت حمرة الخجل في وجه الفتى ، فصارت حمرةً غُضْبَةً وَحَمِيَّةً ،
أو قل إن ذلك ما سَرى في وهمه . فردد في نفسه :

يا لَلسَّوْءَةِ ! ... يا لَصَيْغَةِ الأخلاق !

وهمَّ الفتى يجتذبُ أنظاره ليردَّها عن هذه المَعَايِثِ الفاضحة ، فلم
يجد له عَزْماً ...

لقد تلاقت عيناه بعيني الفتاة ، فكان وإياها كالسمكة عُلِقَ بها
شِصٌّ عَتَّى ، وإن لم يكن يدرى : أيهما الشِّصُّ الناشب ، وأيهما السمكة
المَصِيدَةُ ؟ !

وفيما كان الفتى يُعاني مجاهدةَ النفس ، للتفريقِ بين السمكة والشِّصِّ ،
سمع صوتاً يقول له :

بخمسة قروش تستطيع أن تَرى هذه الفتاة واقفة تغنى وترقص ...

بخمسة فقط ... هالك تذكيرة ... مقعد حسن، منه ترى وتسمع بوضوح ...

لا تضع الفرصة ... الليلة ختام الموسم !

في هذه اللحظة شعر الفتى بأن وعيه يتناقص ، وأن إدراكه يغيب .
ما أشبهه المريض قد مُدّد على سرير الجراحات ، وقد بدأ ينشق المخدر ...
ليس في مقدور الفتى أن يتابع لك حديثه في تفصيل وتحديد ، فهو
الآن في غيبوبة شاملة ، وكأنه يشهد أضغاث أحلام .

أنغام صاخبة ، أنوار كاشفة ، أصوات مُلتجة ، خلق يتزاحم هنا وهناك ،
سحائب تتعقّد فوقه من دخان وأنفاس ... وفي وسط ذلك كله تتألق
تلك الاختلاجة البشرية الراحدة ، مثيرة حولها روحاً من العريضة والهوس .
ولما فرغت الفتاة مما سمّوه غناء ورقصا ، مدت يدها إلى سلة في جانب
من المسرح ، مُلئت بورد قانيء كأنه الجمر ، وهبطت بالسلة إلى قاعة النظارة ،
فجعلت تقذف بتلك الجمرات يميناً ويسرة ، والفتى إليها متطلع ، يغشاه صمت
وذهل ، على حين كانت الجموع متهافئة على هذه الجمرات ، تتلقفها لتضعها
على الصدور ، دانية من القلوب ، كي تزيدها من ضرام !

واستبقت الحسنة في يدها وردة واحدة ، جعلت تدور بها في بهرة
القاعة ، وكأنها منارة في بحر مَواج ، يغشاه ليل عاصف الريح ...
في هذا البحر المتلاطم تراءى زورق ضئيل ، تكاد تلتقيمه الأمواج .
وكان هذا الزورق يحاول أن يتماسك ، تفادياً من الغرق ، وطلباً لشاطئ

الأمان ، وإذا الثور يهبط نَسْجاً من الأشعة على الزورق ، فيجتذبه إلى قلب المنارة المتوقد ، ولا يلبث أن يغيبه فيه .
تدانت الفتاة من ذلك الفتى ترشق على صدره وردتها الأخيرة ، وهي تحيطه بهالة من بسماتها اللطاف .

وأومات إليه أن ينهض ، فأطاع .

ثم أشارت إليه أن يتبعها ، فانقاد .

صعدت الفتاة بالفتى إلى منصّة المسرح ، تختتم رقصتها الشادية ، على مألوف عاداتها في كل ليلة ، إذ تعمد في نهاية ما تعرضه من فنّها الأنيس إلى أن تصطفى أحد النظّارة ، فتراقصه على إيقاع قوى من تهلل وتصايح ومراح ...

وانسدل الستار ، لا كما ينسدل عادة في كل ليلة على هذه المشاهد من الرقص والغناء ، وإنما انسدل الليلة على عهد لهذا الفتى ، فقطع الصلة بينه وبين ماضيه ، وانحدر به إلى عهدٍ من الحياة جديد .

كان أول ما استقبل به الفتى حياته الجديدة أنه رأى الفتاة الحسناء تعاجله بقرصة في خده ، وعلى شفثتها تصلصل الضحكات ، وميل عينها لهب تطاير منه نظرات منهومة جيّاشة !

وتقدمته ، وقد أرخت له يدها ، فتعلق بها ...

وإذا هي تمضي به تيّاهة تتخطر !

ولمس الفتى يمينه الوردية الحمراء على صدره ، فانتزعها ، وجعل يتوسمها ،
ولمعت في خاطره قصة « التفاحة الخالدة » التي التهمها « آدم » في جنة
الخلد . وتراءت له الوردية الحمراء ، وكأنها تلك التفاحة في شكلها وصبغتها
وما لها من أريج . . . فابتسم ، وقد عرته من النشوة هزة !

هذا أبوه الأول « آدم » لم يتمنع على التفاحة حين عرّضت له ،
فكيف للفتى أن يكون هو المتمنع الأبى ؟ أوليس هو بآدمي ؟ !
والفتى الخطاه تجاه حجرة أنيقة . . .

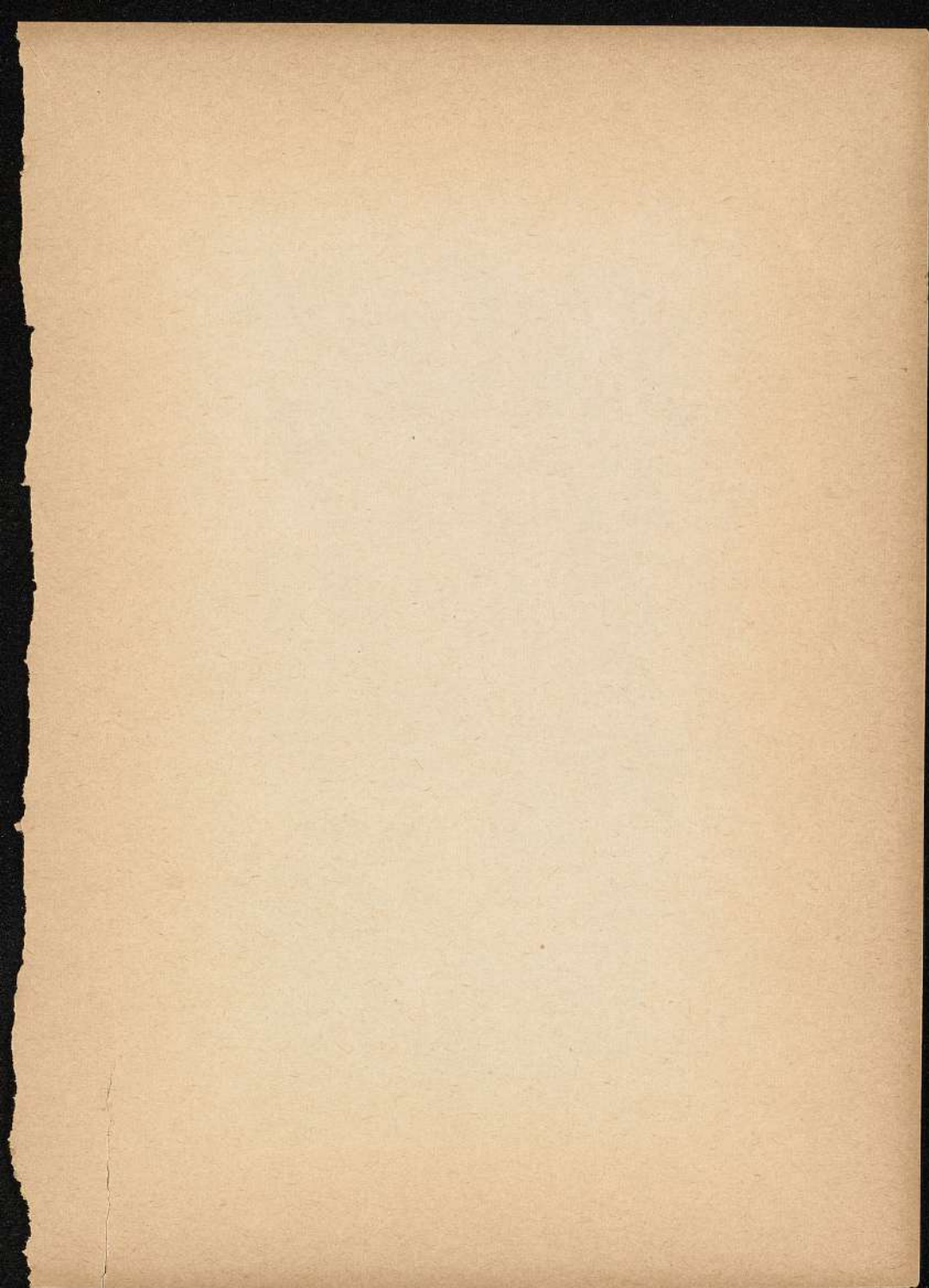
وما هي إلا أن غيَّبه الباب فيها ، مع حوائيه الحسنة !
ماذا أنت طالب إلى أن أقصه عليك بعد الذي قصصت ؟
إن هي إلا فضلات وقشور . . .

إن هو إلا حشوليس له في مجرى حياة الفتى كبير شأن . . .
على أنى أوتر ألا أترك فضولك على ظمأ ، فاعلم أن ما كان من أحداث
عمر الفتى يمكن إجماله على هذا النحو :

أحسن الفتى بأنه كأنما أُلقي به في أتون يتضرم ، وقودُه أصناف من
خلق الله يتفاوتون طبقات ودرجات ، كانوا جميعاً يضطربون حيناً في هذا
الأتون ، ثم تستحيل شخوصهم حفنة من رماد ، وإذا بجاروفٍ يقتحم
في القينة بعد القينة جَنَبَات الأتون ، فيمتلئ بهذا الرماد الهامد ، ولا يلبث
أن يدفع به في مرمى القمامات ... في ذلك التلّ النبوذ !

وشعر القى يوما بأن الجاروفَ يحتويه . . . يحتويه قبضةً من رماد
 ليُلقيَ بها في المرمى البعيد !
 واستقرَّ بالقى مصيرُهُ ، يتقلب على سَفْحِ هذا التل المنبوذ ، مستكيناً
 لذلك المصير .

ويتصفحُ القى ، في الحين بعد الحين ، سوافَ أحداثه ، ومواضى أيامه ،
 منذ كان يُسمَّى إنساناً سَوِيّاً له عقل وروح ، إلى أن استحال حَفَنَةً
 مهملّة من الرماد الزرّيّ ، فتراءى له على الفور هذه « الحصاة » . . .
 فَتَسَرَّى في حُطامه رِغْشَةٌ يتناثر بها رَمَادُهُ ، ثم إذا هو يتجمّعُ ويتكسّ
 في مُسْتَقَرِّهِ الأخير !



ورقة النصيب

في « قهوة الأفندية » بِحَيِّ « الحُسَيْن » ركن اصطلاح عُمارُ القهوة على تسميته بركن « سيد أفندی » ... فقد كان وَقفاً عليه ، ظل يختلف إليه قرابةَ عَشْرِ سنين .

ولم يكن أحد تحدّثه نفسه بأن يزاحمَ « سيد أفندی » في ركنه ، فإن الرجل كان موضعَ احترام الناس ، لما تَمَيَّزَ به من شمائل رِقاق ، ولما عرفوه عنه من انتسابه إلى بيت كريم العنصر ، وإن عُبِّثَ به تصاريِفُ الزمن الغدور .

ينتسب « سيد أفندی » إلى أسرة لها في شئون التجارة قدم راسخة ، وقد كان لِمَتَجَرِّها في « المزراوى » صيت بعيد ... أيامَ كان « المزراوى » مِجْوَرَّ التجارة في العاصمة .

على أن المَتَجَرَّ جعل يتضاءل ويخبو على مرِّ الأيام ، حتى انتهَى إلى « سيد أفندی » وهو في درجة من الهزال تنذر بالزوال ، فلم يستطع « سيد أفندی » أن ينتشلَه مما هو فيه ، ورأى خيراً

له أن يتخلص منه بالبيع ، وأن يقنع بما بقي له من عقار يُدرُّ عليه ما يكفل له عيشة قانعة ، ويسر عليه أن يحيا في هدوء وسكينة ، ينعم بذلك الركن الطيب في « قهوة الأفندية » .

كان « سيد أفندي » يُوافي ركنه في الأصيل ، فلا يرى له إلا بعد أذان العشاء ، يقضى وقته في ترّاخٍ وثأوب ، حتى يهبط عليه بعض السّمّار ، فيطرحهم لغو الحديث .

وفي أصيل يوم ، قدّم « سيد أفندي » على القهوة ، يَحْبُ في جلبابه الصوفيّ البلدى ، متباطأً رِزْمَةً من صُحُف اليوم ، وهو يُميل طربوشه على قَوْدِهِ ... وسلك طريقه إلى ركنه ، وهو يحى من يراه من الأصحاب ، تعلو فيه ابتسامته المألوفة ، وإن كانت في هذه الساعة يمازجها لون من التكلف ، ويغشاها ظل من الكآبة والإغتمام .

وما لبث « سيد أفندي » أن اتخذ مجلسه في ركنه المألوف ، ثم نادى فأوصى بالشاى والنارجيلة ، وبسط الصُحُف يحاول أن يُسرّى عن نفسه بقراءة الحوادث والأخبار .

وهكذا شرع يُمارِسُ ما ألف من عمله ، يَقلِبُ صفحةً من أيامه المتكررة المتشابهة !

وبينا هو يرشِفُ من قدح الشاى إذ جاز به بائع أوراق النصب ،

ذلك الغلام المعهود في تلك البقعة ، فما إن اقترب منه يَعْرِضُ بين يديه أوراقه ، حتى زَجَرَهُ « سيد أفندي » مُحَنَّقَ النفس ، وهو يقول له :

هل عَهَدْتَنِي أَشْتَرِي هذا الورق ؟ لِمَ تضايقتني ؟
فقال له الغلام :

عندي أوراق « جمعية الرفق بالإنسان » ، وهي جديرة بالشراء ! ... الكَسْبُ أَلْفُ جُنَيْهِ ... أوراق مضمونة كالذهب ! فازوَرَّ عنه الرجل ، مُقَطَّبَ الجبين ، وهو يقول :
اخترْ غيري ، فألقى على سمعه هذا الهراء ... أُغْرِبُ عن وجهي !

وأقبل على قدح الشاي يترشِّفه ، وانشأ الغلام إلى رُقْفَةٍ عن كَسْبٍ من ذلك الركن ، وجعل يغريهم بقوله :
الكَسْبُ أَلْفُ جَنِهِ ... لم تبق إلا ورقات ثلاث .. السحب غداً ... الورقة ثمنها خمسة قروش فقط ... جرُّبوا حظكم قبل أن تطير الفرصة !

وطَفِقَ الرفاق يحاورون الغلام ويفاكهونه ، وهم يتداولون ورق النصيب ، والغلام مسترسل في حديثه ، يلوك جملة الألف جنيه ويؤديها على أوضاع شتى .

وَهُمْ « سيد أفندى » بَأَن يَمْضِي فِي قِرَاءَةِ صَحِيفَةِ الْمَسَاءِ ،
ولكنه ما أسرع أَن طواها .
إِن مَبْلَغَ الألفِ جَنِيهِ الذِي يَرِنُ بِهِ صَوْتُ الْغَلَامِ قَدْ غَزَا مَنَاطِقَ
تَفْكِيرِهِ .

وَضَاقَ « سيد أفندى » ذَرْعاً بِمَا يَدُورُ فِي مَجْلِسِ الرِّفَاقِ مِنْ
مَحَاوِرَاتٍ فِي شَأْنِ وَرَقِ النَصِيبِ ، فَرَمَاهُمْ بِنَظَرَةٍ تَجَلَّى فِيهَا الْإِسْتِخْفَافُ
وَالْإِصْغَارُ .

بَيَدَ أَنَّهُ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ لَمْ يَلِثْ أَن تَرَاءَتْ لَهُ فِي أَفْقِ خِيَالِهِ
عَشْرَ وَرَقَاتٍ مَالِيَةٍ تَزْهَوُ بِلَوْنِهَا الْعُنَابِيُّ ، وَقَدْ بَرَزَ فِي كُلِّ وَرَقَةٍ مِنْهَا
رَقْمٌ مَائَةٌ جَنِيهِ !

لَا أَحَدٌ يَنْكَرُ أَنَّ مَبْلَغَ الألفِ جَنِيهِ مَبْلَغٌ جَدِيرٌ بِالْإِعْتِبَارِ ...
بِهِ يَسْتَطِيعُ مَازُومٌ أَنْ يَخْلُصَ مِنْ ضَائِقَتِهِ ... مَازُومٌ مِثْلُ « سيد
أَفَنْدِي » الذِي تَحَاصَرَهُ أَقْطَاطٌ جَاءَ أَجْلُهَا ، وَهُوَ الْيَوْمَ يَحْمِلُهَا
هُومًا ثِقَالًا .

وَعَادَتْ يَدُهُ تَسَابُ إِلَى الصَّحِيفَةِ ، يَحَاوِلُ أَنْ يَتَعَلَّلَ بِمُطَالَعَةِ
مَا فِيهَا مِنْ أَخْبَارٍ .

وَأَحْسَنَ بَأَن جِيرَانَهُ قَدْ اشْتَرَوْا مِنْ وَرَقِ النَصِيبِ ، فَمَدَّ إِلَيْهِمْ بَصَرَهُ
يَتَثَبَّتْ ، وَهُوَ مُحَنِّقٌ يَهْمُهُمُ بِالْإِزْرَاءِ ، فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ

« متولى أفندى » وهو شابٌ موظفٌ لامع الفطنة ، ذليقُ اللسان ، يُحسِنُ التحدُّثُ فى شئون المجتمع المصرى .

وكان « سيد أفندى » يأنس به على ما بينهما من اختلاف فى المشارب والأذواق ، فما إن استقر به المقام حتى هتف « سيد أفندى » بأحد النَّدُلِ يطلب لجليسه الشاى .

ثم مال على « متولى أفندى » يقول له ، وهو يشير إلى جيرانه :
عجيباً لأولئك الذين ينفقون أموالهم فى هذه السخائف !
فالتفت « متولى أفندى » حيث أشار رفيقه ، وما عَتمَ أن أوماً إلى الغلام الذى يبيع أوراق النسيب ، فدعاه إليه .

وَزَوَى « سيد أفندى » ما بين عينيه ، وهو يقول :
ماذا أنت فاعل ؟

فابتسم « متولى أفندى » مُجِيباً بقوله :
أجرَّبُ حظى .

— لم أعهدك من أولئك النفر الذين ينصاعون لتلك الأضاليل .
— حقاً لستُ من مدمنى شراء أوراق النسيب ، ولكنى
أمتحن حظى بين حين وحين .

— وهل ظفرت بكسب ؟
— كسب غير قليل ...

وجاء الغلام طَلَّقَ الأسارى ، متحمساً فى الإغراء بالشراء ،
فاشترى « متولى أفندى » ورقة ، وما لبث أن أودعها جيبه .
فقال له « سيد أفندى » :

لقد أضعت نقودك ...

— كلا ، لم أضعها ... إذا لم أكسب فإني أعدُّ تلك النقود
تبرعاً منى لتلك الجمعية التى تعمل الخير .

— كان أجهل أن تتبرع بما تريد التبرع به للجمعية ، دون
أن تشتري ورقاً .

— ولكنى إذ اشتريت الورق ، أداعب حظى ، لعله يستجيب .

— إنها مقامرة ... ولا تنس أن المقامرة حرام !
وكان الساقى قد أقبل بصينية الشاى ، متبرجة بأكوابها الملوّنة ،
يتضوَّعُ منها العطر .

فَطَفِقَ « متولى أفندى » يملأ قده ، وهو يقول مبتسماً :
أنت تُلْقَى القول على عواهنه ، وما يجوز لك أن تُقَحِّمَ التحريم
والتحليل فى مثل هذه الشئون ، فالمعول على النيات . وما دامت
نياتنا صافية ، وأغراضنا شريفة ، فلا داعى إلى التعسير ، والدين
يسر .

وانثنى إلى قده يرشُّفُ منه ، ثم استأنف يقول :

إني أومن بهذه المؤسسات الخيرية التي تُصدر أوراق النصيب ،
 فهي قائمة على فكرة اجتماعية طريفة ، فكرة التعاون .
 فأرسل « سيد أفندى » قهقهة ساخرة ، وهو يقول :
 أى تعاون هذا ؟

— إنه تعاون لا ريب فيه ، فهذه الجمعيات الخيرية التي تُصدر
 ورق النصيب وتعرضه للبيع ، والجمهور الذي يشتري هذا الورق ، إنما
 يشتركان في إسعاد بعضهم بعضاً ، ويتعاونان على أن يتبادلا
 نفعاً وجدوى ... أنا إن ربحْتُ مبلغَ الألف جنيه الذي أنا
 أخرج ما أكون إليه لتحسين حالى ، فكأن هذا المبلغ اكتسبَ
 به لى أولئك الذين اشتروا الأوراق ، دون أن يلحقهم فى ذلك
 رَهَق ولا إعنات .

— هيهات لك يا «متولى أفندى» أن تُقنعنى بهذه الفلسفة العَرَجاء !
 إني مقتنع بأن فكرة ورق النصيب لا تعدو أن تكون احتيلاً .
 — سَمَّها ما شئت ... قل إنها احتيال ... ولكنه احتيال شريف ...
 احتيال مفيد !

فصاح « سيد أفندى » :
 أئمة نوعان من الاحتيال ؟ الاحتيال هو الاحتيال ... شرُّ كلِّه !
 فابتسم « متولى أفندى » ونظر إلى صديقه نظرة إشفاق ، ثم قال :

ألم يَسْبِقْ لك أن اشتريت يوماً ورقة نصيب ؟
 — كلا . . . وهل أنا مخبول حتى أجازفَ بمالى فيما لا ينفع ؟
 فَرَبَّتْ « متولى أفندى » كتفه قائلاً :

هذا عيبك !

— أَسْمَى هذا عيباً ؟
 — أنتَ رجل هَيَّاب . عيبك الكبير هو أنك تُجْفِلُ من المغامرة .
 — إني بحالى هذا لَجِدُّ سعيد .
 — أنتَ تغالط نفسك . . . لستَ بحالك سعيداً . . . لو كنتَ
 غامرتَ فى حياتك شيئاً لكنتَ اليوم أسعدَ حالاً .
 — المغامرة نَذِيرُ الخراب !

— من لا يغامر فى الحياة يا صديق لا يشقُّ ألقاً . . . اعترف لى :
 أُرَادَ دَخْلُكَ منذَ قَتَ على مالك ؟

فَأَرْتَجَ على « سيد أفندى » وزاغ بصره ، وراح يهيمهم فى اختلاط .
 وواصل « متولى أفندى » قوله :

سَأَجِيبُ بلسانك . . . النفقات تزداد ، ورأس المال يتناقص . . .
 لو كنتَ على نقيض ما أنتَ عليه لجعلتَ من مَتَجَرِّكَ القديم مَتَجَرّاً يستردُّ
 مكانته ويزهو فى عهد جديد .

فشمل « سيد أفندى » صمت وسهوم ، وحاصره انقباض ، وغغم :

الحمد لله على كل شيء... أنا راض بحالى !

— القناعة... تقصيد القناعة... ما أقساها من فضيلة !

فخلق « سيد أفندى » فى وجه جليسه ، وهو لا يدري : أُمُعْجَبٌ
هو بقوله ، أم ناظم عليه ؟

ولم يلبث أن همهم :

دَعْنَا من هذا الحديث !

وأقبل على المجلس بعضُ الخلَّان ، فحاض الرفاق فى أحاديث شتى
لم يشترك فيها « سيد أفندى » إلا بِقَدَر ، وكان يبدو كأنه شارد الخاطر ،
مشغول الفكر بطارئٍ من الأمر .

ولما انقضت جلسة العشيّة نهض الرجل متناقل الخطا ، يؤمُّ داره
واستقبلته ساحة « الحسين » يسير الهوينى ، وقد ذهب به التفكير
كل مذهب .

أنراه حقاً قد أضاع فرصاً ما كانت لتضيع لو غامر وخاطر ؟

إنه ليتمثل حانوته الصغير ذلك الذى جرَّ عليه الزمن ذيلَ العفاء ، وقد
غدا متجراً كبيراً تسطَّع على جبينه الأنوار الكهربية السيَّالة ، وبين قاعاته
يموج الناس موجاً ، وأمام الخزانة تتدفَّق الأموال ، لا ينضب لها معين...
فأما هو فإنه يحيا فى رخاء وترَف ، لا تقتير ولا حساب ، ولا مأزقَ
كالذى يعاينه اليوم : ينغص عليه عيشه ، ويسلمه إلى غمٍّ وقنوط !

وتابع السير، وإذا بعينه تتصيدان كومةً على الطَّوَّار، وإذا هي غلام
أوراق النصيب، يَهُوِّمُ برأسه. فألقى «سيد أفندي» قدميه تنمَّلاًن،
ونظره لا يبرح الطَّوَّار.

وشعر الغلام بأن شخصاً عن كَثَب منه، فانغل قائماً، ينفُضُ عنه
فُتُورَ المنام، وأقبل على «سيد أفندي» يعالج القول في حَذَر، ويُدْنِي
منه ورقة في يده:

إنها آخر ورقة... ليس معي سواها... الحظ من نصيبك حتماً...
خمس قروش تعطيك ألف جنيه!

وَتَرَيَتْ «سيد أفندي» يتأمل الورقة في يد الغلام، فرأى الغلام في
ذلك ما يُشجِّعُه على التقدم والمزِيد من القول والإغراء.

وألقى «سيد أفندي» يده تَذَلِّف إلى جيبه، وتَخْرُجُ بخمسة قروش،
وسُرَّعان ما دَسَّها في يد الغلام، واجتذب منه الورقة، وهو يجمع:
لولا ما أنت فيه من فقر ومُسْكَنَةٍ لما اشتريتُ الورقة منك...
فليكن هذا المبلغ مِئحةً لوجه الله!

وطوى الورقة، ثم غيَّبها في جيبه، واستأنف سيره، حثيئةً خطاه.
وما إن أُحْتَلَّتْ هذه الورقة السحرية جيبَ «سيد أفندي» حتى
تبدلت حاله.

قلق طارىء.

ذهن شَرُود .

الأوراق العُنَّائِيَّة تتراقص أخيلتها قُبَالَةَ عينيه .

نوبات تتوارد عليه من تبكيت الضمير .

كيف سَوَّغَتْ له نفسه أن يمدَّ يده إلى هذه المقامرة النكراء ؟

وَأَلَى على نفسه لِيُمَزَّقَنَّ الورقةَ شَرَّ مَزَّق . ولكنه لم يملك أن يفعل .

وما إن بلغ داره واستقرَّ به المقام ، حتى قُرَّب إليه الطعام ، ولكنه لم

يجد من شَهِيمَتِهِ إقبالا ، فلم يُصِْبْ منه إلا قليلا .

وأَوَى إلى فراشه ، يطلب النوم ، فكأنما كانت في انتظاره عجائبُ

أطياف ، وأضغاثُ أحلام .

كُومَات من الأوراق المالية مكدَّسٌ بعضها فوق بعض ، تُحْدَقُ بها

ألسنة من لَهَب ... وهو يحاول أن يفتح سِيَّاحَ النار ، لِيُنْجِيَ الأوراق

من الحريق المحتوم ، فلا يستطيع !

وقضى الرجل ليلةً ليلاً ، جَثَمَتْ فيها على صدره هموم ثقالة .

وانتبه من نومه صُبْحاً ، فأسرع إلى الطريق .

وأَمْضَى سَوِيَعَاتِ الصُّحَا يَتَنَقَّلُ بين المتاجر ، يزور عارفه ، كأنما يَهْرُب

من يومه ، ويتعجلُ غده ، فهو يلتبسُ إزْجَاءَ الوقتِ بكل سبيل .

وكان لا يفتأ يسأل في مُسَاوَرَةٍ ولباقة عن موعد إعلان النتيجة في شأن

أوراق النصيب ، وَيَتَعَرَّفُ المكان الذي يُسْتَقَى منه الخبر اليقين ... وقد

أَلَمْ يخطئه تنفرط إلى هذا المكان ، فوقف يرقبه عن كُتُب منه ، فإذا به
 أمام ظُلةٍ وضِعةٍ فيها مِنْصَدَةٌ مُلِئَتْ أوراقاً ، وقد انكبَّ عليها رجل
 هزيل نحيل ، أكبر ما فيه أنف يتدلى عابثاً بهذه الأوراق .
 وفي ضَحْوَةٍ غده قَدِمَ على تلك الظُلة ، ومَثَلَ أمام الأنف المتدلى ،
 وهو مهتاج النفس ، لا يَمْلِك لأوصاله من قرار .

وتتأقَّت الدقائقُ في سيرها ، و « سيد أفندي » مائل ينتظر .
 وأخيراً تَسَلَّمَ كشف الأرقام ، راجف الأصابع ، زائغ النظرات .
 وبعد مراجعة وتحقيق ، أيقن « سيد أفندي » أنه قد خَسِرَ قروشَه
 الخمسة .

فترك الظُلةَ ساهماً يجفف عرقه ، ولكنه أحسَّ طارئاً من الراحة يسرى
 بين جوانحه : راحة الخلاص من تلك الحيرة وذلك القلق ، راحة الوصول
 إلى رأى حاسم بين مختلف الظنون والأوهام .
 وتراءت على مُخَيَّأٍ ابتسامة . . .

ما كان أعجبها مغامرةً سخيفة ، نقلته يوماً وبعضَ يوم من هدوء
 وطمأنينة إلى جحيم من القلق والاضطراب !
 إنها جحيم حقاً ، ولكنه لا يستطيع أن ينكر ما لهذه الجحيم من طرافة ،
 وما فيها من خروج على الراتب المألوف الذى يَتَمَثَلُ فيه الجود والمحول .
 وألغى نفسه يُطَلِّقُ ضِحْكَةً عالية ، وهو يدفع بقدميه فى الطريق .

وفيا هو يسير ، لمحت عيناه بعض من يطالبونه بالديون ، فتنكّب عن
طريقهم ، وتجنب لقاءهم ، وظفر بالفرار .

لو كان الحظ قد واتاه لأخرس هؤلاء المتبجّحين ، و لرفع رأسه أمامهم
عالياً غير صاغر ولا هيّوب .

ولكن هذه الأوراق العنّابية المنشودة طارت من أفق خياله ، وخلفتها
رهين ضائقته ، لا يجد منها براحا .

مهما يكن من أمر ، فقد أبى الله له أن يكون تفريج ضائقته بوسيلة
بغيضة ليست إلا ضرباً من احتيال مشروع !

وجاء الأصيل ، فعجل « سيد أفندى » إلى ركنه في « قهوة الأفندية »
على مألوف عادته ، وفجأة علت ضجة من حوله ، وما أسرع أن استبان
له أن أحد رؤّاد القهوة هو الذى ظهر بالغنيمة من ورق النصيب !

وشعر « سيد أفندى » بضيق ، وألقى نفسه يهيمهم :

هذا كُتب حرام ... لا يبارك الله فيه ... لقد حمانى الله منه !

وما هى إلا أن وافى القهوة « متولى أفندى » فأقبل على جليسه جياش
الخطاير ، قائلاً :

هأنت ذا ترى كيف ربح جارنا ورقة النصيب ، وظفر بالغنم العظيم ! ..

لو كنت لنصحى سميعاً لكان الربح منك داني المال !

فبادره « سيد أفندى » بقوله :

هل لك في أن نلعب بالنرد؟ ... هذا خير لنا من لغو القول !
 وشرا يلعبان ... ولم يغِبْ عن فطنة «متولى أفندى» أن جلسه يتابع
 اللعب على مضض وتكلف ، فصاح به :

أقترح أن نلعب على رهان ... ولتكن الرهان قليلا من النقود ...
 حتى لا يكون اللعب فاترا كسولا ... نحن نلعب إيقاظا للمشاعر ، وإثارة
 للنفس ، ولا يتم ذلك إلا حين يكون للعب غرض ، وللغلبة غنم .

فرجع «سيد أفندى» يده ، قائلا :

هيات لي أن ألاعبك على نقود ، مهما تكن قلائل .
 قال الرجل ذلك ، وقد طاف بمحيطته ذلك الإحساس الذي استبدَّ به
 وقتاً عصيباً منذ الساعة التي اشترى فيها ورقة النصيب ، إلى اللحظة التي
 عرف فيها أنه لم يظفر بشيء !

لقد قضى هذا الوقت في ثورة نفسية عارمة ، شدَّ ما أتعبته ، ولكنه على
 الرغم من ذلك يعترف بأنها أهدت إليه نشوة ليس له بها عهد ... نشوة
 اليقظة والاهتياج !

وانفضَّ مجلس العشيَّة ، فترك «سيد أفندى» القهوة ، ولما جاز بذلك
 الجار المحظوظ الذي كان له الظفر بالورقة الراجعة ، رمقه بنظرة شذراء !
 وترادفت الأيام على «سيد أفندى» أشبه ما تكون بكتاب يقلب من
 صفحاته المكررة المعادة ، لا جديد فيها إلا اشتداد الضائقة المالية به ،

واجتماع الدائنين عليه ، وتهديدهم إياه باتخاذ إجراءات الحجز والتنفيذ .
ويوماً لاح في القهوة غلام النصيب ، يحمل رزمةً جديدة من الورق
لموعد جديد ، وهو يتغنى بالأرباح والغنائم ، إغراء للرؤا د بالشراء ...
وجاز الغلام بـ « سيد أفندي » في ركنه المعهود ، فما كاد يداينه ويبسط
أمامه الأوراق ، حتى وجد « سيد أفندي » نفسه يمدُّ يده إلى العصا متوعداً
بها ذلك الغلام الجريء الملاح ! ... فقفز الغلام لائثاً بالهرب ، ولكن
« سيد أفندي » جعل يتابعه بنظره ، وهو يتنقل في أرجاء القهوة يوزع الورق
ويقبض النقود ... وكان « سيد أفندي » في أثناء ذلك مكتئب النفس ،
عبّوس الأسارير !

وانقضت السهرة ، وابتغى « سيد أفندي » داره ، وهو يجرجر قدميه ،
ويغالب في نفسه طارئاً من المشاعر ...

وما إن شارف الدار ، حتى ألغى نفسه يعود أدراجَه ، وهو يحدث
نفسه بأن يقصدَ مسجدَ « الحسين » يؤدي صلاةَ العشاء !
ولبت يجتاب منطقةَ المسجد ، كأنه يبحث عن شيء ... وأخيراً وقع
بصره على الكومةِ بجوار حائط ، فتلكأ في سيره ، وجعل يتنحرج .
وتمخضت الكومة عن الغلام ناهضاً يداعبه الأمل في بيع ورقة مما
يحمل ... وتقدم حذرَ الخطوات ، وقد بسط الأوراق أمام « سيد أفندي »

فاجتذب الرجل منها ورقة ، وقذف بالنقود في وجه الغلام ، ثم حث خطاه
إلى البيت لا يُلَوِّى على شيء ! ...

إنه ليعجب لذلك الباعث الجديد الذى ملك عليه أقطار نفسه .

إنه ليحس هيبة من الطرب تملأ ما بين جوانحه .

إنه كيقبل على الطعام فى شبة ، ويلعب أطفاله على المائدة فى
رجابة صدر .

وانقضت ليلته ، والأوراق العنائية العشر تتراقص فى خاطره ، مختلفة
الأشكال والأوضاع .

وتواردت أيام على الرجل ، وهو يتربص اليوم الموعود ، يوم إعلان
الأرقام الراجعة من أوراق النصيب .

وضخوة ألنى نفسه عند الظلة المعهودة ، ماثلاً تجاه الأنف المتدلى ،
وتناول كشف الأرقام ، وأقبل يستجلي حظه المطوى ! ...

وواجهه ، أول ما واجهه ، رقم الورقة التى يملكها !

إنه فى رأس القائمة !

لا يكاد يصدق ...

ونظر إلى الورقة فى إحدى يديه يجمع عينيه ، والتفت إلى الكشف

يقابل الرقم ، وهو يحس بأن قلبه موشك أن ينفجر من بين الضلوع .

وَنَدَّتْ مِنْهُ صَرْخَةً ، وَكَادَ يَتَهَاوَى ، لَوْلَا أَنَّهُ تَمَالَكَ وَتَمَاسَكَ ، وَاعْتَمَدَ عَلَى إِحْدَى قَوَائِمِ الظِّلَّةِ .

وَصَاحَ بِالْأَنْفِ الْمَتَدَلِّ ، وَبَيْنَ اجْتِمَاعِ حَوْلِ الظِّلَّةِ مِنَ النَّاسِ ، قَائِلًا :
 أَنَا صَاحِبُ الرَّقْمِ الرَّابِعِ ... أَنَا رَابِعُ الْوَرَقَةِ الْأُولَى !
 وَنَهَضَ ذُو الْأَنْفِ الْمَتَدَلِّ مِنْ فُورِهِ يَرْحُبُ بِالْمَحْظُوظِ السَّعِيدِ ، وَسَرَّعَانَ مَا قَدَّمَ لَهُ مَقْعَدًا ، وَهُوَ يُمِيطُ عَنْهُ الْغُبَارَ .
 وَتَحَرَّكَ يَدَاهُ يَصْفَقُ ... وَجَارَ مُنَادِيَا غِلَامَ الْقَهْوَةِ الْمَجَاوِرَةِ لِیُخْضِرَ لِلضَّيْفِ الْكَرِيمِ مَا يَرُوقُهُ .

وَهَدَّاتِ الثُّورَةَ فِي نَفْسِ « سَيِّدِ أَفْنَدَى » وَمَلَكَ زِمَامَ أَمْرِهِ ، فَانْكَشَفَ لَهُ أَنَّهُ فَرَطْتُ مِنْهُ هَنَاتٌ لَا تَلِيْقُ بِهِ أَمَامَ ذَلِكَ الْجَمْعِ الَّذِي تَكَاثَرَ عَلَيْهِ حِينَ انْطَلَقَ صَوْتُهُ !

وَأَخَذَ صَاحِبُ الْأَنْفِ الْمَتَدَلِّ يَشْرَحُ لَضَيْفِهِ : كَيْفَ السَّبِيلَ إِلَى تَسْلِيمِ الْوَرَقَةِ الرَّابِعَةِ ؟ وَكَيْفَ الْحَصُولَ عَلَى مَا غَنِمْتَ مِنْ مَالٍ ؟
 وَمَا لَبْتَ أَنْ اتَّفَقَ مَعَ ضَيْفِهِ عَلَى أَنْ يَرِاقِقَهُ ، لِيَنْفَعَهُ بِخَبْرَتِهِ وَتَجْرِبَتِهِ فِي تَسْيِيرِ الْإِجْرَاءَاتِ .. وَلَمْ يَنْسَ أَنْ يَذْكُرَ صَاحِبَهُ فِي مَلَاظِفَةٍ وَمَلَايِنَةٍ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ مِنْ مَنَحَةٍ طَيِّبَةٍ سَخِيَةٍ !

وَانْصَرَفَ « سَيِّدُ أَفْنَدَى » فِي مَعِيَةِ الرَّجُلِ ، وَرَأْسُهُ كَأَنَّهُ أَثُونٌ يَتَأَجَّجُ ...
 انْقَطَعَ « سَيِّدُ أَفْنَدَى » عَنِ الْقَهْوَةِ أَيَّامًا ، فَعَكَفَ عَلَى اتِّخَاذِ الْخَطِّطِ

ورسم البرامج ، وهو لا يفتأ يَعدُّ الأوراق المالية في صباح ومساء ...
وتسامع الناسُ بنينا هذا الكسب الذي أصابه الرجل ، فزاره صديقه
الحكيم «متولى أفندى» وهنأه على جُرأته ، وجعل يُدِلُّ عليه بأنه هو الذي
شجَّعه على المغامرة والاقتحام ... فأكد له «سيد أفندى» أن الأمر لا يعدو
أن يكون تدييراً من الأقدار ليس لأحد فيه إضبع ، وأنه سوف ينفق هذا
المال الجديد في وجوه البر والخير .

وكان «سيد أفندى» بعد ذلك لا يكاد يجلس في ركنه من القهوة ،
حتى يتهافت عليه غلمان أوراق النصيب ، يعرضون ما عندهم من مختلف
الأصناف ، فلا يرذم الرجل ، بل يأنسُ بهم ، ويبشُّ في وجوههم ،
ويجاذبهم أشتات الأحاديث ، ثم يشتري مما يعرضونه مثنى وثلاث ورباع !
وطال ترَّدَاد «سيد أفندى» إلى الظلَّة المهددة العامرة بالأنف المتدلى
يتعرَّفُ الأرقام الراجعة ، ويتفهم دخائل الجهات التي تُصدر أوراق النصيب ،
حتى أصبح بصيراً بهذه الشؤون ، وصارت الظلَّة مثابةً حييةً إليه ،
يستجيب لها ما وسَّعه أن يستجيب !

وعاش «سيد أفندى» هذه الحِقبة من حياته تسرى فيه نشوة
الترقب ، وتعتلج بين جوانحه حَمِيَّةُ الانتظار ، فلم يعد النهار يمرُّ به طويل
الذيول ، ضافى الساعات ، يقضيه في تناوب وتراخ .

وكان من تديير القدر الخفي أن يستلين الحظ لـ «سيد أفندى» وأن

بألفه ، فواتاه في الفينة بعد الفينة بكسب تفاوت قلة وكثرة ، ثم سخا له يوماً بغيره ليس باليسير ... فأمن الرجل بحظه ، وتوضح له بذلك منهاج في الحياة جديد .

ما أعجب أسرار القدر !

أترأه قد رتب له « سيد أفندي » تلك المصادفات ، لينهج به مسلكاً معيناً ينتهي به إلى غاية مرسومة ؟ !

وشوهد الرجل بعد ذلك لا يلعب الترد مع صديقه « متولى أفندي » إلا على رهان موفورة ...

يا لها من جلسات صاحبة حامية !

إن « سيد أفندي » في تلك الجلسات غيره بالأمس .

لقد ودّع السكينة والهدوء ، وأصبح الآن يرقب اللعب بعين متممة ، ووجه متقلص ، وأوصال مستوفزة .

ولم تلبث تلك الجلسات أن اجتذبت إليها أنظار رؤاد القهوة ، وأصبحت ذائعة الصيت ، مشهوداً لها بعلو الشأن .

ولم يكن بُدّ من أن تزداد الحدة بين الصديقين فرسى الرهان ، حول منضدة اللعب ، وأن تنقلب إلى ضراوة وشراسة ، أعقبها عداوة وشحناء ، فإذا الصديقان يفترقان إلى غير مُلتقى !

وتضرمت مشاعر « سيد أفندي » ، فطلبت المزيد من الوقود .

إن تلك المشاعر التي لبثت دهرًا طويلًا تحت أثقال الشبكات والحمول ،
تعانى الكبت والضغط ، لم تكد تحسُّ القرُجَةَ من هذا الضيق ، حتى
انطلقت وقد استبدَّ بها السُّعار .

لا غرَوْ إذن أن يأخذَ « سيد أفندى » طريقه إلى ساحات السِّباق ،
يصول فيها ويجول .

وتفتقت فطنته ، وتوهجت بصيرته ، فما أسرع أن أصبحت له خبرة
لا تعدُّ لها خبرة في شئون السباق ، وبرزت شخصيته بين قُصَّادِ هذه
الجامع ، فصار فيها علمًا من الأعلام . . . !

ولم يكثرث « سيد أفندى » بما يظفر به من كسب ، وما يُمنَى به من
خَسار . . . كانت النقود في حركة دائبة من يده إلى جيبه ، ومن جيبه
إلى يده ، لا يقرُّ لها قرَّار !

وعلى الرغم من أن الأوراق المالية كانت كثيرة الانسياب بين يديه ،
فإنه كان يحسُّ أثقال الديون تتعاقبُ على كاهله ، بيد أنه لم يكن يجد
لذلك في نفسه كبيرَ اهتمام .

إنه في شُغلٍ شاغل بهذه الحياة الصاخبة الزاخرة بألوان المضاربات
التي تثير المشاعر ، فهو يمارس أنواعها وضروبها ما وجدَّ إلى ذلك السبيل .
ومن ثمَّ لم يكن بدُّ من أن تتقاذفه أندية القمار ، وأن يقضى حول

مناضدها لياليه ، ولا يتركها إلا وقد أحسن وطأة التعب تنهك أعصابه ،
وتفتت أوصاله .

شدّ ما دفعت الأقدار بـ « سيد أفندى » في ذلك التيار الجارف .
إنها لتقذف به في تلك الموجة الدوّامة ، فهو يدور فيها ولا يفتأ يدور ،
ولا يعرف لدورانه منتهى ، ولا يرى أمام عينيه شاطئ خلاص !
أكان في مستطاع « سيد أفندى » — وهو رهين ذلك التيار العارم
الفوار — أن يستنقذ لنفسه أنارةً من شمائله الغابرة ، شمائل الدّعة
ودماتة الطبع ؟

لقد أصبح الرجل اليوم شديد المراس ، حديد المزاج ، سريع
الغضب ، غليظ القول ، حتى في معارض الدّعابة والمزاح ! ..
وليلةً وهو يقظانٌ يلعب في ناد من أندية القمار ، شرب حتى أثقل ،
وملكته نوبة اللعب ، فهاج وماج ، وجعل يشغب على الرفاق . وكان
من جرّاء ذلك أن قامت معركة بينه وبين غريم له ، وإذا بـ « سيد
أفندى » يقذفه بزجاجة شجّت رأسه .

وبات « سيد أفندى » في المَحْبِيس بقية ليلته ، وأتاه النبا صبحاً بأن
غريمه قد أودّت به جراحه .

وبدأ الرجل طوراً جديداً من أطوار حياته .

عشرة أعوام قضاها حليف السجون ، عشير الجُناة الآمين .

وَصَدَرَ عَنِ السَّجْنِ ، بَعْدَ أَنْ عَلِقَتْ بِنَفْسِهِ أَدْرَانُ الْإِجْرَامِ .
 وَلَمَّا أَنْ تَزُورَ يَوْمًا مِْنْطَقَةَ « الْحُسَيْنِ » وَيَنْتَهِيَ بِكَ الْمَطَافُ إِلَى
 « قَهْوَةِ الْأَفْنَدِيَّةِ » ... وَلَوْ فَعَلْتَ لَمَّا أَخْطَأَ بَصْرُكَ رَجُلًا بَادِيَ الزَّرَايَةِ ،
 وَضِيعَ الْمَلْبَسِ ، يُقَلِّبُ فِي النَّاسِ نَظْرَاتٍ كَأَيَّةِ شَعْنَاءَ . وَلَكِنْ
 لَا يُعْيِيكَ أَنْ تَسْتَجْلِيَ تَحْتَ سِمَاتِ هَذَا الرَّجُلِ أَنْقَاضَ نِعْمَةٍ غَابِرَةٍ ،
 وَبَصِيصَ كَرَامَةٍ غَارِبَةٍ !

إِنَّهُ لَيْسَ يَسُوقُ رَجُلِيهِ سَوْقًا ، يَمْسَحُ أَنْفَهُ بِظَهْرِ يَدِهِ ، وَهُوَ يَجُوسُ خِلَالَ
 الْمَنَاضِدِ ، يَسْطُرُ رِزْمَةً مِنْ أَوْرَاقِ النَّصِيبِ ، مُشِيدًا بِمَا تُفِيئُهُ عَلَى النَّاسِ مِنْ
 فَضْلِ عَظِيمٍ ، وَخَيْرِ عَمِيمٍ !

فَإِذَا مَا كَلَّتْ قَدَمَاهُ عَنِ السَّعْيِ ، وَجَفَّ حَلْقُهُ مِنَ الْمَنَادَاةِ ، انْتَحَى عَلَى
 الطَّوَارِ نَاحِيَةً عَنْ كَثَبِ مِنَ الْقَهْوَةِ ، وَتَجَمَّعَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ ، وَاعْتَمَدَ
 بِظَهْرِهِ عَلَى الْحَائِطِ ، وَالْفِي نَظْرَاتِهِ تَسْرُبُ إِلَى ذَلِكَ الرُّكْنِ الْعَتِيدِ الَّذِي
 كَانَ مَثَابَتَهُ الْمُخْتَارَةَ بِالْأَمْسِ ...

وَلَا يَلْبَثُ قُدُّهُ أَنْ يَنْفَرَجَ عَنِ ابْتِسَامَةِ شَاحِبَةٍ تَنْقُلُهُ إِلَى عَالَمِ الذِّكْرِيَّاتِ .
 ثُمَّ إِذَا بِرَأْسِهِ يُهَوِّمُ ، وَبِحُفْنِيهِ يَتَرَاخِيَانِ !

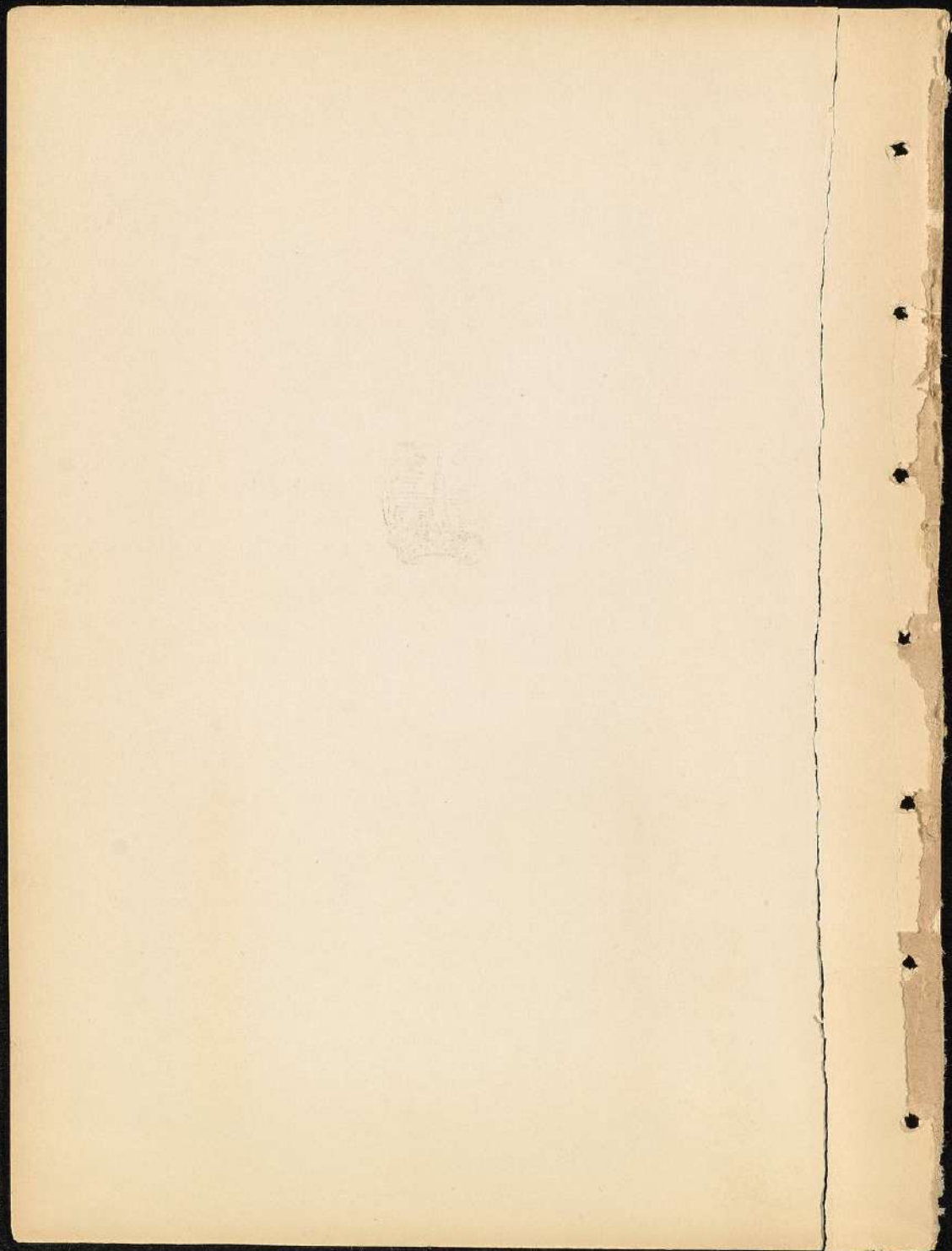
فهرس

س	...	...	...	...	...	...	كل عام وأتم بخير
٥	...	...	...	...	...	...	صراع في الظلام
٢٩	...	...	...	...	...	...	مجنون
٥٥	...	...	...	...	...	...	الحكم لله
١٠٣	...	...	...	...	...	...	قبلة مرهونة
١١٩	...	...	...	...	...	...	في ظلمة الليل
١٢٩	...	...	...	...	...	...	في غفوة الأقدار
١٤٩	...	...	...	...	...	...	عروس من قطن
١٦٩	...	...	...	...	...	...	هذه الحصاة
١٩١	...	...	...	...	...	...	ورقة النصيب
٢٠٥		...	...	...	...	...	

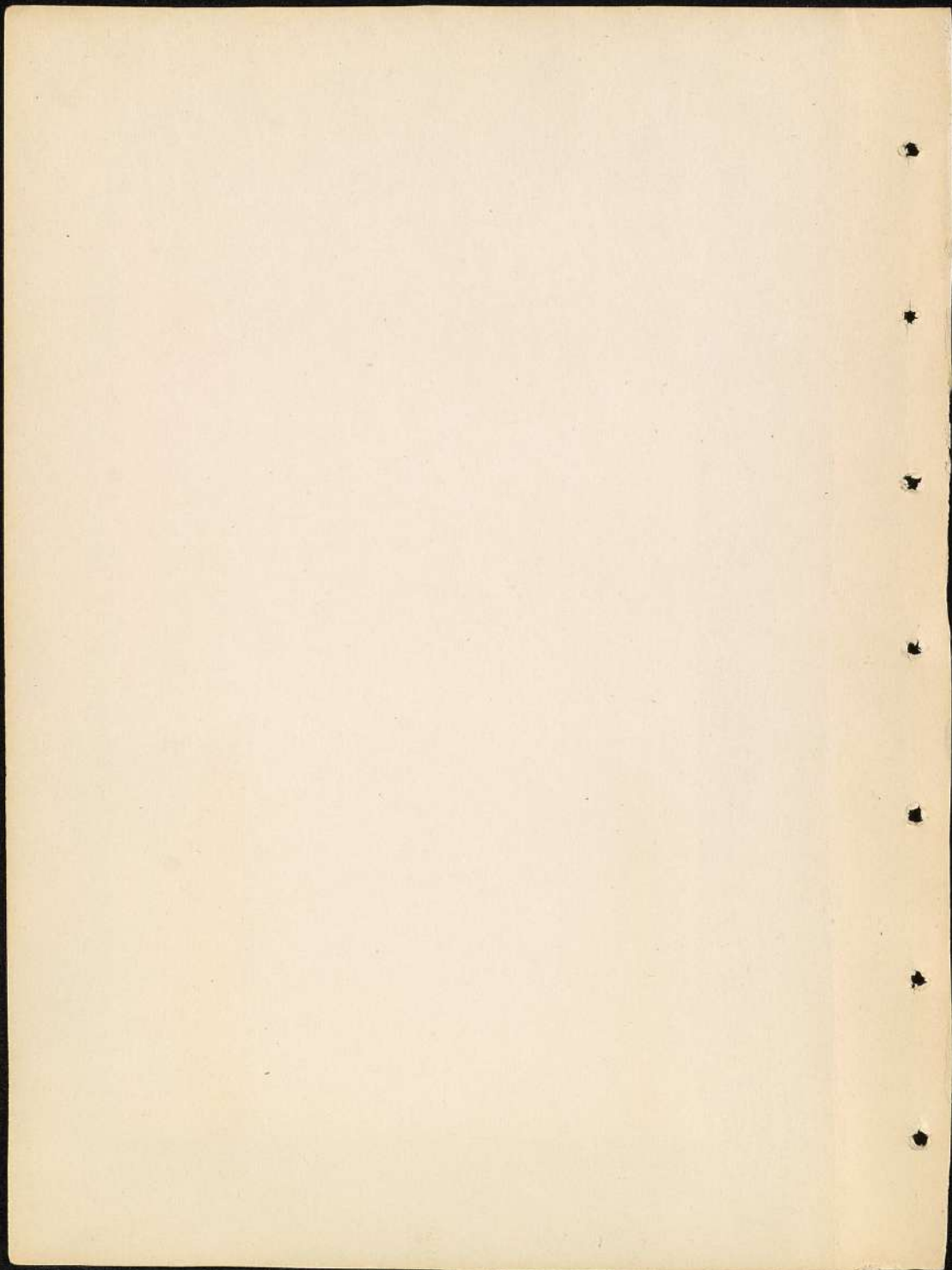
أحدث مؤلفات

محمود نيمور

- | | |
|---------------------|----------------------------|
| ● اليوم خمر | ● ملامح وغضون |
| ● خلف اللثام | ● إحسان لله |
| ● عطر ودخان | ● أبو الهول يطير |
| ● سلوى في مهب الريح | ● حواء الخالدة |
| ● شفاه غليظة | ● كليوباتره في خان الخليلي |
| ● نداء المجهول | ● المخبأ رقم ١٣ |
| ● قال الراوى | ● فن القصص |
| ● مكتوب على الجبين | ● قنابل |
| ● سهاد | ● فرعون الصغير |
| ● المنقذة | ● عوالى |
| ● كل عام وأتم بخير | ● أبو شوشة |







COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES

This book is due on the date indicated below, or at the expiration of a definite period after the date of borrowing, as provided by the library rules or by special arrangement with the Librarian in charge.

DATE BORROWED	DATE DUE	DATE BORROWED	DATE DUE
C28 (251) 100M			

893.79

TL363

893.79

TL363

Taimūr

Kull cām wa-antum bi-khayr wa-
qisas ukhrā.

OCT 12 1951

BINDER
R-106

DEC 16 1951

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE



CU58872787

893.79 T1363

Kull am wa-antum bi-